القبائل العربية فى الشام ودورها فى عصر سلاطين المماليك

المقدمة : التمهيد

قائمة بأسماء سلاطين المماليك ومن عاصرهم من الزعماء العرب.

محتوى الكتاب

نقد المصادر : الوثائق، النقوش، العملة الشامية المملوكية، المصادر الكتابية، الأنساب والسير والوفيات، المؤلفات التاريخية، المراجع العربية والأجنبية، الدوريات.

الفصل الأول : أحوال الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك

الوصف الجغرافى، التقسيم الإدارى، أهل الشام، المذاهب والعقائد.

الفصل الثانى : العصبية العربية فى الشام :

العصبية عند العرب، موقف الإسلام من العصبية، أثر الإسلام فى تكوين أمة عربية واحدة محورها الدين، تسمو على مبدأ العصبية القبلية العربية، ضياع مبدأ الأمة منذ الحكم الأموى فى الشام، موقف عرب الشام من العباسيين، فى أيام ضعفهم، موقف عرب الشام من البويهيين والفرس فى العراق، موقف عرب الشام فى عصر الفاطميين الذين إعتمدوا على المغاربة، موقف عرب الشام فى زمن الصليبيين، موقف عرب الشام فى عصر الأيوبيين، موقف عرب الشام فى عصر المماليك.

الفصل الثالث : موقف عرب الشام من الحكم المملوكى:

إعتراف الحكم المملوكى بزعماء قبائل عرب الشام، اقطاعاتهم واستحواذهم على مناطق فى بلاد الشام، اشتراكهم فى الجيش المملوكى، كجنود

أسلحة فى حروبهم وحراستهم للطرق وغيرها، أمثلـة علـى دورهـم الحربـى فـى أيام المماليك، دور عرب الشام فى نهاية الحكم المملوكى.

الفصل الرابع : العمران فى الشام فى عهد المماليك :

حياة قبائل الشام الإجتماعيـة فـى الحضـر والباديـة، إشـتغالهم بالزراعـة، والتجارة والرعى وتربية الخيول، أزياء عرب الشام، الدور الثقافى لعرب الشـام، إنتشار التعليم، إنتشار المدارس.

الخاتمة :

ثبت المصادر والمراجع والدوريات.

التمهيـــد

إرتبط العربى فى الشام بقبيلته التى إستشعر برابطة حقيقية مـع أفرادهـا، مثل هذه الحقيقـة، أثـارت مشـكلة سياسية هامـة، إذ أن العربـى فـى الشـام جعل الولاء للقبيلة قبل الولاء للدولة، وذلك لتمسكه بالأنساب وبالعادات والتقـاليد. ممـا أدى إلى ظهور كثير من الصراع القبلى وقيام الفتن والمنازعات.

ولعل الظروف الجغرافية، للشام، من الأسـباب التـى جعلـت أهـل الشـام لايكونون دائما دولة واحدة أو شعبا واحدا، إذ أنهم من هجرات متعددة، ومتواليـة الا انهم سرعان مايندمجون معا. ولذلك يقال لهم عادة أهل الشـام ولايقـال شـعب الشام، على عكس مايقال فى مصر شعب مصر وليس أهل مصر.

ولاشك أن أهل الشام القدامى الذين هم من أصول قديمة مثل عمورية أو أرامية أو كنعانية أو غيرها وهم الذين وفدوا عليها من داخل الجزيرة العربية أو من أطرافها أو مـن هجـرات مـن البحـر الأبيـض، ممـا كـان السبب فـى ظهـور عصبيات بمعنى التعصب العرقـى، للمجموعـة الواحـدة بحيـث أن مجـىء هجـرة جديدة كان يعنـى تعصبـا أو إثـارة لعصبيه مسـتقرة. إذ أن أى عصبيـة لاتنسـى أصولها. وقد استمر ذلك عـبر تـاريخ الشـام الطويـل حتـى بعد ظـهور الإسـلام، حينما جاءتها هجرات من داخل الجزيرة أو من أطرافها متمثلة فى عرب عدنانية أو يمانية على الخصوص.

وهدفنـا مـن هـذا الكتـاب، هـو تتبـع العصبيـة الشـامية العربيـة ودورهـا الحضارى فى عصر المماليك بالذات، وان كان هذا يبدو مناقضـا لـروح العصـر بسبب أن روح الاسلام كانت قد اندمجت فـى النفـوس وبـدأت تهدهـد مـن روح العصبية، حتى تحولت كمـا ذكـر ابـن خلـدون فـى مقدمتـه الـى غايـة مـن الدعـة والرسوخ. ومع ذلك فبقى أهل الشام يتمثلون فى قبائل.

يضاف الى ذلك أن المماليك بدورهم اهتموا بالشام اهتماما كبيرا. على أساس أن يكون دورهم فى الشام مكملا لدورهم فى مصر ، مما جعل نظام الحكم فى الشام صورة طبق الأصل مما كان يوجد فى مصر فى عصرهم. وكأنه نداء للوحدة الأزلية بين قطرى مصر والشام.

كذلك اتخذت القبائل العربية فى الشام من المماليك موقفا مؤيدا لهم سواء فى التمسك بحكمهم أو التأييد لسياستهم، على الرغم من أن الشام، كان مجالا لغزوات الصليبيين والمغول والعثمانيين، ولكن تمسك أهل اشام بالحكم المملوكى، ربما لأن المماليك أصبحوا فرسان المسلمين وقاموا فى بداية قيام دولتهم بدفاع مشرف عن الشام ضد غزوات المغول فى موقعة عين جالوت مما أقنع أهل الشام بأحقية المماليك فى حكم البلاد. وذلك على عكس موقف العرب فى مصر الذين كانوا يأنفون فى أول الأمر من أن يحكمهم الرقيق. وقد كان تجاوب عرب الشام مع المماليك سببا فى أن مكن هؤلاء من الدفاع عن الشام ضد أعدائه، ولاسيما من الفرنجة ولاسيما المغول.

والله ولى التوفيق.

قائمة بأسماء سلاطين المماليك الذين ورد ذكرهم فى هذا الكتاب ومن عاصرهم من الزعماء العرب فى بلاد الشام

السنون	السلاطين	زعماء القبائل	ملاحظات
٦٥٥/٦٤٨(١٢٥٧/١٢٥٠)	المعز أيبك	زامل بن على بن حديثه	
٦٥٨/٦٥٧ (١٢٦٠/١٢٥٩)	السلطان قطز	زامل بن على	
٦٧٦/٦٥٨ (١٢٧٧/١٢٦٠)	الظاهر بيبرس	عيسى بن مهنا	
٦٧٨ (١٢٧٩)	العادل سلامش		
٦٩٣/٦٧٨ (١٢٩٠/١٢٧٩)	المنصور قلاوون	عيسى بن مهنا	
		أحمد بن حجى	
٦٩٣/٦٨٩ (١٢٩٣/١٢٩٠)	خليل قلاوون	محمد بن أبى بكر بن هبه	
		فخر الدين عثمان	
٦٩٤/٦٩٣ (١٢٩٤/١٢٩٣)	محمد بن قلاوون	جماز بن محمد بن أبى بكر	مدة أولى
٦٩٦/٦٩٤ (١٢٩٦/١٢٩٤)	العادل كتبغا	مهنا بن عيسى	
	محمد بن قلاوون	فضل بن عيسى بن مهنا	مدة ثانية
		موسى بن مهنا	
٦٩٨/٦٩٦ (١٢٩٧/١٢٩٧)	المنصور لاجين	مهنا بن عيسى	
٧٤١/٧٠٩ (١٣٤١/١٣١٠)	محمد بن قلاوون	سليمان بن مهنا	
		أحمد بن نصير	مدة ثالثة
		هلال بن ساعد الزبيدى	
٧٤٣/٧٤٢ (١٣٤٢)	الناصر أحمد	سليمان بن مهنا	

تابع القائمة

السنون	السلاطين	زعماء القبائل	ملاحظات
٧٤٣/ (١٣٤٢/١٣٤٥)	الصالح اسماعيل	فياض بن مهنا	
		أحمد بن مهنا	
		سيف بن فضل	
٧٤٦/٧٤٧(١٣٤٥/١٣٤٦)	الكامل شعبان	أحمد بن مهنا	
		نعير بن حيار	
٧٤٨/٧٥٢(١٣٤٧/١٣٥١)	الناصر حسن	حيار بن مهنا	مدة أولى
٧٥٥/٧٦٢(١٣٥٤/١٣٦١)	الناصر حسن	حيار بن مهنا	مدة ثانية
٧٦٤/٧٧٨(١٣٦٣/١٣٧٧)	الأشرف شعبان	زامل بن موسى بن عيسى	
		معيقل بن فضل بن عيسى	
٧٧٨/٧٨٣(١٣٧٧/١٣٨١)	المنصور على	معيقل بن موسى بن عيسى	
		عيسى بن مهنا	
٧٨٣/٧٨٤(١٣٨١/١٣٨٢)	الصالح حاجى	عيسى بن مهنا	
	الظاهر برقوق	عيسى بن زيد بن جماز	مدة أولى
		فضل بن حجى	
٧٩٢/٨٠١(١٣٩٠/١٣٩٩)	الظاهر برقوق	علي بن فضل بن حجى	مدة ثانية
٨٠١/٨٠٨(١٣٩٩/١٤٠٥)	الناصر فرج	نعير بن حيار	
٨٧٣/٩٠١(١٤٦٨/١٤٩٦)	الأشرف قايتباى	سيف بن فضل	
٩٠٦/٩٢٢ (١٥٠٠/١٥١٦)	الغورى	محمد بن ساعد	
٩٢٢/٩٢٣ (١٥١٦/١٥١٧)	طومان باى	ناصر الدين بن الحنش	

محتوى الكتاب

فى هذه الدراسة، التى تتناول القبائل العربية فى الشام ودورها فى عصر سلاطين المماليك، الذين عرفت دولتهم باسم الممالك الإسلامية، أو المملكة الإسلامية. وان كانت هذه التسمية، الممالك، لها أصول فى العصر الأيوبى، حيث انقسم الشام بين أمراء الايوبيين الى ممالك. الا أنه كان لابد من أن يفرد بحث عن اقليم الشام الذى كان جزءا هاما من دولة سلاطين المماليك. والكتاب فى أربعة فصول مع مقدمة تشمل تمهيدا، ومحتوى الكتاب ونقد للمصادر وخاتمة.

الفصل الأول : وهو بعنوان، أحوال الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك. الوصف الجغرافى، التقسيم الإدارى، أهل الشام، المذاهب والعقائد.

الفصل الثانى : وعنوانه العصبية العربية فى الشام، والدور الذى لعبته القبائل العربية فيه، منذ عصر الدولة الأموية التى اشتدت العصبية فيها، بين القبائل القيسية واليمينة وأسبابها ونتائجها. وظهور تكتل عربى منذ العباسيين الذين قامت دولتهم على أكتاف الشعوبية من الفرس والترك خفف من حدة العصبية القبلية فى الشام التى استمرت الى وقت ظهور المماليك.

الفصل الثالث : وعنوانه، دور القبائل العربية السياسى والحربى فى الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك، الدور الذى لعبته القبائل العربية فى الحياة السياسية فى العصر المملوكى. مثل إلتجاء بعض سلاطين المماليك وأمرائهم الى زعماء القبائل العربية فى الشام، لمساعدتهم فى استرداد سلطانهم المفقود، أو لنصرتهم على

معارضيهم، أو حمايتهم من تدبير مؤامرة. والدور الذى لعبته هذه القبائل فى السياسة الداخلية للدولة من حيث رفع المعاناة عن الأهالى من جور وعسف بعض الولاة. والعلاقة الوطيدة التى ربطت بين زعماء القبائل العربية فى الشام وبين سلاطين المماليك فى مصر.

وفى هذا الفصل أيضا دور العرب الحربى فى الدفاع عن الشام وردهم التتار والمغول على أعقابهم منهزمين ودورهم فى حروب الفتوحات التى تمت فى الشام، واسترداد كثير من المدن الشامية من الصليبيين فى فلسطين والكرك والشوبك وبلاد الساحل.

الفصل الرابع : وعنوانه، الدور الحضارى للقبائل العربية فى الشام. وهو عن تقاليدهم وعاداتهم، واحتفالاتهم وملابسهم، ثم دور العرب الثقافى واهتمامهم بنشر العلوم والفنون والآداب، وآثارهم فى اللغة العربية وعلوم الدين.

وخاتمة.

نقد المصادر

الوثائق، النقوش، العملة الشامية المملوكية، المصادر الكتابية، الأنساب، السير والوفيات، المؤلفات التاريخية، المراجع العربية والأجنبية، الدوريات

تعتمد أهمية مايصل إليه هذا الكتاب، على دراسة الحوادث المتعلقة به، وأخذها من مظانها، تلك التى كتبها مؤرخون عاشوا فى العصر المملوكى. وهى فى معظمها مصادر تاريخية سردية. ولكن بالإضافة إلى ذلك كان لابد من الرجوع الى مصادر تاريخية لها أهميتها الكبرى، لم تكتب للتاريخ أصلا، حيث اختص بها ديوان الانشاء المملوكى فى مصر والشام، فكان ديوان الانشاء الشامى له نفس النظام بديوان الانشاء بالقاهرة؛ وان كان بالضرورة لابد أن يتبعه فيقوم بتصدير الوثائق الرسمية المملوكية المتعلقة بأحوال الشام والاحتفاظ بصور منها، مثلما يكون الحال لديوان الإنشاء بالقاهرة وهى التى تتناول أمورا متعددة أغلبها صادر من الدواوين المملوكية الرسمية المختلفة لكى يقوم بتصديرها أو الاحتفاظ بنسخ منها، اذ لم نسمع بأى ديوان آخر يوجد به أرشيف- الذى يمثله الخازن - غير ديوان الانشاء وان لم يذكر أن دواوين أخرى فرعية لها مثل هذا التنظيم فى الأرشفة.

ومن هذه الوثائق المملوكية التى تهم البحث، الأوامر السلطانية الخاصة بأرباب الوظائف من أمراء العربان فى الشام. وهم طبقات على حسب أهمية القبيلة فى الشام، من ناحية مركزها السياسى حيث أنها اذا كانت متعاونة مع السلطان المملوكى يصير لها مكانتها الخاصة فى الدولة المملوكية. فكانت هذه الوثائق المملوكية تتناول تعيين زعماء الأسر القوية فى قبائل الشام، حيث كان

يصدر لها تقليد أو مرسوم مثلما كان يصدر عند تعيين موظفى الدولة المملوكية الكبار الآخرين فى مصر والشام. ومن هذه الوثائق المملوكية يتبين أنه كانت توجد تفرقة فى الصياغة لكل طبقة من أمراء الشام باعتبار قوة نفوذه فى قبيلته، ومدى تعاونه مع السلطان وهذا يطابق تقسيم القلقشندى لكبار موظفى الدولة المملوكية الى طبقات متفاوتة. وذكر القلقشندى أن تعيين زعماء العرب كان فى طبقة أولى مقسمة الى مرتبتين. ويعين الأمير من هذه الطبقة بتقليد سلطانى. وطبقة ثانية من زعماء العرب مقسمة الى مرتبتين أيضا. ويعين الأمير من هذه الطبقة بمرسوم سلطانى بحيث أنه على حسب هذه الفروق فى التعيين يكون أيضا نوع الورق للتقليد أو المرسوم. فأصحاب الطبقة الأولى من زعماء العرب يخرج لهم التعيين فى قطع النصف وهو حجم ممتاز من الورق. أما الآخرون وهم الطبقة الثانية فيكون القطع فى حجم الثلث وهو أقل من الأول. ومن هذا التمايز أيضا اضافة الياء ألقابهم، فبعضهم بياء وبعضهم بغير ياء. فكل هذه المعلومات المستمدة من وثيقة التعيين تبين أهمية الوثيقة بالنسبة الى موضوع البحث.

فمن هذه الوثائق مثلا، وثيقة فضل بن عيسى(١) التى وردت فى كتاب صبح الأعشى القلقشندى بتوليته عام ١٣١٢/٧١٢ أميرا على آل فضل فى حراسة الحدود الشمالية للشام من حمص(٢) الى أطراف العراق، كما تكشف عن

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ١٢، ص ١١٨، ط القاهرة ١٩١٤.

(٢) بالكسر ثم السكون، والصاد المهملة: بلد مشهور قديم كبير مسور، وفى طرفه القبلى قلعة حصينة على تل عال كبير، وهى بين دمشق وحلب فى نصف الطريق، فى أهلها كثير ممن رأى مذهب النصيرية، وأصلهم الامامية (ياقوت الحموى، معجم البلدان، ص٣٠٢ ص٣٠٤).

دور قبائل عرب آل فضل - أسرة من العربان فى قبيلة آل ربيعة(١) - فى حراسة الحدود الشمالية للشام، ومطالعتهم أخبار التتار الذين كانوا يهاجمون فى الشام وتبين أيضا التفاف أفراد القبيلة جميعهم حول زعيمهم الذى امتاز بالشجاعة وحسن الطاعة والاخلاص للسلطان المملوكى. فكان هذا التقليد الذى منحه السلطان لهذا الأمير، الذى هو مثل لأمراء أسر قبائل الشام، تأكيدا بالإشراف على قبيلته. وهذه الوثيقة تفيد أيضا أن قبائل الشام كانت تظهر الولاء للحكام المماليك.

وثيقة أخرى، عبارة عن مرسوم شريف للأمير جماز بن محمد بن أبى أبى بكر(٢) بتوليته أميرا على آل على - وهى أسرة من قبائل الشام - فى مرج دمشق وغوطتها، وأنه وقبيلته حراس لأسوار دمشق وهو مكان آخر عند حدود الشام. وتفيد أن لآل على، وهم من آل ربيعة(٣) - القبيلة المعروفة بالشام أعلى مكانة بين قبائل العرب فى الشام(٤)، بحيث تقدموا آل فضل.

أما بالنسبة للوثائق الأخرى التى تتعلق بأحوال الشام عامة فى ظل دولة سلاطين المماليك فهى كثيرة، وهى تشتمل على رسائل دبلوماسية متبادلة، أو معاهدات أو مهادنات، أو غير ذلك، كلها تتعلق بأحوال الشام. ولاشك أن الشام بحكم أنه بلاد صلة وامتداد لمصر، بحيث اعتبر مملكة اسلامية بين الممالك الاسلامية فى دولة سلاطين المماليك اذ كانت دولتهم تسمى باسم الممالك

---

(١) القلقشندى، صبح الاعشى ، جـ ٤، ص ٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه، جـ ١٢، ص ١٢٤.

(٣) المصدر نفسه، جـ٤، ص ٢١٠.

(٤) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٤ ، ص ٢٠٦.

الاسلامية. هذه الوثائق توجد فى الكتب السردية المملوكية على أساس انها نسخ من الوثائق الاصلية. نذكر منها واحدة علَى سبيل المثال، تلك الهدنة التى أوردها القلقشندى فى عام ٦٦٥/١٢٦٦ بين الظاهر بيبرس وبين أسرة الاسبتار من فرنج الشام. هذه الوثيقة حيث أنها طويلة بلغت ثمان صفحات تكشف عن قيام نوع من التعاون بين السكان المسلمين والمسيحين.(١)

النقـــوش :

وتعبتر النقوش التى تحفل بها العمارة الاسلامية فى الشام فى عصر سلاطين المماليك، مصادر توثيقية فى بحثنا، سجلت معظمها على الحجر، الاصلاحات التى قام بها سلاطين المماليك فى مساجد الشام ومصر وفى غيرها من المبانى الأثرية الهامة فمنها ما أجراه بعض السلاطين مثل بيبرس، فى الجامع الأموى بدمشق فى ٦٦٣/١٢٦٤، فقد سجلتها نقوش مكتوبة فى مدخل باب البريد، الذى هو أحد أبواب الجامع فى أعلا جداره الجنوبى(٢).

وفى عام ٦٦٤/١٢٦٥ قاد السلطان الظاهر بيبرس حملة عسكرية على مدينة سيس بأرمينية الصغرى مارا بمدينة حمص وزار بها قبر خالد بن الوليد،

---

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ ١٤، ص ٣٩.

(٢) مجلة الحوليات السورية، المجلد العاشر، دمشق ١٩٦٠، ص٤٥.

فسيفساء الجامع الأموى، عبدالقادر الريحاوى- دمشق بكسر أوله وفتح ثانيه (ياقوت الحموى، معجم البلدان)، المجلد الثانى ، ص ٤٦٣.

وأمر باصلاح وتجديد له. وسجلت هاتين الحادثتين، كتابتان أثريتان فى جانب مقام خالد بن الوليد فى مسجده الحالى بحمص(١).

كما قام نفس السلطان بتجديدات ببعض أقسام الجامع الكبير فى حمص فى ٦٧١/١٢٧٢، وسجلت فى كتابه أثرية منقوشة على لوح من الحجر، وجدت بحائط جامع حمص الكبير(٢).

وفى عام ٧٠٠/١٣٠٠ أجرى السلطان بيبرس اصلاحات بالجامع الأموى بدمشق، وسجل هذا الاصلاح، فى نقش مكتوب على الحجر ذكر فيه اسم الأمير ركن الدين بيبرس مع آية قرآنية(٣).

كما أنشأ السلطان محمد بن قلاوون بعض الأروقه بالمسجد الكبير فى طرابلس فى عام ٧١٥/١٣١٥ سجلتها النقوش الأثرية على لوح من الرخام(٤).

وسجلت النقوش فى مدرسة العصرونية فى حماة(٥). جهود اهل الشام فى انشاء المدارس، ورصد الأوقاف، للانفاق عليها.

---

(١) Et. Comb Sauvaqet. Wiet, Repertoire chronologique D'Epigraphie Arabe. t 12 p. 104, 105 Le Caire, 1954. L'institue francais.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٦

(٣) Van Berchem, Catalogue de la phototheque, Gienève, 1975. p. 80.

(٤) Et. Combe, Repertoire chronologique D'Epigrapfic Arabe T. 14. p. 101.

(٥) حماة : بالفتح . مدينة كبيرة. (ياقوت الحموى، معجم البلدان، المجلد الثانى، ص ٣٠٠، ط. بيروت، ١٩٥٦.

وفى عام ١٣١٥/٧١٥ أنشأ محمد بن محمد بن أبى بكر مدرسة العصرونية فى مدينة حماة، ووقف عليها أوقافا كثيرة، وخصص مدرستين لتعليم الطلاب القرآن وحفظه فى مدة محدودة، وجعل للطالب المجد كسوة فى نهاية المدة تصرف له كمكافأة(١).

وسجلت النقوش فى مدينة حصن الأكراد، أنشأ مدرسة فى عام ٣١٩/٧١٩ بالمسجد الكبير بها، وخصصت لتعليم الأيتام. وخصص لها وقفا للإنفاق عليها، ولم يثبت فى النقش إسم منشئ المدرسة(٢).

كما سجلت النقوش الإصلاحات التى تمت فى قباب المسجد الكبير بمدينة غزة، بأمر سنجر الجاولى نائب السلطنة، فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فى ١٣١٨/٧١٨(٣).

وسجلت النقوش بمدينة حصن الأكراد، إهتمام أمراء المماليك بإنشاء المستشفيات لعلاج المرضى، ففى عام ١٣١٩/٧١٩ أنشأ بكتمر بن عبدالله نائب السلطنة بيمارستانا وخصصه لعلاج المرضى من المسلمين المقيمين بالمدينة ومن غيرهم من الوافدين(٤).

وفى ١٣٣٣/٧٣٤ جدد السلطان محمد بن قلاوون بناء باب توما وهو أحد الأبواب بالجهة الشمالية لمدينة دمشق، فقد كانت دمشق محاطة بسور له ثمانية أبواب، منها هذا الباب(٥).

---

(١) Et. Combe. J. Sauvaget. wiet, Repertoire chronologique D'Epigraphie Arabe. t. 14. p. 136. Le Caire. 1954. L'institue-Français.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٣) نفسه، ص ١٢٧.

(٤) نفسه، ص ١٣٩.

(٥) Van Berchem, Cataloque de la phototheque. Genev. 1975. p. 80.

وسجلت النقوش الأثرية أيضا، للأمراء المماليك فى الشام دورا هاما فى التشييد والبناء، ففى عام ١٤٢١/٨٢٤، أنشأ الأمير جقمق نائب الشام، مدرسة فى حى الكلاسة فى المنطقة المجاورة للجامع الأموى بدمشق، وأنشأ أيضا خانقاه[1] مجاورة للمدرسة وسجل بخط نسخ مملوكى منقوش على الحجر بأعلا جدار المدرسة اسم الأمير جقمق نائب الشام منشئ المدرسة والخانقاه فى عام ١٤٢١/٨٢٤ مع شريط من الآيات القرآنية، وحولها نقوش من العروق والأوراق النباتية البارزة[2].

لقد أظهرت النقوش الأثرية فى الشام مدى العناية التى أولاها سلاطين المماليك للآثار الاسلامية الشامية فى العصر المملوكى.

ومن المصادر الموثوقة والمفيدة فى موضوعنا، العملة الشامية المملوكية، وهى التى وصلتنا فى قوائم من عمل المستشرفين وغيرهم، حيث كان فى العصر المملوكى فى دمشق دار لسك العملة وكذا فى طرابلس وحلب وحماه. بعضها كان يتعامل فى أماكن أخرى غير الشام، وقابلة للتداول فيها. أما بعضها فكان يعتمد محليا لايتداول الا فى الشام فمن النوع الأول وهو عملة جيدة أما النوع الثانى فهو عملة أغلبها نحاس مثلما كان يحدث فى مصر. حيث يذكر المقريزى وجود عملة محلية فى الاسكندرية فقال (وأدركت الاسكندرية وأهلها لايتعاملون الا بها)[3]. وقد وصلتنا صور هذه العملة فى القوائم، فمن

---

(١) الخانقاه: هى نوع من المعاهد العلمية يخصص للصوفية والعلماء المغتربين. (مجلة الحوليات، المجلد العاشر، ص ٦٩) دمشق ، ١٩٦٠.

(٢) مجلة الحوليات، المجلد العاشر، ص ٧٢. دمشق ، ١٩٦٠.

(٣) المقريزى، اغاثة الامة، ص ٦٥، نشر وتحقيق، جمال الدين الشيال.

العملات الخاصة بالعصر المملوكى (البحرى) تلك التى ضربت فى دمشق باسم السلطان الظاهر بيبرس فى عام ١٢٧١/٦٧٠ من الفضة، وتوجد منها أربع قطع فى المتحف البريطانى بأرقام من ١٥٧ الى ١٦٠(١).

وعملة باسم السلطان الصالح اسماعيل، ضربت فى حماة من الفضة. ولم يثبت تاريخ الضرب، والغالب أنها ضربت فى عام ١٣٤٤/٧٤٥ وتوجد قطعة منها محفوظة فى المتحف البريطانى برقم ١٨٠(٢).

وعملة من النحاس ضربت فى طرابلس الشام باسم السلطان الاشرف شعبان فى عام ١٣٧٤/٧٧٦. وتوجد قطعة مقيدة بالمتحف البريطانى برقم١٩١(٣).

وعملة باسم السلطان الأشرف شعبان أيضا ضربت فى حلب غير محدد تاريخ الضرب، وتوجد قطعة نحاسية بالمتحف البريطانى برقم ١٩٤(٤).

ومن العملات التى ضربت فى عصر المماليك (البرجية)، عملة باسم السلطان برقوق، ضربت بدمشق فى عام ١٣٩٣/٧٩٦ من النحاس وتوجد قطعة منها فى المتحف البريطانى برقم ٢٠٢.

---

(١) **Lane poole catalogue of the Mohammedan coins. Oxford. 1888, p.9.**

(٢) المصدر نفسه، ص ٩

(٣) نفسه، ص ١٠

(٤) نفسه ، ص ١٠

وعملة ضربت فى دمشق باسم السلطان الاشرف اينال فى عام ٨٦٠/١٤٥٥ وتوجد قطعة منها من النحاس بالمتحف البريطانى برقم ٢١٣(١).

ومن النوع الثانى وهى العملة المحلية لبلاد الشام، عملة ضربت بحلب وهى من النحاس وغير ثابت تاريخ الضرب أو إسم السلطان وتوجد قطعة منها بالمتحف البريطانى برقم ٢١٨.

ووجدت عملة من النحاس توجد منها قطعتين بالمتحف البريطانى الأولى تحت رقم ٢١٩ والثانية برقم ٢٢٠ من ضرب دمشق وغير ثابت بها اسم السلطان أو تاريخ الضرب.

وتوجد عملة شامية بالمكتبة الخديوية بالقاهرة، منها العملة التى ضربت بدمشق باسم السلطان محمد بن قلاوون فى عام ٧٣١/١٣٣٠ وتوجد قطعة منها مقيدة بالمكتبة الخديوية برقم ١٥١٥(٢).

وتوجد عملة ذهبية ضربت بحلب باسم الأشرف شعبان فى عام ٧٧٧/١٣٧٥ ومسجلة بالمكتبة الخديوية بالقاهرة ١٥٣٦(٣).

---

(١) **Lane poole catalogue of the Mohammedan coins. Oxford. 1888, p.9.**

(٢) **Stanley Lane poole, Catalogue of the collection of Arabic coins, Oxford., 1897, p. 254.**

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

والدينار الأشرفى من العملات المملوكية التى عرفت فى الشام ومصر وسك فى عام ١٤٢٥/٨٢٩ فى عهد الأشرف برسباى(١).

ويفيد هنا أيضا ذكر العملة الصليبية التى سكت فى عكا حوالى عام ١٢٥٠/٦٤٨، وكانت مع ذلك تحمل نقوش عربية، وهى تحمل العقيدة الصليبية(٢) ضربها الصليبيون حينما كانوا فى الشام، وكانت عكا من أكثر المدن ازدهارا وكانت تعتبر فى قيمة القدس(٣).

وتفيد هنا أيضا الاشارة الى العملة الاجنبية الذهبية التى ضربت فى البندقية وفى فلورنسا وعرفت فى مصر والشام المملوكية باسم "بندقى" أو "الافرنتى"(٤) ولم ترد هذه العملة الصليبية فى قوائم المستشرقين، ونقل صورة لهذه العملة، فيليب حتى فى كتابه "تاريخ سوريا"(٥).

بعد ذلك تأتى فى الأهمية، المصادر الكتابية، ولاسيما ما يتعلق منها بالشام، وفى مقدمتها تأتى كتب الأنساب، وذلك بسبب أنها تتناول أحوال سكان الشام، الذين أغلبهم كان يعيش فى قبائل، وهذه الكتب تفيدنا فى معرفة القبائل التى كانت بالشام منها كتاب "تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بنى الغرب" لصالح بن يحيى ت ٨٣٩-١٤٣٦/٨٤٠ ذكر فيه بنى بحتر من قبائل الشام، ودورهم البطولى فى الشام ومشاركتهم فى معارك عين جالوت فى

---

(١) Sauvaget, memento chronologique d'histoire musulemane, Paris, 1950
Philip K. Hitti History of Syria, London, 1957, p. 607

(٢) عبدالرحمن فهمى، النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة ١٩٦٤، ص ٨١.

(٣) فيليب حتى، تاريخ سوريا، جـ٢، ص ٢٥٩، ابن بطوطة، جـ١، ص ١٢٦.

(٤) عبدالرحمن فهمى، النقود العربية، ص ٩٥.

(٥) Philip K. Hitti History of Syria, London 1957, p. 607

فلسطين[١] ضد التتار والمغول ودفاعهم ضد الصليبيين، فى بيروت وغيرها من مدن الشام الساحلية[٢] - وأصل بنى بحتر من العرب من آل تنوخ[٣].

ثم كتاب "نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب" للقلقشندى ت ١٤١٨/٨٢١[٤] وهو اذا كان يتكلم عن العرب بصفة عامة الا انه أتى بمعلومات قيمة عن قبائل الشام. فذكر أصولهم وأماكنهم وأخبارهم وعلاقاتهم بسلاطين المماليك، ويتميز هذا الكتاب بأنه مرتب على حروف المعجم.

ثم كتاب "قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان"[٥]، وهذا الكتاب للقلقشندى أيضا، ورد به بعض اضافات لاتوجد فى غيره، مثل ذكر أنساب آل ربيعة بالاشارة أنهم من عرب الجنوب.

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ الأمراء البحتريين من بنى الغرب، ص ٩٢، نشر لويس شيخو، بيروت ١٨٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٥

(٣) محمد كرد على، خطط الشام، جـ١، ص٣٤، محمد فريد وجدى، دائرة معارف القرن العشرين.

(٤) القلقشندى، "نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب"، ط. القاهرة، تحقيق ابراهيم الابيارى.

(٥) القلقشندى، "قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان"، ميكروفيلم، مخطوط ٣٨١، معهد احياء المخطوطات، جامعة الدول العربية، القاهرة.

ثم "البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب"(١) للمقريزى ت٨٤٥/١٤٤١ ويتميز المقريزى فى كتابه البيان بذكر الصلة التى تربط بين القبائل العربية فى الشام ومصر، وذلك باعتبار مصر للمملوكية كانت تشمل مصر والشام وذكر دورها السياسى، وعلاقاتهم بالحكام المماليك.

ثم كتاب "سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب"(٢) للسويدى ت١٢٣٩/١٨٢٣ ذكر فيه طبقات قبائل العرب وأنسابها، وتتبع هجرتها من الحجاز الى الشام، وأماكنها ومناطق استقرارها، وقد انفرد السويدى فى كتابه سبائك الذهب بذكر أسماء القبائل المجهولة بالشام، مثل بنى حارثة والعابد وآل سلطان وهى القبائل التى ذكرها النسابون ولم يلحقوها بقبيلة معينة.

ثم كتاب "الروض البسام لأشهر البطون القرشية فى الشام"(٣) لأبىالهدى الصيادى، خص فيه بطون قريش وفروعها التى وفدت الى الشام بالذكر، مثل بنى مخزوم، ويقال أنهم بنو خالد، وهم من أحلاف آل فضل.

ومن الكتب التى تناولت أنساب العرب بعامة، وهى تفيد الى حد ما فى معرفة سكان الشام فى عصر المماليك منهم : كتاب "جمهرة نسب قريش وأخبارها"(٤) للزبير بن بكارت ٢٥٦/٨٦٩.

---

(١) المقريزى، "البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب"، القاهرة، تحقيق عبدالمجيد عابدين.

(٢) محمد أمين البغدادى، "سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب"، بغداد ١٢٩٦.

(٣) ابو الهدى الصيادى، الروض البسام لاشهر البطون القريشية فى الشام، اسكندرية ١٨٩٢.

(٤) الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمد محمود شاكر، القاهرة ١٣٨١.

ثم جمهرة أنساب العرب لابن حزم ت ١٠٦٣/٤٥٦(١).

ثم "أنساب الأشراف" للبلاذرى(٢) ت ٨٩٢/٢٧٩.

كذلك يؤخذ فى الاعتبار ان أهل الشام لم يكونوا جميعا قبائل، وانما أيضا كثير منهم كانوا من الشخصيات اللامعة فى المجتمع، انتسبوا الى عرب الشام. فظهر فيهم مايعرف بكتب التراجم، مثلما كان يوجد فى مصر فى تلك الفترة.

ومن الملاحظ أن علماء الشام هم الذين بدأوا هذه السلسلة من التراجم، ولذلك ظهرت أسماء لامعة وتراث جيد.

والتراجم والسير، سجل لحياة فرد من مولده إلى مماته وكان له دور بارز فى المجتمع، فى العصر الذى عاش فيه وتعتمد كتب السير والتراجم والوفيات، على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطعة، مثلها فى ذلك مثل تدوين التاريخ(٣).

ومن أبرز الكتب كتب السير أو الوفيات، مثل "التاريخ الكبير" لابن عساكر ت١١٧٦/٥٧٢، الذى أوجز فيه سير جميع الوجهاء بالشام.

وكتاب "وفيات الأعيان وأنباء الزمان" لابن خلكان ولد فى أريد بفلسطين، وهو أبرز مؤلفى السير فى الإسلام، ولى منصب قاضى القضاة فى سوريا أكثر من عشرين عاما. ويعد كتاب "وفيات الأعيان" أول معجم

---

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٢.

(٢) البلاذرى، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الدين، القاهرة ١٩٠٠، معهد المخطوطات العربية.

(٣) حسين فوزى النجار، التاريخ والسير، القاهرة ١٩٦٤، ص٦١.

عربى(١).وهو مجموعة كبيرة من السير لأعلام المواطنين من المشاهير والأعيان فى مصر والشام ومن غيرهم.

وكتاب "فوات الوفيات" لمحمد بن شاكر الكتبى ت ١٣٦٣/٧٦٤، وهو أيضا من مواليد الشام، ألفه بن شاكر الكتبى تكملة لكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، وضمنه ذكر الأئمة الخلفاء والسادة الفضلاء من شخصيات الشام المؤثرة فى تاريخه، ممن لم يذكره ابن خلكان فى معجمه(٢).

ثم كتاب "الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلانى ت ١٤٤٩/٨٥٢. وهو وإن كان من مواليد القاهرة، شامى الأصل، يرجع لقبه "العسقلانى" نسبة الى مدينة عسقلان بفلسطين، وهو أول من تناول الوفيات على حسب القرون، وليس على حسب السنوات، حيث خصص لها قرنا بعينه.

ثم كتاب "أنباء الغمر فى أبناء العمر" وهذا الكتاب ترجمة لحياة إبن حجر العسقلانى الذى أشرنا إليه آنفا حيث بدأ كتابه على شكل مذكرات حولية بدءا من سنة ميلاده، وتعد هذه المذكرات من أهم المصادر الأصلية لتاريخ الدولة المملوكية فى حياة بن حجر(٣).

---

(١) فليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجى، بيروت ١٩٥٨، جزءان، جـ ١، ص ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) محمد مصطفى زيادة، المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى، القاهرة ١٩٥٤، ص١٩.

وكتاب " تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين " لفيليب حتى، بيروت ١٩٥٩ ذكر فيه القبائل العربية والطوائف المختلفة التى عاشت بالشام فى العصر المملوكى، وعلاقتها بالدولة المملوكية والنواحى الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الشام.

ثم كتاب " العصر المماليكى فى مصر والشام " لسعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة ١٩٥٦ تناول فيه قيام دولة المماليك فى مصر والشام ودورها فى الدفاع عن الشام ضد التتار والمغول والصليبيين، وذكر القبائل العربية ودورها الطليعى فى الحروب ضد التتار والصليبيين، وذكر دورها السياسى والحضارى.

ثم كتاب " مقدمات العدوان الصليبى " لعمر كمال توفيق، الاسكندرية ١٩٦٦ ذكر فيه دور القبائل العربية الدفاعى فى الشام فى العصور الاسلامية السابقة على العصر المماليكى، ضد القوى المتعددة المناوئة وجهادهم ضد البيزنطيين، ومناطق وجودهم فى أنحاء الشام.

ثم كتاب " العدوان الصليبى على بلاد الشام " لجوزيف نسيم، اسكندرية ١٩٧١ ذكر فيه الاسماعيلية بالشام، وعلاقتهم بصليبيى الشام وأماكنهم وذكر قلاعهم فى طرابلس وغيرها.

وكتاب " تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام " لمختار العبادى وعبدالعزيز سالم، بيروت ١٩٧٢، تناول هذا الكتاب تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام، فى العصر الاسلامى حتى العصر المملوكى والحملات المملوكية البحرية ضد الصليبيين ثم استرداد الثغور الشامية.

أما المراجع التى لها علاقة بالشام فأهمها :

" المدخل الشرقي لمصر " لعباس عمار، القاهرة ١٩٤٦ تناول فيه تحركات القبائل العربية فى هجرتها من الشام الى مصر خلال العصور السابقة على العصر المملوكى ثم من مصر الى الشام فى العصر المملوكى.

ثم كتاب " مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامى " لعبدالمنعم ماجد، القاهرة ١٩٥٣. والكتاب يبحث فى أحدث الطرق لمناهج البحث ومصادر التاريخ الاسلامىالأصلية والفرعية.

وكتاب " نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر " لعبدالمنعم ماجد ذكر فيه التقسيمات الادارية والجغرافية ونظام الولايات والمكاتبات وأنواعها، وفيه جداول بأسماء سلاطين المماليك البحرية ثم البرجية وتواريخ حكمهم.

وكتاب " الأطلس التاريخى للعالم الاسلامى فى العصور الوسطى " لعبدالمنعم ماجد ويحتوى على خرائط توضح المناطق التى سكنتها الطوائف المختلفة فى الشام.

ثم كتاب " الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى " لآدم متز، ترجمة عبدالهادى أبوريدة، بيروت ١٩٦٧. ذكر فيه أخبار الطوائف الاسلامية من الشيعة وغيرهم وعلاقتهم بأهل السنة، وذكر فيه العادات والتقاليد والأعياد.

ثم كتاب " معجم قبائل العرب القديمة والحديثة " لعمر رضا كحالة، ط. ثانية بيروت ١٩٦٨. ويضم هذا المعجم عددا كبيرا من العشائر والبطون مع ذكر أصولها وفروعها وأماكنها مما يعين الباحث فى موضوع البحث.

المراجع الأجنبية :

ومن المراجع الأجنبية الهامة كتاب :

Studes sur la tradition Islamique extraires de tome II des Muhammedanische studien. paris, 1952.

لمؤلفه Goldziher

والكتاب دراسة عن التقاليد الاسلامية التى مصدرها الحديث والسنة، وكيف أن بدء ظهور السنة كان فى المدينة، ثم أخذت تنتشر فى بلاد الشام، بجهود بعض الصحابة والتابعين. مثل مكحول الشامى الذى كان يتنقل بين بلاد الحجاز والعراق ومصر ثم استقر بالشام. وكان له مذهب بها، فى خلال القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) وكتاب Catalogue of the Mohammedan coins. Oxford. 1888. كتبه المستشرق الفرنسى لين بول Lane poole. وهو عن العملة بأنواعها المختلفة فى العصر المملوكى التى ضربت فى بلاد الشام، فى مختلف عهود سلاطين المماليك. وردت فى قوائم توضح النماذج التى مازالت يوجد بعضها بالمتحف البريطانى، مع ذكر أرقامها وجهته وتاريخ ضربها وكتاب SayfAldula. Alger 1934 لمؤلفه كانار Marius Canard وهو عن سيف الدولة الحمدانى، مؤسس الدولة الحمدانية فى شمال الشام، والدور الذى قام به سيف الدولة فى الدفاع عن الشام ضد الصليبيين.

كما ورد بالكتاب ذكر أحوال الشام، الوصف الجغرافى والتقسيم الإدارى.

وكتاب Memento chronologique d'histoire Musulemane Paris 1950.

لمؤلفه J. Sauvaget وهو دليل تاريخى يربط به المؤلف بين أهم الحوادث بتواريخها فى الشرق وما عاصرها من أحداث فى الغرب.

وكتاب Repertoire chronologique d'Epigraphie Arabe.

t 19, 14 Le Caire 1954.

لمؤلفه Et. Combe مع مجموعة من المستشرقين. وهو فهرس تاريخى للنقوش العربية التى سجلها سلاطين المماليك، على الحجر فى المبانى الاسلامية بالمساجد والمدارس فى انحاء الشام. وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه يوضح جهود سلاطين المماليك فى بناء واصلاح المساجد الكبرى فى بلاد الشام، وتطوير النقش فى عصر سلاطين المماليك.

وكتاب : Catalogue de phototheque. Geneve, 1975.

لمؤلفه Van Berchem وهو دليل للمكتبة المصورة الموجودة فى المتاحف المحفوظة فى المكتبة العمومية فى جنيف عن الآثار الاسلامية فى بلاد الشام، وغيرها من البلاد الاسلامية، وترجع أهميته الى أنه يوضح بالصور الاماكن الاثرية الهامة فى الشام مما يسهل للدارس معرفة المواقع الاثرية عن قرب والتى تتصل بهذا البحث.

وكتاب History of Syria, London, 1957.

لمؤلفه : فيليب حتى .Philip. K. Hitti ويمتاز هذا الكتاب بذكر العملات الصليبية التى سكها الصليبيون حينما كانوا فى بلاد الشام.

و Encyclopedia de L'Islam A-D, Paris, 1913.

لمؤلفه t. W. Arnold وآخرين عن الانساب بين العرب والعلاقة بين العرب خاصة من المهاجرين والأنصار وعلاقة ذلك بالخلافة الاسلامية .

الدوريات :

- مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد العاشر، دمشق ١٩٦٠.
- بحث موجز فى تاريخ مدينة حمص وآثارها، سليم عادل، ص ٢٩.
- فسيفساء الجامع الأموى بدمشق، عبدالقادر الريحاوى، ص ٦٩.
- مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، مجلد ١٦، ١٩٦٢.
- طرابلس الشام، تاريخها وآثارها فى العصور الوسطى، عبدالعزيز سالم.
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، رقم ٤٨، ابريل ١٩٧٣.
- بيان بأسماء المدارس العلمية الموجوددة بدمشق، صلاح الدين المنجد.

الفصل الأول

أحوال الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك

- الوصف الجغرافى
- التقسيم الادارى
- أهل الشام
- المذاهب والعقائد

لعل من الأوفق قبل المضى فـى عرض أحوال الشـام فـي عصـر دولـة سـلاطين الممـاليك، أن نعـرض لوصـف بـلاد الشـام، تلـك الأرض التـى شـهدت تحركات القبائل العربية، والعناصر السكانية الشامية الأخرى، منذ الفتـح العربـى حتى نهاية العصر المملوكى وبداية العصر العثمانى.

والشام من الناحية الجغرافيـة، يحـد مـن الغـرب بـالبحر المتوسـط، ومـن الشرق بالبادية من أيلة الى الفرات، ويحدها شمالا بلاد آسـيا الصغـرى، وجنوبـا حد مصر(١).

ولاشك أن الظاهرة التضاريسية فى بلاد الشام قد لعبت دورا هاما تسببت فى تقسيمه دائما الـى دول أو ممـالك متعـددة، لوجـود جبـال حـاجزة متعـددة فـى جميع أركانها نذكر منها، جبل اللكام، اذ يقطـع الشـام طـولا ممتدا بأطرافـه الـى مصر والبحر الأحمر جنوبا وبلاد آسيه الصغرى شمالا، ويعد من أهم ظـاهرات التضاريس فى شمال الشام الغربى، ويقع محاذيا للسهل الشـامى السـاحلى. وفيـه بالذات تقع ثغور الشام التـى تسـمى أيضـا الـدروب جمـع درب، وعندمـا يجـاوز اللاذقية يسمى جبل بهراء وتنوخ الى حمـص. ثـم يسـمى بعـد ذلـك جبـل لبنـان، الذى يسمى جزء منه جبل الثلج لأنه يغطى بـالثلج، اذ أن جبـل اللكـام لـه أسـماء متعددة(٢). ويتجاوز دمشق فاذا صار شماليها سمى جبل سنير، كما يسمى جانبـه المطل علـى دمشق جبـل قاسيـون، ويتجاوز دمشق ويمر غربى بعلبك ويسمى

---

(١) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ٥٥ ليدن، ١٩٢٧ Canard, Sayf Al Dula, p. 37. أتى بوصف جغرافى ممتاز للشام.

(٢) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ٥٥، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤ ، ص٧٩.

الجبل المقابل لبعلبك جبل لبنان(١). ثم يتمتد على الشام حتى ينتهى الى بحر القلزم (الأحمر)(٢).

كذلك توجد فى الشام أيضا هضاب، حاجزة منها الهضاب العالية فى جنوب الشام فى أقليم طبرية وهضبة اليهودية - وبها القدس - وهضبة الأردن ويفصل غربيها عن شرقيها، أخدود الغور، ويوجد فى هضبة الأردن مسالك وأغوار تتجه الى مصر، والغور طريق ممتد محصور بين مرتفعات(٣).

كذلك توجد أنهار تفصل بين أجزاء مناطق الشام - يتفرع معظمها الى نهيرات - أشهرها نهر الفرات الذى يخترق الجزء الشمالى الشرقى من الشام، وهو أعظم أنهار الشام، وينحدر من هضبة الأناضول فى طريقه الى العراق، وهو يقطع الأراضى الشامية فى هذه الجهة من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى(٤).

ونذكر نهر حماه ويسمى نهر العاصى أو الأرنط، وهو اسمه القديم(٥). وهذا النهر بعكس غالب الأنهار فى الشام يجرى من الجنوب من وسط الشام شمال بعلبك ويمتد شمالا غرب حمص، ثم حماه الى قرب أنطاكية.

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٧٩ Canard, Sayf Al Dula P. 38.

(٢) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص٥٥، ليدن ١٩٢٧.

(٣) تقع هضبة الأردن الغربية فى فلسطين، واخدود الغور الذى يجرى فيه نهر الاردن، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٨٣.

(٤) وعلى هذا النهر تقع كل من دلرقة ودير الزور وهما من بلدان الشام (عبدالمنعم الشرقاوى، الاطلس العربى، ص٤٠).

(٥) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤ ، ص٧٥.

ونذكر نهر الأردن، ويسمى الشريعة وفرعه اليرموك أيضا وأصله من أنهار تصب من جبل الثلج فى شمال لبنان ويمتد جنوبا الى فلسطين.
ونذكر نهر العوجاء ويسمى نهر أبى فطرس، ويجرى من جبل الخليل فى فلسطين.

كذلك فى الشام توجد الصحارى، التى تسببت فى تقسيم الشام قسمين رئيسيين، تضم مساحات واسعة من أراضى الشام اشتهرت باسم بادية الشام أو البلقاء(١) وهذه المنطقة تضم مجموعة من المراكز كنقط عبور للقوافل والرحلات الصحراوية بين الشام والجزيرة العربية والعراق.

كذلك توجد فى الشام السهول والمنخفضات التى كانت فاصلا مابين مناطق الشام المتعددة وحتى المنطقة الساحلية، فهو ينقسم قسمين، أوسط وجنوبى، وفى الجزء الأوسط من الساحل الشامى سهل ساحلى ضيق حيث توجد الثغور الساحلية للشام، ويتلوه شرقا سهل البقاع، ويعترض هذا السهل الساحلى امتدادات من الجبال تفصل بين أجزائه(٢) والخلاصة أن تضاريس الشام، كانت سببا فى توزيعه بين أقسام مختلفة.

أما اداريا فان الشام، كان يختلف فى تقسيمه الادارى من وقت لاخر، منذ الفتح العربى، ولاشك أن الظروف الجغرافية والتضاريسية السابقة الذكر لبلاد الشام كانت من الأسباب التى جعلت تلك المناطق تشهد لونا من التغيير والتطوير فى التقسيم الادارى.

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٧٥.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٨٣، حسن أبو العينين، لبنان دراسة فى الجغرافية الطبيعية، بيروت ١٩٨٠، ص١٥.

ويؤيد ذلك أن الأقسام الإدارية كانت تجعل من كل قسم منها فى الشام، شاما قائما بذاته بحيث قسمها الجغرافيون الى خمسة شامات. على أساس ان التقسيم الجغرافى يجعل كل تقسيم ادارى كيانا قائما بذاته بدليل انهم يجعلون من بلاد فلسطين والقدس شاما ويسمونه الشام الأعلى أو الشام الأولى(١). ولعل القلقشندى الذى هو صاحب هذه التسمية يقصد الأراضى المرتفعة - ثم الشام الثانية وهى الأردن ومدينتها العظمى طبرية. ثم الشام الثالثة وهى الغوطة ومدينتها العظمى دمشق. ثم الشام الرابعة وهى حمص ومدنيتها حمص. وقد وصف القلقشندى حمص بقوله (ويجعلون سوريا - وهى التسمية المتداولة التى تدل على معظم الشام الآن - وهى حمص وبلادها الى رحبة مالك بن طوق، وهو اسم معروف وقت ذاك ولعله أمير عربى(٢). ثم الشام الخامسة وهى قنسرين ومدنيتها العظمى حلب(٣).

ولاشك أن تسمية الشام بسوريا، Syria ، كانت قبل العصر المملوكى. وربما كان ذلك فى العصر البيزنطى. كما لم يرد ذكر كلمة سوريا فى مصادر التاريخ الإسلامى، لان كلمة سوريا أصلها بيزنطى، الا أن القلقشندى ذكر تسمية سوريا فى كتابه (صبح الأعشى) وهو يصف التقسيم القديم للشام. الا أنه لم يحدد

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، القاهرة ١٣٠٥، جـ ٣، ص ٢٧٨، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٨٣.

(٢) الرحبة: محلة لها مناكب يحل عليها الناس، ويقال للصحراء من أفنية القوم: رحبة ويقال رحبة والفتح أفصح. (الزمخشرى، أساس البلاغة، ص ٣٢٨، ك ١٠٨. ط. الشعب).

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص ٨٣.

زمنا بعينه، لظهورها ثم أتبع هذا التقسيم للشام، فذكر تقسيم الشام فى العصرين الأيوبى ثم العصر المملوكى، ولم يذكر كلمة سوريا. كما ذكر أن كلمة بلاد الشام، ونائب الشام لم يكن يقصد بها فى العصر المملوكى الا دمشق ونائبها(١).

وفى العصر الأموى بالذات كان التقسيم الإدارى مثل التقسيم البيزنطى المبنى على أساس وجود العسكر للجيش ولكن أخذت اسم الجند لوجود الأجناد، وهذه الأجناد كانت تتغير من وقت لآخر.

وكان الشام فى العصر الأموى مقسما الى خمسة أجناد وهى ما كان يطلق عليه أيضا الشامات كما ذكرنا. فكانت هذه الأجناد الخمسة: جند فلسطين وبها بيت المقدس. جند الأردن ومدينتها العظمى طبرية، جند الغوطة، ومدينتها العظمى دمشق ومن سواحلها طرابلس. جند حمص ومدينتها حمص. جند قنسرين ومدينتها العظمى حلب حيث كان يقيم الخليفة الأموى غالبا وقريب منها قنسرين.

كذلك كان للعصبية القبلية منذ ظهور الاسلام وحتى قبله، أثرها فى تغيير هذا التقسيم الادارى. حيث وزعت القبائل ما بين اليمنية والقيسية على الأجناد الخمسة.

ولقد لعبت مشايخ القبائل العربية الذين كان لهم السيطرة على هذه القبائل فى الشام فى العصر الأموى ذاته دورا مصطبغا بصبغة العصبية التى ظهرت بين القبائل القيسية واليمنية فى ذلك العصر بصفة خاصة.

وقد نتج عن الصراع بين القبائل العربية فى الشام، سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية، وانتقال العاصمة من الشام الى العراق، وظهور

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٨٣.

عناصر غير عربية شغلت المراكز من الشام الى العراق، وظهور عناصر غير عربية شغلت المراكز القيادية فى الدولة الجديدة. نتج عن ذلك كله أن حل التفاهم والوئام بين القبائل العربية فى الشام ونبذوا التنازع والخصام وشغلوا عن العصبية القبلية، مما مهد الطريق أمام عهد جديد من العلاقات بينهم أدى الى تحالف نتج عنه ظهور دول عربية مستقلة فى أطراف الشام الشمالى، مثل الدولة الحمدانية ومن بعدها الدولة المرداسية. وكان التطور الطبيعى نحو الاستقرار ونبذ الخلافات.

أما فى العصر العباسى فان الشام لم يحتل مكانته الأولى لانتقال الحكم من الشام الى العراق، من الأمويين الى العباسيين. فمناطق الثغور(١) بالذات، كان الخلفاء العباسيون يهتمون بأمرها، لايولونها الا شجعان القواد الراغبين منهم الجهاد والحروب من بين أهلها، والروم مستقرة فى بعضها، ويقومون بالهجوم على الثغور التى كانت بأيدى المسلمين. حتى كان عهد الرشيد، الذى فصل الثغور ومنها المصيصة وعين زربه وأذنة وطرسوس وأنطاكية التى تطل على البحر الأبيض وسماها العواصم(٢). اذ هذه التسمية لم تظهر الا فى العصر العباسى، فى عهد الرشيد، لان الثغور التى كانت بأيدى المسلمين أصبحت عاصمة لهم من الثغور التى بأيدى البيزنطيين.

---

(١) الثغر: كل موضع قريب من أرض العدو، يسمى ثغر، كأنه مأخوذ من الثغرة وهى الفرجة فى الحائط، وهو مواضع كثيرة منها ثغر الشام، وجمعه ثغور. (ياقوت الحموى، معجم البلدان، مجلد ٢، ص ٧٩، بيروت ١٩٥٦).

(٢) ياقوت ، معجم، جـ٢، ص ٨٠، القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ١٣٠.

كذلك كان حدث تغيير فى التقسيم تبعا للظروف السياسية التى واجهتها بلاد الشام، بعد الحكم العباسى المباشر، تحت حكم الطولونيين، ثم الأخشيديين، ثم الفاطميين فى مصر، وبقى التقسيم الادارى كولايات كما هو حتى العصر الايوبى. حيث استمرت تسميتها بالولايات.

فعندما تمكن الطولونيون من اخضاع بعض أقاليم الشام لسلطانهم، مثل دمشق عام ٨٧٧/٢٦٤ وحمص وحماه وحلب. حيث كانت قنسرين احدى الولايات الخمسة الهامة فى العصر العباسى، ثم ضعفت قنسرين وحلت محلها حلب، التى انتزعها الحمدانيون من الأخشيد عام ٩٤٤/٣٣٣ وأقاموا عليها الدولة الحمدانية، وجعلوا من حلب دار الامارة، وبها الاسواق ومجمع الناس(١). وبقيت الدولة الحمدانية حتى عام ١٠٠٣/٣٩٤. وضم الحمدانيون الى دولتهم انطاكية واللاذقية وشيزر وحماة وحمص وأجزاء من اقليم قيليقية واقليم الجزيرة(٢).

وكانت دمشق فى ذلك الوقت خاضعة تحت حكم الأخشيديين فى مصر. ثم جاء الفاطميون الذين ورثوا أملاك أسلافهم الأخشيد فى مصر والشام، وامتد سلطان المصريين فى الشام فشمل طرابلس وغالب مدن الساحل الشامى(٣). وبقى التقسيم الادارى مثلما كان نظام الولايات الذى وضع من أيام العباسيين كما ذكرنا.

---

(١) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص٥٥، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٦٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٧، ص ٣٧، عمر كمال، مقدمات العدوان الصليبى، ص٥٧، ط. اسكندرية سنة ١٩٦٦.

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٧٢، ١٧٧.

وفضلا عن الفاطميين والحمدانيين فى الشـام، فقد ظهر القرامطـة كقـوة ثالثة أيضا استطاعت أن تؤثر فى مجريات الأحداث فى الشام. ثم وقع القتال بين الفاطميين والقرامطة انتهت بانتصار الفاطميين وانسحاب القرامطة الى الاحسـاء بمنطقة البحريين، موطنهـا الأصلـى الـذى اقتصـروا عليـه(١). ممـا أعـاد النظـام الإدارى الى ما كان عليه سابقا من أيام العباسيين.

وقد إستعان الفاطميون فى حروبهم ضـد القرامطـة ببنـى الجـراح أمـراء الشام من طـئ.وعينـوا منهـم الـولاة علـى دمشـق تقديـرا لخدمـاتهم الحربيـة فـى حروبهم ضد القرامطة(٢).

أما فى العهد الأيوبى، فقد قسم الشام بين أبناء صلاح الدين بحيث أطلـق على كل قسم منها إسم المملكة. ومن يحكمها فهو الملك: مملكـة دمشـق وحلـب، ومملكة حماه، ومملكة صرخد، ومملكة الكرك، ومملكة حمص(٣).

كان مملكة حماه، التى بقيت تحت حكم ملـوك بنـى أيـوب، حتـى معركـة عين جالوت، وقيام دولة المماليك فى مصر والشام ولم يشأ سلاطين المماليك أن ينتزعوا حماه من ملوك بنى أيوب فأبقوا على الأيوبيين. وأقروهم على حكمهم فيها. وظلت مملكة حماة مملكة أيوبية فى ظل دولة المـماليك. ثـم صـارت نيابـة عام ١٣٤١/٧٤٢(٤). والأرجح أن تسـميه الممـالك الإسـلامية أو الشـامية ترجـع

---

(١) إبن خلدون، العبر، جـ ٤، ص ١٩٣.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى،جـ ٤، ص ٩١، محمد راغب الحلبى، إعلام النبلاء، بتـاريخ حلب الشهباء، ص٢٨٣، ٢٩٣، بيروت ١٩٢٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) القلقشندى، صبـح الأعشـى، جـ٤، ص١٧٢، فيليب حتـى، تـاريخ سـوريا، ص٢٦٥، ترجمة كمال اليازجى، بيروت ١٩٥٨.

الى عصر خلفاء صلاح الدين الأيوبى من أبنائه واخوته الذين اقتسموا الشام وجعلوا كل قسم مملكة مستقلة بذاتها كما ذكرنا. فهذه التسمية ترجع الى أيام الأيوبيين.

وقد أختفت كلمة مملكة فيما عدا مملكة حماه وأصبح الشام فى تقسيمه الإدارى نيابات. ومع ذلك فإن كلمة نيابة لم تقتصر على أقاليم الشام وحدها. فالإسكندرية التى كانت ولاية من قبل، لما هاجمها، بطرس الأول الملك القبرصى، تحولت الى نيابة. فتسمية نيابة لاتقتصر على الممالك الشامية. إذ أن لها معنى الحراسة مثل الإسكندرية التى أصبح لها معنى حراسة الإقليم المصرى.

وقد قسم الشام فى عهد المماليك الى ست أقاليم أو أقسام إدارية، سميت بالنيابات، وذلك لأن المماليك الذين جعلوا من القاهرة عاصمة لملكهم كانوا يعينون نوابا لهم على تلك الأقاليم، يحكمونها نيابة عن السلطان المملوكى، وأعلاها دمشق(١).

على أن نيابات الشام فى عهد المماليك وهى : دمشق وحلب وحماه، وطرابلس صفد والكرك . لم تنشأ فى وقت واحد. وانما انشئت على عدة مراحل، فدمشق وحلب صارتا نيابة عقب انتصار المماليك على التتار فى عين جالوت عام ٦٥٩/١٢٦٠(٢). وصفد صارت نيابة فى عهد الظاهر بيبرس، بعد أن استولى عليها من الصليبيين فى عام ٦٦٤/١٢٦٥(٣).

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى ، ج ١٢، ص ١٩٩.

(٢) المصدر نفسه، جـ٤، ص١٦٥.

(٣) نفسه، جـ ٤، ص ١٧٦.

أما حماه فانها كانت مملكة، فى ظل المماليك حتى آخر حكامها الأفضل محمد عام ١٣٤١/٧٤٢(١). ثم أصبحت نيابة.

أما الكرك، فترجع الى عهد السلطان صلاح الدين الذى فتحها عام ١١٨٨/٥٨٤. ثم صارت نيابة فى عهد الدولة المملوكية عام ١٢٦٦/٦٦٥ فى عهد الظاهر بيبرس(٢)، حيث اشتهرت بأنها مركز مواصلات استراتيجى فى الشام. وغالبا ما كان يلجأ اليها السلاطين فى حالة الاقالة من السلطنة.

وأما طرابلس التى كانت فى يد الصليبيين فان، السلطان قلاوون الذى انتزعها من الصليبيين فى عام ١٢٨٩/٦٨٨، بعد استيلائه على قلاع القليعات وحلبا وعرقا من حصون طرابلس ، فأخرج منها من كان من الفرنج، وأحل محلهم جندا من المسلمين وفرض أرزاقهم فى ديوان العطاء(٣).

وأمر السلطان قلاوون باعادة تعمير مدينة طرابلس المملوكية على انقاض المدينة القديمة(٤) وجعلها نيابة.

والخلاصة أن التقسيم الادارى الى نيابات فى عهد المماليك، لم يستقر للشام الا بعد عام ١٣٣١/٧٣٢ حينما توفى عماد الدين اسماعيل أبو الفدا، آخر ملوك حماة من البيت الأيوبى ثم وليها بعده ابنه الأفضل محمد حيث صارت

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ١٢، ص ١٧٢.

(٢) نفسه، جـ٤، ص١٧٦.

(٣)ابن خلدون، العبر، المجلد ٥، ص ٨٣٣، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص ١٧٦.

(٤) Van Berchem, Fatio: Voyage en Syria Dans memaires de L'instut Francais d'Archologice oriantale de Caire. t. 37Le Caire, 1914 p. 116.

، عبدالعزيز سالم ، طرابلس الشام، جـ١٢، الاسكندرية ١٩٦٧.

سادس نيابات الشام فى عام ١٣٤١/٧٤٢ ومنذ ذاك استقر نظام النيابات كتقسيم اداري للشام.

أما عن السكان فى زمن المماليك، فلا شك أن تغلب هؤلاء على التتار فى أول قيام دولتهم فى مصر، وبفضل هذا النجاح، الذى تم فى الشام فى سلسلة من الانتصارات أميزها عين جالوت، مكن المماليك من السيطرة على الشام بحدوده المعروفة التى تمتد شرقا الى نهر الفرات بحكم أنه التوسع المصرى من ناحية الشرق. فتوحدت مصر والشام من جديد على أيديهم. حيث أن حكم المماليك أوجد فترة استقرار للشام، وان كانت استمرت فترة قلقة بسبب تهديد المغول المستمر، فعاد أهل الشام بفضل الاستقرار من أهل الحضر الى الاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة، وقام البدو بحراسة الطرق والدفاع عن الحدود خاصة فى زمن الحروب.

وقد انتشرت العشائر العربية فى بلاد الشام، ولكل منها أفخاذ وبطون، مثلما كان الحال منذ وجد الشام، اذ أن الشام قطر عربى. ومن الأقليات فى الشام، العصبيات العنصرية، بالاضافة الى أهلها العرب فى الشام فى عصر المماليك، مثل عناصر من الاكراد والتركمان والارمن وغيرهم. كذلك كان الخصم الصليبى هو الاخر، الذى وجد قبل الحكم المملوكى سببا فى ورود اجناس أخرى لاعلاقة لها بأهل الشام وجيرانها، اذ هى اجناس من الفرنجة (أوربا) متمثلة فى عزواتها الصليبية بحيث كونوا قسما من سكان الشام، دام عدة قرون الى أن قضى عليهم المماليك وان كانت سلالتهم المخلطة قد بقيت، ولاشك أن للحروب ضد التتار والمغول من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى كان لها أثرها على خريطة توزيع السكان فى الشام. فحدثت تحركات قبائلية نحو

المنـاطق المحـررة مثلمـا حـدث فـى طرابلس التـى تحولـت بعـد ذلـك الـى نيابـة مستقلة.

على أن البدء ببيان توزيـع هذه القبـائل سـيكون مـن وسـط الشـام، علـى أساس أن دمشق التى توجد فيهـا العاصمـة، توجد بوسـط الشـام، ثم شـمالا، ثـم جنوبا، وليس على أساس كثافة القبائل.

وهذا التوزيع سببه أيضا الدور الحربى الذى تلعبه هذه القبـائل، فبعضهـا كان يشارك الجيش المملوكى فى الدفاع أو الهجوم فى الشام.

ويمكن تقصى توزيـع قبـائل الشـام العربيـة علـى حسـب أمـاكن تواجدهـا الرئيسية، التـى أصبحـت ذات أهميـة فـى العصـر المملوكـى، تـأتى فـى مقدمتهـا دمشق، وهى قصبة الشام، حتى أن دمشـق بمفردهـا تسـمى الشـام، وحتـى الآن. لذلك كانت توجد فيها أقوى القبائل الشامية وأغناها وأكثرها عددا منهم آل فضـل الذين هم من ربيعة وترجع أصولهم الى طئ وهم جميعا من عرب الجنوب(١).

وأول ظهور ربيعة كان فى عهد الأتابك زنكى صـاحب الموصـل وولـى ربيعة امارة عرب الشام فى عهد طغتكين السلجوقى حاكم دمشق.

ولما ولى نور الدين محمود بن زنكـى حكـم الشـام، ووفـد عليـه ربيعـة أكرمه نورالدين وشاد بذكره(٢). وآل ربيعة انقسموا الى ثلاثـة أفخـاذ منهـم : آل فضل.

---

(١) ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، ص ٩٣٩، ٩٤٠.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٤، ص٢٠٣.

وكان مبدأ رياسة آل فضل هؤلاء من عهد بنى أيوب. وذلك حين نزل العادل أبى بكر بن أيوب بمرج دمشق، ومعه عيسى بن محمد ربيعه[1] أمير آل فضل، فى جموع كثيرة[2].

ثم ولى بعده حسام الدين بن مانع بن فضل وتوفى عام ١٢٣٢/٦٣٠ وولى بعده ابنه مهنا[3].

وفى عصر سلاطين المماليك، شارك آل فضل ورئيسهم عيسى بن مهنا بن مانع فى معركة عين جالوت ضد التتار. فكافأه السلطان قطز بأن أقطع له مدينة سلمية من أعمال حماه. وكانت حماه قبل العصر المملوكى تتبع دمشق تارة وتارة مع حلب[4]. ثم قامت دولة المماليك فى مصر والشام حينئذ مقسم بين خلفاء بنى أيوب، وكانت حماة من نصيب الملك المنصور، أحد خلفاء بنى أيوب، فلما اكتسح التتار الشام فى عام ١٢٥٩/٦٥٨ وقاتل المنصور صاحب حماة فى صفوف المماليك قتالا شديدا ضد التتار. وتقديرا لبطولته واستبساله فى القتال أعيدت له حماه، وأضيفت اليها المعرة. وكانت من قبل تابعة لحلب.

وأيضا فان الأمير عيسى بن مهنا أمير آل فضل منح مدينة سلمية – وهى من أعمال حماه – اقطاعا له، لبسالته وشجاعته فى قتاله ضد التتار[5].

---

(١) القلقشندى، نهاية الأرب، ص ١٠١.

(٢) ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، ص ٩٣٧، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص٢٠٦.

(٣) المصدر نفسه، المجلد الخامس، ص ٩٤٢/٩٤٠.

(٤) القلقشندى صبح الأعشى، جـ٤، ص١٧٢.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٢٠، ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، ص ٨٢٠، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص٣٠٣، ٣٦٣، محمد راغب بن محمود الحلبى، اعلام النبلاء ، ص٢٩٤.

والأمير ابن مهنا هو أمير آل فضل وكانت ديارهم من حمص- وحماه من أعمالها- الى شط الفرات وأطراف العراق(١).

وبقيت حماه تحت حكم خلفاء بنى أيوب فى ظل دولة المماليك، حتى آخر حكامها الأفضل محمد (٧٣٣-٧٤٢/١٣٣٢-١٣٤٢) ثم صارت نيابة بعد ذلك، وكانت مصياه وحصن الفداوية وسلمية والمعرة، من أهم مدن حماة(٢). ومن أحلاف آل فضل عرب الشام، بنو خالد بديار حماه، منهم الصيالة، الزمول، البنوة، الشقرة وآل ملحم(٣).

ثم نذكر زبيد الأحلاف: وهم بطن من طئ من القحطانية سكنوا بالقرب من الرحبة بجوار آل فضل(٤).

ثم نذكر آل بشار: وهم من حلفاء آل فضل، ومواليهم والاحلاف بطن من آلفضل هؤلاء، وجميعهم بلادهم الجزيرة والاحصن من ديار حلب. على أن تحالف آل بشار والاحلاف وغيرهم من عرب الشام. الذين دخلوا فى طاعة آل فضل سببه قوة آل فضل، وصار آل بشار ومنهم الأحلاف ينسبون الى آل فضل، وصار آل بشار ومنهم الأحلاف ينسبون الى آل فضل بالحلف والموالاة(٥).

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٨٣، جـ ١٢، ص ١١٨.

(٢) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٥٥، باريس ١٨٩٣.

(٣) القلقشندى، نهاية الأرب، ص٢٤٤، السيد محمد ابوالهدى الصيادى، الروض البسام فى أشهر البطون القرشية بالشام، ط. الاسكندرية ١٨٩٢، ص٩، عمر كحالة، معجم قبائل العرب، جـ١ ، ص٣٢٥.

(٤) القلقشندى ،صبح الأعشى، ج_٤، ص ٢١٤.

(٥) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص٣٢، السويدى، سبائك الذهب، باب ٦، ص٩١.

ذكر القلقشندى أن آل بشار هؤلاء متفرقون لاتجمعهم قيادة واحدة، لأنهم دأبوا على عدم الخضوع لأمير منهم، وهذا هو سر ضعفهم، وانضوائهم تحت امرة آل فضل(١). وأنهم لو اتحدت كلمتهم، لخشى بأسهم آل فضل. وذكر أيضا أن آل فضل على الرغم من ذلك فهم يخشون بأسهم لشجاعتهم وشدة بأسهم، كما ذكر أن مدينة جعبر كانت تابعة لنيابة دمشق، ثم صارت من أعمال حلب(٢). وحينئذ فان فى بلاد حلب بعض عرب آل فضل، كما انهم سكنوا وسط الشام كما ذكرنا وكانوا يعيشون فى دمشق.

وفى عهد السلطان الظاهر بيبرس ولى عيسى بن مهنا بن مانع امارة آل فضل.

وفى عهد المنصور قلاوون ولى مهنا بن عيسى امارة آل فضل وهى التى كما ذكرنا كانت تمتد الى شمال الشام وتعتبر من أكبر القبائل الشامية فى العصر الملوكى، ثم ولى السلطنة الأشرف خليل الذى عزل مهنا من امارة آل فضل.

وفى عهد السلطان العادل كتبغا أعيد الأمير العربى مهنا لإمارة آل فضل.

وفى عهد السلطان محمد بن قلاوون، وكان الأمير مهنا أميرا على آل فضل، نقم السلطان محمد بن قلاوون على هذا الأمير لاتصاله بالتتار وحصوله على اقطاع بالعراق. وأمر بطرد آل فضل عام ١٣٢٠/٧٢٠ من بلاد الشام لينضموا الى عرب فى أماكن قاصية بالحجاز والعراق. وجعل امارة عرب

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص ٢٣٢.

(٢) المصدر نفسه، خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٥٥، وجعبر، قلعة جعبر تقع على الفرات بين بالس والرقة غرب صفين. (الحموى، معجم البلدان، مجلد٢، ص ١٤١، ط. بيروت ١٩٥٦).

الشام فى آل على أبناء عمومتهم[١] الذين ينسبون الى على بـن حديثـة بـن عقبـة بن فضل بن ربيعة[٢] ومنه تسلسل زعماء آل على حيث أن إسم طـئ أو ربيعـة أو حتى عرب الجنوب اليمنية، لم تعد تذكر فى ذلك الوقت، إنما أصبحت القبـائل تنسب إلى زعمائها، مثل آل على هؤلاء.

كان الأمير زامل بن على بن حديثة أمير آل علـى مـن سـادات العـرب ووجوهها، ذوى المكانة المرموقة العالية، وذلك منذ عهد المعز أيبك[٣].

وفى عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦/١٢٦٠ - ١٢٧٧) عزل الأمير زامل بن على وعين مكانــه الأمـير عيسـى بـن مهنـا علـى أحيـاء جميـع العـرب بالشام[٤].

وفى عهد الظاهر بيبرس أيضا إنتقل آل على الى مرج دمشق وغوطتها، وذلك حين ولى عيس بن مهنا أمرة آل فضل[٥]. وصاروا بين أخوتهم، آل فضل وبنى عمهم[٦] آل مراء.

---

(١) إبن خلدون، العبر، المجلد السادس، ص ١٩، ٢٠.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢١٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٣.

(٤) إبن خلدون، العبر، جـ٥، ص٩٤١، المقرزى، السلوك، جـ١، ق٢، ص٤٦٥

(٥) ابن خلدون، العبر، جـ ٥، ص ٩٣٧، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٢٠٦.

(٦) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢١٠.

وذكر إبن خلدون، أن الظاهر بيبرس عزل الأمير زامل من إمارته، وحبسه، وذلك (لاعناته واعراضه)[١].

كما ذكر المقريزى أن زامل قبض عليه بالشام، ثم نقل الى القاهرة وأعتقل بها، ثم أفرج عنه السلطان، (وصار يلعب مع السلطان فى الميدان)[٢]. ثم أصلح السلطان بين زامل وبين إخوته وأبناء عمومته أمراء العرب ورد على زامل أقطاعه. إلا أن زامل لم يستجب لهذا التكريم السلطانى. وزاد على ذلك أنه اتصل بالتتار فى بغداد، وحصل منهم على اقطاع له بالعراق. ثم عاد الى الشام وأرسل الى السلطان يلتمس منه العفو، فوافق السلطان وحدد له موعدا يحضر فيه ، فإذا أخلف الموعد المحدد لحضوره عند السلطان فلا عهد ولا إيمان له.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الأمير زامل حضر الى السلطان بعد الميعاد المحدد له فإمر السلطان بالقبض عليه، وسجنه بالقلعة[٣].

وبمقارنة النهج الذى سار عليه هذا الأمير العربى، مع السلطان بيبرس، بما حدث من بعض أمراء العرب فى مصر المملوكية، أمثال حصن الدين ثعلب، الذين حاربوا المماليك وطالبوا بتنحيتهم عن الحكم بإعتبار أنهم أرقاء، وأن العرب أولى منهم وأحق، بحكم البلاد، لأنهم أحرار. ويتضح الشبه الكبير بين سلوك هؤلاء الأمراء العرب فى الشام ومصر، الذين لم يكتب لسياستهم النجاح فى عصر سلاطين المماليك، وأنضووا تحت لواء دولة المماليك، وصاروا من جنود الدولة وفرسانها الشجعان.

---

(١) ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص ٩٤١.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ١ ، ق٢، ص ٥٣٥.

(٣) المقريزى، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٥٣٦.

وفى عهد الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣/١٢٩٠ - ١٢٩٣) ولى إمارة آل فضل الأمير محمد بن أبى بكر من آل على، بعد أن عزل بن مهنا عن الإمارة، ثم أعقبه الأمير جمازين محمد بن أبى بكر، بعد وفاة والده(١). وصدر لهذا الأمير "مرسوم شريف" ومضمونه أن الأمير جماز بن محمد هو خير خلف لخير سلف وان قبائل العرب التى عليها الطاعة، هى أكمل وظائفهم، وأن لآل على فيهم أعلى مكانة. وانهم رديف أسوار دمشق وفريد سوارها. وقد رسم بالأمر الشريف بأن يفوض اليه أمرة آل على فى كل أمورهم كبيرها وصغيرها، وأن عليه حفظ الثغور والذب عن الرعايا فى كل الأمور(٢).

تم أعقبه الأمير رمله بن جماز فى عهد السلطان محمد بن قلاوون - فى المدة الثالثه - (٧٠٩ -٧٤١/١٣١٠ - ١٣٤١) حين أمر بإبعاد مهنا واخواته من الشام(٣).

---

(١) القلقشندى، نهاية الأرب، ص ١٠٧.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ١٢، ص١٢٤.

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢١٠.

وفى عهد الضاهر برقوق، كان أمير آل على هو عيسى بن زيد بن جماز أمير على آل فضل جميعهم، وكانت ديار آل على مرج دمشق وضواحيها(١).

ومن قبائل الشام التى سكنت بغوطة دمشق ومرجها، نذكر بطن زبيد العربى. ذكر الحموى فى معجمه أن الفوطة، هى الكورة التى منعا دمشق كلها أشجار وبسانين وزبيد: وهى بطن من عرب الجنوب، بغوطة دمشق ومرجها، ذكرها العمرى، فى مسالك الأبصار، وبحوران وصرخد، فرقة أخرى، ولم يتبين من أى زبيدهم(٢). وحوران، مدينة واسعة تابعة لدمشق، وصرخد قلعة حصينة ملاصقة لحوران. ذكرها الحموى فى معجمه، وذكر القلقشندى عن زبيد فى كتابة صبح الأعشى، أن زبيد التى بالشام، من بطون سعد العشيرة عرب الجنوب.

ثم نذكر زبيد الاحلاف: وهم من بنى زبيد، وهم بطن من القحطانية سكنوا الرحبة وإمتدوا الى وسط الشام(٣). فقد تفرعت زبيد الأحلاف عن زبيد عرب الجنوب، وتميزت لإختلاف المكان والذين بصرخد منهم: آل مياس،وآل صيفى وآل برة وآل محسن وآل حجش وآل رحا، والذين بالمرج والفوطة آل رجاء وآل بدال والمدوس الحريث(٤).

---

(١) القلقشندى، نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب، ص ١٠٧.

(٢) القلقشندى، نهاية الأرب، ص٢٦٩، السويدى، سبائك الذهب، ص١٠١،عمر كحالة، معجم قبائل، جـ٢، ص٤٦٤.

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى،جـ١، ص٣٢١.

(٤) المصدر نفسه، جـ٤ ص٢١٤.

ثم نذكر بنى نوفل: وهم بطن من زبيد من القحطانية عرب الجنوب مساكنهم بغوطة دمشق، وهم أمراء بنى زبيد وليس لأحد من أمراء العرب أمرة عليهم، وإنما أمر الفريقين، الى نواب الشام(١).

ولقد ذكر القلقشندى، أن تكليفا سلطانيا "مرسوم شريف" صدر لإبن سعيد من البيت النوفلى، بتعينه أميرا على عرب زبيد(٢). وبنو نوفل والزبيدى، جاءت الصلة بينهما نتيجة لوجودهما فى مكان واحد، حيث كانت ديارهم متصلة بين المرج والغوطة.

وقد شاركت زبيد ممثلة فى نوفل الزبيدى، وهو الأمير ناصر الدين شيخ عرب زبيد، الملك الناصر الأيوبى فى حمايته من الوقوع فى أيدى المماليك، فى عهد المعز ايبك أول سلطان فى دولة المماليك وعادوا به سالما الى الشام(٣).

كما قام عرب زبيد وشيخهم هلال بن ساعد الزبيدى بدور الطلائع وكشف الأخبار للسلطان محمد بن قلاوون(٤).

مما سبق فقد عرضنا لعرب دمشق الذين يكونون ركيزة عرب أهل الشام.

أما عن عرب شمال الشام، فكان لها دور يختلف عن دور قبائل عرب دمشق، فعلى عاتقها يقع الدفاع عن منافذ الشام الشمالية. فحلب التى فى شمال

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤،ص٢١٥، القلقشندى، نهاية الأرب، ص٤٣٤، عمر كحالة، معجم قبائل العرب،جـ٣،ص١٢٠٢.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٢، ص١٣٧.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص٨.

(٤) يوسف غوانمة، التاريخ السياسى لشرقى الأردن، ص١٧٤.

الشام، تعتبر مفتاح الشام من الشمال بحكم انها منفذا ثغريا هاما. فإذا كان عـرب دمشق يتصلون بحكام السلطنة فإن هؤلاء يعتبرون سدا للثغور إذ مهمتهم أشـق. فمن قبائل حلب فى زمن المماليك نذكر:

بنوكـلاب: وهـم إذا تسلسـلوا يكونـون بطـن مـن ربيعـة بـــن عــامر بــن صعصعة أى من قيس من عرب الشمال. وكانت منازل بنى كـلاب، فـى جهـات المدينة المنورة فى فدك والعوالى ثم انتقلوا الى الشام.

ذكر المؤرخ ابن العديم، أن ثمة رحيل جماعى لبنى كلاب[١]. حدث فـى أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)، فى نهاية عصر الإخشيد، وبداية العصر الحمدانى، فى البلاد الشـامية. وذلـك أن محمـد بـن طغـج الإخشـيد ولـى أحمد بن سعيد الكلابى شيخ قبيلة بنى كلاب، مدينة حلب، فشجع هذا الوالى، بنى كلاب، على الهجرة الى الشام، فقدموا إليها فى ولايته فكثر بذلك عدد بنى كلاب وزاد نفوذهم فى شمال الشام[٢].

وكان بنو كلاب أحد العناصر الرئيسية المؤثرة فى عهد بنى حمدان قبـل العصر المملوكى، فقد قامت بدور بطولى فى خلال النصـف الأخـير مـن القـرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فى الدفاع عن ثغور الشام ضد الصليبييـن[٣].

---

(١) القلقشـندى، صبـح الأعشـى، جـ١، ص٣٤٠، نهايـة الأرب للقلقشـندى، ص٤٠٧، المقريزى، البيان والإعراب عما بأرض مصر مـن الأعراب، ص١١٠، تحقيق عبـد المجيد عابدين، القاهرة ١٩٦١.

(٢) ابن العديم، زبـدة الحلب، جـ١، ص٩٨، ٩٩، محمد كرد على، خطط الشام، جـ١، ص٢١٣

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، جـ١، ص١٤٨، ١٥٠، محمد كرد على، خطط الشام، جـ١، ص٢٢١، Canard, Sayf Aldaula, P 267

وفى بداية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وبفضل إزدياد نفوذ بنى كلاب فى شمال الشام، فى حلب وضعف الولاة من قبل الفاطميين، الذين إستولوا عليها زمن الحمدانيين، استطاعوا تأسيس دولة بنى مرداس العربية، ويرجع ذلك الى صالح بن مرداس وهو أمير من بنى كلاب الذى تمكن من الإستيلاء على حلب عام ١٠٢٤/٤١٥ بمعاونة أهلها ثم تسلم القلعة من ابن ثعبان والى حلب من قبل الفاطميين(١). وبقيت دولة بنى مرداس التى قامت فى حلب فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) أكثر من خمسين عاما تحكم عربيا خالصا مستقلا إحيانا عن الفاطميين، حتى ظهر السلاجقة، الذين إستولوا على المشرق العربى، ودقوا أبواب العراق، وتوسعوا شمالا حتى الشام - وكانوا من السنة - وإستولوا على حلب من المرداسيين وكانت القبائل العربية قد إنتشرت فى أنحاء الشام من جديد. بعد أن كان ضعف النفوذ العربى، ليحل محله نفوذ الأتراك السلاجقة وبدأ إسم بنى كلاب يظهر من جديد فى بلاد الشام فى العهد السلجوقى، لتعاونهم مع السلاجقة فى حروبهم ضد الصليبيين وغيرهم.

وفى العهد الأيوبى كان بنو كلاب على علاقة طيبة بملوك بنى أيوب، يقدمون لهم الخدمات، مثل إمداد الجيوش بالجمال لحمل الغلال، إلى مناطق الثغور الشامية، حدث ذلك فى عهد الملك الكامل الأيوبى، أو مصاحبتهم الى حدود الشام المتاخمة للروم، للقيام بدور الطلائع للحملات العسكرية، كما حدث فى عهد الملك الأشرف موسى الأيوبى(٢).

---

(١) إبن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٧، ص ٢٤٩، إبن العديم، زبدة الحلب، جـ١، ص٢٢٣، ٢٣٠، ابن خلدون، العبر، مجلد ٤، ص ٥٨٢.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٣٢.

كذلك ذكر القلقشندى بنى كلاب فى كتابه "صبح الأعشى" فوصفهم بأنهم عرب غزو ورجال حروب وأبطال جيوش، وبأنهم من أشد العرب بأسا، حتى أنهم لشدة جرأتهم، فى حروبهم ضد الروم، نسبت إليهم أميرة والمعروفة "بدلهمة والبطال" أو "ذات الهمة" وذات الهمة امرأة عربية والبطال هو ولدها، وهو واحد من أبطال هذه السيرة(١). وذات الهمة فى السيرة الشعبية هى فاطمة بنت مظلوم بن الصحصاح بن جندبة بن الحارث من قبيلة كلاب العربية(٢). وتتعرض هذه السيرة لدور المرأة العربية فى المجتمع الإسلامى ودور الحكام المسلمين فى قيادة الجيوش وإدارة الحكم ووحدة الشعب العربىفى الشام ومصر(٣). مما يبين دور جهاد المرأة العربية فى سبيل عروبة الشام.

وفى العصر المملوكى، كان الناصر محمد قلاوون لايزال ملتفتا الى تالف بنى كلاب هؤلاء بمعنى تشجيعهم على التعاون معه، حيث كان إبن قلاوون يميل الى العرب ويتزى بزيهم. وكان أحمد بن نصير أمير بنى كلاب قد خرج عن الطاعة، حيث يحدث عادة خلاف بين نائب الشام وبعض الأمراء العرب أو مثل ذلك فأمنه السلطان الناصر (وخلع عليه وأقطعه)(٤). ثم رأى السلطان الناصر محمد أن يؤمر عليهم أميرا من آل ربيعة فجعل سليمان بن مهنا أميرا على بنى كلاب. وهم أيضا من عرب الجنوب. وهكذا صار بنو

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢١٥، فاروق خورشد، أضواء على السير الشعبية، القاهرة ١٩٦٤ ص٥٧.

(٢) فاروق خورشيد، أضواء على السير الشعبية،ص٦٠،٩٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢١٥.

كلاب فى العصر المملوكى (تحت خفارة الأمراء من آل ربيعة)(١). والمحصل أن عرب شمال الشام قاموا بالدفاع عن الثغور العربية فى العصر المملوكى مثلما كانوا يفعلون فى العصور السابقة عليه، وأن كان دورهم يظهر ضمنا فى ظل الدفاع المملوكى عن شمال الشام.

أما القبائل العربية فى جنوب الشام فنذكر منها: جذام: وهم بنو جذام بن عدى من عرب الجنوب، مع أنها كانت تجاور العرب القيسية، عرب شمال الحجاز وكانت مساكنها بين مدين الى تبوك ومنها فخذ مما يلى طبرية من أرض الأردن الى اللجون واليامون الى ناحية عكا(٢).

ثم نذكر ثعلبة وجرم: بطن من طئ من القحطانية عرب الجنوب. ذكر القلقشندى فى كتابه " نهاية الأرب" أن منازل ثعلبة وجرم هؤلاء بمشارق البلاد المصرية ومغارب الديار الشامية(٣). وذكرهم أيضا فى "صبح الأعشى" انهم ببلاد غزة والداروم مما يلى الساحل- وهى منطقة بجوار غزة(٤). الى الجبل وبلاد النخيل، وأن من أمرائهم فضل بن حجى من آل مرا وكانت فيهم الامرة(٥) وفى دولة الظاهربرقوق ، على بن فضل بن حجى من آل مرا.

---

(١) إبن خلدون، العبر، المجلد ٦، ص١٨، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١ ص٢٤٠.

(٢) القلقشندى، نهاية الأرب، ص١٠٨، عمر كحالة، معجم قبائل العرب، جـ١، ص١٧٤.

(٣) القلقشندى، نهاية الأرب، ص١١٨

(٤) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٠٩.

(٥) المصدر نفسه ص ٢١١.

ثم نذكر آل مرا: من آل ربيعة عرب الجنوب ومن ديارهم الجولان وهى مرتفعات شرقى صفد وطبرية، لهم نشاط وسعى وراء المرعى، فإمتدت ديارهم الى مكة وأبعد منها، ثم يعودون الى الشام (١) وكا لآل مرا دور هام فى الدفاع عن الشام ضد التتار فى العصر المملوكى (٢).

ثم نذكر آل عمرو: بطن من غزية من عرب الجنوب وهم مع ثعلبة فى مغارب البلاد الشامية. آى فى الجنوب، لأن ثعلبة كانت تقيم ببلاد غزة ومعهم آل عمرو(٣).

ثم نذكر بنى بحتر: وهم بطن من طى من القحطانية عرب الجنوب. (٤). ويقال أن أصل بنى بحتر من أل تنوخ(٥). وآل تنوخ حى من اليمن القحطانية، إلا أنها بخلاف بقية القبائل مكونة من عدة بطون(٦). وقد سكنت تنوخ زمن الفتح العربى فى حاضر بظاهر حلب، ثم انتقلوا منها الى قنسرين(٧). وإنضمت تنوخ وأهالى قنسرين الى جيش خالد بن الوليد فانهزم الروم(٨). (ولتنوخ بقايا بأرض المعره من بلاد الشام)(٩). فكانت ديار بنى بحتر غرب الشام فى المناطق

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى ،جـ٤ ،ص٢٠٨، نهاية الارب للقلقشندى،ص١١١،عمر كحالة، معجم قبائل العرب،جـ٣،ص١٠٦٤.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ١، ق٣،ص٦٩٠،٦٩٣.

(٣) القلقشندى، نهاية الأرب، ص١٠٨، ١٩٧.

(٤) المصدر نفسه،ص١٧٣، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٦٤، محمد كرد على خطط الشام،جـ١،ص ٣٤، محمد فريد وجدى، دائرة المعارف القرن العشرين.

(٥) القلقشندى، نهاية االارب،ص١٧٣، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت،ص٦٥.

(٦) المصدر نفسه، ص١٨٩، السويدى، سبائك الذهب،ص٨.

(٧) ابن العديم، زبدة الحلب،ص٢٦، جرجى زيدان، العرب قبل الإسلام، ص١٦٩.

(٨) ابن العديم، زبدة الحلب، ص٣١.

(٩) الثلثشندى، صبح الأعشى، جـ١، ص٣١٨.

الساحلية عامة، وغربى بيروت خاصة، فهم كانوا فى عهد السلطان فرج يقومون بدور حربى تحت قيادة شيخ المحمودى، فى مناطق البقاع وبعلبك وصيدا، كلها فى جنوب الشام. وهى مناطق مجاورة لمنطقة صفد، وكانت القبائل العربية فى هذه المناطق تشترك معا للدفاع عن السواحل مع بقية القوات المدافعة، ثم إستقر أمر بنى بحتر على حراسة بيروت، التى أقاموا بها منذ بداية عام ٦٩٣/١٢٩٤(١).

ثم نذكر بنو عقبة: بطن من جذام من القحطانية عرب الجنوب ومنازلهم الكرك والشوبك، وكان عليهم درك الطريق ما بين مصر والمدينة المنورة الى حدود غزة(٢).

ونذكر بنى مهدى بطن من جذام من القحطانية، منازلهم بالبلقاء وحول الكرك وهم بطون كثيرة وأفخاذ متسعة منهم الشاطبة، أولاد بنى عسكر والعناترة وأولاد راشدة والبترات واليعاقبة والمطارنة والعفير والرويم والمحارفة والمساهرة والقاطارية والمجابرة والسماعنة والعجارفة(٣).

وبجانب القبائل العربية فى الشام، الجراجمة ويعرفون أيضا باسم الماردية أو المردة، وهم ينسبون الى بلدة الجرجمة فى ثغور الشام، وهم قبيلة

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت،ص٥٧، ٦٣.

(٢) القلقشندى، نهاية الارب،ص ٣٦٤، المقريزى، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب،ص١٨،١٩.

(٣) القلقشندى، نهاية الأرب، ص٤٢٧، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢١١،جـ١٢، ص١٣٥، عمر كحالة، معجم قبائل، جـ٣، ص١١٣٥

من أعالى جبال أرمينية مما يلى بلاد فارس[١]، وان لم يكونوا أرمن وانما من جنس أسيوى مجهول الأصل. وكانوا يقيمون منذ الفتح العربى فى بلاد الشام نواحى بياس ومرعش، من مناطق الثغور من أعمال حلب. وكان لهم دور هام فى الحروب التى نشبت بين العرب والروم (البيزنطيين فى صدر الإسلام). وفى العصر الأموى، كان للجراجمة (المردة) دور فى خدمة العرب ككشافة وعيون، ولكنهم كانوا تارة مع العرب وتارة مع الروم.

وعلى الرغم من أن دائرة المعارف الإسلامية تذكر أن هذا الإسم، وتعنىالجراجمة أو المردة، قد إختفى من التاريخ (٢). إلا انه ورد ذكر المردة فى الأحداث التى وقعت فى لبنان فى عهد الدولة الطولونيه بين الأمير نعمان إبن عامر الإرسلانى – أمير الغرب وتشمل بيروت وصيدا وجبلهما (٣) (الذى حصن مدينة بيروت وقلعتها وبين المردة فى لبنان من قتال عظيم على نهر بيروت دام أياما حتى إنهزموا وقتل منهم وأسر بعضهم (٤).

كذلك ظهر إسم المردة فى الحملات الصليبية على بلاد الشام عام ١٠٩٩/٤٩٣ وذلك حينما وفد الى الصليبيين أناس من المردة من جبيل فى لبنان وغيرها ورحبوا بهم وقاموا لهم بدور الطلائع لإرشادهم فى الطرق والمسالك الجبلية على أساس أنهم مسيحيون مثلهم، وقدموا لهم المؤن والسلاح(٥). مما

---

(١) يوسف دربان، نبذة تاريخية فى أصل الطائفة المارونية، ص٣٢.

(٢) داشرة المعرف الإسلامية، إبراهيم خورشيد، مجلد ١١، ص١٥٠.

(٣) عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، بيروت، ١٩٧٢، ص٥١

(٤) محمد كرد على، خطط الشام، جـ١ ، ص٢٠٣.

(٥) يوسف جوهر، تاريخ لبنان العام، ط. لبنان، ص٢٠١.

يدل على بقائهم فى وسط الشام، منذ أن كانوا يغيرون على الشام بتحريض الروم، حتى أصبحوا جزاءا من أهل الشام.

كذلك إختفت تسمية الجراجمة وحتى المردة وأصبحوا يعرفون بالموارنة حتى غلب عليهم هذا الإسم، ومع ذلك وجدت تسمية المردة فى عصر المماليك، فكان إسم (المردة) يطلق على موارنة جبل لبنان وأحيانا بأشياع رهبان دير مارون. ولكن الموارنة غلبت عليهم وصاروا يعرفون به. والموارنة، نسبة الى الراهب مارون، الذى كان يقيم فى أنطاكية أواخر القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى). وكان بطريك الموازنة يقيم عادة فى دير القديس مارون على ضفاف نهر العاصى قرب أنطاكية وينشر التعاليم الدينية، وأهل مصر والشام هم الذين أطلقوا على أتباع القديس مارون، اشياع رهبان دير مارون، ثم أطلقوا عليهم (موارنة)(١). فى أواخر العصر المملوكى.

ثم انتشر الموارنة فى شمال لبنان حتى وصلوا الى كسروان والمتن والشوف(٢) وإندمج مع الموارنة آل الخازن وآل ملحمة – وهما من عرب الجنوب – فى أيام المماليك (٣). ولم يتمكن المسلمون من سكنى تلك المناطق بصفة دائمة إلا بعد أواخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)(٤). فقد أقام المماليك العرب من آل تنوخ وأمراء الغرب فى عمل الغرب القريب من

---

(١) يوسف دريان، نبذة تاريخية، ص٤٣.

(٢) محمد كرد على، خطط الشام، جـ١، ص٦٩.

(٣) فليب حتى، تاريخ لبنان، من أقدم العصور التاريخية الى عصر الحاضر،ط. ثانية بيروت ١٩٧٢، ص٣٠١.

(٤) صالح بين يحيى، تاريخ بيروت، سنة ١٨٩٨، ص٤٤، يوسف الدبس، الجامع المفصل، ص١٨٧

بيروت، مدة حروبهم مع الفرنج. وبعد طردهم منها أسكنوا القبائل العربية سواحل لبنان ليكونوا حاجزا بين نصارى لبنان أو الموارنة وبين الفرنج إذا ما عادوا الى الشام [١]. وسبب إندماج العرب من آل الخازن وآل ملحمة مع الموارنة يرجع الى ثورات فى عصر المماليك ترتب عليها هذا الإندماج[٢].

ثم نذكر الأرمن، وهم من سكان الشام، وموطنهم الأصلى أرمنية المجاورة للشام، وهى محصورة بين سلسلتين من الجبال. بنطس شمالا طوروس جنوبا، وتمتد ما بين آسيا الصغرى الى الغرب من نهر الفرات، حيث كان العرب- وقد بدأو بعد غزو الشام وهزيمة فارس- يوالون الغارة على أرمنية وينازعون الروم (البيزنطيين) على إمتلاك أرضها، فى عام ٣٥/٦٥٥ مد العرب سلطانهم على جميع أملاك أرمنية.

ولعل الأرمن كثروا فى الشام فى ظل الإسلام بعد أن أصبحت أرمنية جزءا من بلاد المسلمين فى العصر الأموى، والعصر العباسى. وأنهم أصبحوا يشاركون فى السياسة بدليل أنهم كونوا جزءا من الجيش الفاطمى.

أما مساكنهم فى أيام المماليك، فكانوا فى حلب وفى جبال لبنان من مقاطعة كسروان[٣].

ثم نذكر التركمان أو الترك وان غلبت عليهم تسمية التركمان، وهم من أوائل الأتراك الذين إعتنقوا الإسلام وخدموا فى الدولة العباسية، وهم من أعظم الشعوب التركية التى إشتهرت بالشجاعة والفروسية[٤].

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، سنة ١٨٩٨، ص٤٤، يوسف الدبس، الجامع المفصل، ص١٨٧.

(٢) فليب حتى وتاريخ لبنان، ص٣٠١، يوسف الدبسى، الجامع المفصل، ص٢٣٢.

(٣) انطون خانجى، مختصر تواريخ الأرمن، ص٢٨٩، ط. القدس، سنة ١٨٦٨.

(٤) محمد كرد على ، خطط الشام، جـ ١، ص٦٢.

فعن التركمـان، فـإنهم والاكـراد يكونـون قسما مـن أهل الشـام، وكـانت هجرتهم فى الأصل الى أسيا الوسطى من المنطقة التى تقع بين بحر آرال وبحـر الخـزر الـى آسـيا الصغـرى ولاسيما بعد موقعـة ملازكـرد والمشـهورة عـام ١٠٧١/٤٦٤(١) التى كانت بين الترك السلاجقة والبيزنطيين، بحيث سكنوا شمال حلب، وفى ثغور البحر الأبيض. وكان للتركمان دور فى إنهاء السيادة البيزنطية على بلاد الأرمن. ثم إستقر التركمان فى أرمينية(٢).

والأرجح أن ثمـة تسرب تـم تدريجيـا لجماعـات مـن القبـائل التركمانية الى بلاد الشام، منذ إستخدم العباسيون العناصر التركيـة وخاصـة فـى عهد الخليفـة المعتصـم العباسـى (٢١٨ - ٢٢٧/٩٣٠ - ٩٤٨)، وكـان لهـذه العناصر دورها السياسى فى بلاد الشام فى مختلف العهود منذ العصر العباسـى، وحتى سلاطين المماليك.

وقد كـان أول عهد التركمـان بالشـام، فـى عصـر دولـة بنـى مـرداس فـى أيـام الفاطميين، نزلوا فى شمال حلب، ومع أن بنـى مـرداس عـرب إلا أنهـم إستعانوا بالتركمان هؤلاء، كما إستعان بهم الأتابك زنكى فى حروبه ضد الفرنـج، وجعلهـم يقيمون فى حلب وكلفهم بمحاربة الفرنج، على أن كل ما إنتزعوه منهم صار ملكا لهم. وبقى التركمان يقيمون فى ثغور الشام، حتى كان عصر صلاح الدين، الـذى أسكن التركمان والأكراد فى لبنان وسواحله. ومنهم طائفـة سكنت شـرقى الأردن وبقلعة جعبر وعجلون. وإشتغلوا بالرعى والزراعـة والصناعـة وعيـن منهـم فى

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم خورشد، مجلد ٣، ص٧٨.

(٢) محمد كرد على، خطط الشام، جـ١، ص٢٦٢.

القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) أميرهم مير على نائبا فى قلعة عجلون[١] مما جعلهم جزءا من سكان الشام.

أما فى العصر المملوكى، فقد أصبحوا فى أعداد كبيرة، بسبب أن الحكام فى هذه الفترة أصبح منهم تركمان، مثل المعز أيبك التركمانى أو سلاطين المماليك ٦٤٨-٦٥٥/١٢٥٠-١٢٥٧ وجقمك نائب الشام ت: ٨٢٤/١٤٢١ (وكان من أبناء التركمان القادمين إلى الشام، وكان يتكلم العربية، ولايشك من جالسة أنه من أولاد الأحرار فى الشام)[٢]. ومن الطريف أن جقمك هذا، إتفق مع أحد تجار الرقيق على أن يبيعه ويقسم ثمنه بينهما، ثم تدرج إلى الوظائف المملوكية، حتى عين دويدارا ثانيا فى عهد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤/١٤١٢-١٤٢١) ثم دويدارا كبيرا ثم صار نائب الشام عام ٨٢٢/١٤١٩ فبنى السوق الذى عرف باسمه وجعله وقفا على المدرسة التى بناها قرب المسجد الأموى[٣].

ومن الطريف أن القبائل التركمانية، لم يقتصروا على سكنى الثغور ولكن كانوا ينتشرون فى أنحاء الشام، كما ذكرنا، فقد ذكر خليل بن شاهين فى كتابه " زبدة كشف الممالك، فى جريدة بها أسماء القبلائل التركمانية التى كانت تعيش فى المنطقة التى بين غزة وديار بكر أهمها قبيلة دلغادر التى كان لها شأن سياسى بين تلك القبائل التركمانية[٤].

---

(١) يوسف غوانمة، التاريخ الحضارى لشرقى الأردن فى العصر المملوكى ص١٣٥، ط. ثانية ١٩٨٢.

(٢) إبن العماد الدمشقى، شذرات الذهب، جـ ٧، ص١٦٣.

(٣) المصدر نفسه، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد ١٠ سنة ١٩٦٠، ص ٧٢.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم خورشيد، مجلد٩، ص٢٧٧، ط. الشعب.

وقد أصبح التركمان يمثلون جزءا كبيرا فى جيش الدولة المملوكية حتى أن عدد فرسانهم بلغ مائة وثمانون ألف فارس(١). فقد قام التركمان بدور بارز فى محاربة التتار والصليبين. وشاركوا المماليك والعرب فى أهم المعارك الحربية فى الدفاع عن الشام.

وهم طوائف كثيرة بالإضافة إلى بنى دلغار وجد بنو رمضان، والإينالية(٢). فقد ذكر خليل بن شاهين كثير من أسماء القبائل التركمانية الذين قيدت أسماؤهم فى جرائد الجيش المملوكى فى الشام فى الشام مثل: إبن قطلبك وابن كبك وابن دلغار وابن رمضان والأوزارية وبكدلو والبازتية وبوزجالولا والمرعشكولا والاراكية وأوج أخلو وبوز أخلو والاينالية والخزبنزلية والكندولية وغيرهم كثيرون، وأصل عددهم فى جريدة الجيش المملوكى مائة وثمانون ألف فارس(٣).

---

(١) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

بل أكثر من هذا انه قد قامت لهم دويلات فى آسيا الصغرى وأرمينية وبلاد النهرين على الحدود الشمالية بين العثمانيين والمماليك لكنهم كانوا يتعاطفون مع المماليك ومن المؤكد أن أقوى دول التركمان بين المماليك والعثمانين كانت فى دولة المماليك، لأنهم حماة الخلافة ويقيمون فى مراكز الإسلام الكبرى.

ومن التركمان، القرة قيونلى (القطيع الأسود) والاق قيونلى (القطيع الأبيض) وكانوا أقوى جماعتين فى غربى فارس وشماليها الغربى. وفى وسط فارس وجنوبيها فيما بعد. وقبائل القطيع الأبيض والقطيع الأسود هم الذين نجحوا فى توكيد سلطان القبائل التركمانية. و(كانوا قبل هذا الوقت قد أنسوا بالإسلام أجيالا)[١].

وكانوا سندا لتركمان الشام وغيرهم. فقد كانت سياسة التركمان عامة سواء كانوا فى دويلاتهم أو فى الشام، تارة يخضعون للماليك وتارة يعلنون العصيان ويهاجمون الحدود. وهذا كان نادرا. فقد حارب بنو رمضان جيش تيمورلنك عام ٨٠٣/١٤٠١ وطردوهم من حلب ثم بعثوا الى السلطان المملوكى الناصر فرج بذلك[٢]. كذلك ذكر ابن اياس بنى الغادر وأميرهم سليمان بن محمد بن قراجا، أنه كان من خيار التراكمة[٣] الذين يتعاطفون مع المماليك.

وعلى العكس فإنه فى عهد الأشرف قايتباى (٨٧٣ - ٩٠١/١٤٦٨ - ١٤٩٦) خرج عليه شاه سوار حاكم الابلستين التركمانى[٤]، فى شمال الشام،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، ابراهيم خورشيد مجلد ٥، ص٣٢٧.

(٢) إبن اياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور،جـ٣، ص٢٨٦.

(٣) المصدر نفسه، جـ٤، ص٣٩٦.

(٤) ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ١، ليبزج، سنة ١٨٦٦.

وبلغ مقدار ما أنفقه السلطان على الحملات العسكرية ضد شاه سوار أكثر من ثلاثين ألف دينار(١). للقضاء على ثورته ولكن دون جدوى، ولما قوى أمر سوار، إتجه الى عينتاب إحدى توابع حلب فى شمال الشام، وحاصر قلعتها واستولى عليها، إلا أن إبن رمضان أمير التركمان تصدى لأعوان سواروحاربهم وإستولى منهم على قلعة سيس(٢) وهى من أعمال حلب فى شمال الشام (٣).

ثم حاول سوار أن يفاوض السلطان قايتباى على أن يجعله أميرا على مدينة الابلستين فى شمال الشام وأن ينعم عليه بتقدمة ألف بحلب وهى رتبة عسكرية كبيرة فى الجيش المملوكى (٤). وذلك مقابل أن يسلم سوار عينتاب للسلطان ولكن السلطان قايتباى رفض ذلك وكلف أحد أمراء المماليك وهو يشبك الدوادار لمحاربتهم فحا ربهم واستعاد عينتاب من سوار فى عام ١٤٧١/٨٧٦ وإستعاد معها أذنه وطرسوس وهما أيضا فى شمال الشام، ثم طردجماعة سوار من تلك البلاد(٥). وعين مكانة شاه بضاع أخى سوار(عوضا عن أخية فى امرية الأبلستين)(٦). وبذلك تم القضاء على ثورة شاه سوار أمير بنى دلغادر فى عهد السلطان قايتباى.

كذلك كان من سكان الشام، بجوار العرب، الأكراد، منهم طائفة تتميز عنصريا مثل التركمان فى الشام. وينسب الأكراد الى إقليم كردستان فى شمال

---

(١) ياقوت الحموى، معجم البلدان،جـ١ ليبزج سنة١٨٦٦، ص٣٩٨ ، ٤١٦.
(٢) خليل بن شاهين.
(٣) زبدة كشف الممالك، ص٥٥
(٤) زبدة كشف الممالك، ص٥٥.
(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٤٢٩.
(٦) المصدر نفسه ، ص ٤٣٧.

العراق. والكردىنسبة الى كردستان(١). فقد ظهر الأكراد فى الشام فى عصر الدولة النوريه أيام نور الدين زنكى السلجوقى فى الشام(٥٢٢-٥٦٩/١١٢٨ - ١١٧٣)، وفى عصر الأيوبيين من بعدهم، وسكنوا فى شمال حلب وفى الجهات الساحلية من لبنان. وكان عدد الأكراد كبيرا فى هذين العصرين، وإستخدموا فى الجيش الأيوبى ومن بعده المملوكى، (واستعربوا إلا قليلا)(٢). لأنه كان لهم كيانهم اللغوى الجنسى، ويطمحون منذ وجودهم فى قيام كيان خاص لهم. وهم كانوا طوائف منهم، الأكراد المهرانية الذين إشتركوا فى الصراعات الداخلية بين الأمراء الأيوبيين فى عصر خلفاء صلاح الدين(٣).

وفى عصر سلاطين المماليك، كان عدد الأكراد فى الجيش المملوكى، يزيد عن عشرين ألف جندى(٤).وقد ورد ذكر عددهم بمناسبة ظهور تهديدات من بعض الدول المجاورة فأوعز بعض أمراء المماليك الى السلطان بكتابة جريدة بها أعداد فرق الجيش من العناصر المختلفة ومنهم الأكراد.

وفى عهد المنصور قلاوون شاركوا فى الدفاع عن الشام، فى معركة حمص عام ٦٨٠/١٢٨١ ضد التتار، وفى هذه المعركة إنهزم المغول وإنتصر المسلمون(٥).

وكان للأكراد دور فى ثورة جان بردى الغزالى نائب الشام على العثمانيين فى ٩٢٦/١٥٢٠ حين أعلن نفسه سلطانا على الشام، وخطب بأسمه

---

(١) السيوطى لب اللباب، ص١١، ط.بريل، سنة ١٨٥١.

(٢) إبن اياس، بدائع الزهور، جـ٦،ص٥٨٧، محمد كرد على، خطط الشام، ج٩،ص٦٩

(٣) المقريزى، السلوك، جـ١ ق١،ص١٢٥.

(٤) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٥.

(٥) المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣ ، ص ٦٩٣.

على منابر دمشق، وضربت السكة بإسمه على الذهب والفضة وتلقب بالملك الأشرف صاحب الفتوحات. ثم إجتمع الكثير من الأكراد والعرب، مما يبين أنهم أصبحوا جزءا أساسيا من أهل الشام فى عصر المماليك، مع جان بردى نائب الشام للتوجه الى مصر وتولى عرش السلطنة بها، إلا أن العثمانيين لم يمهلوه، ونجحوا فى احباط محاولته فى عام ١٥٢١/٩٢٧(١).

وربما كادت تظهر دولة للأكراد فى الشام من جديد نتيجة لثورة جان بردى الغزالى نائب الشام، إذ كانوا أكبر المؤيدين له، ومع ذلك فلا يبدو أن الأكراد يحبون ترك أوطانهم بدليل أنهم فى عهد صلاح الدين لم يهاجروا من بلادهم كردستان فى نواحى شمال العراق بجماعات كبيرة وإنما كانوا يهاجرون بجماعات قليلة الى الشام، للعمل بالجندية فيها فى أيام المماليك.

والخلاصة أن سكان الشام يتكونون من عرب الجنوب أساسا ومن نسل عرب الشمال، ومن أفراد القبائل العربية التى هاجرت الى الشام طلبا للرزق، ومن العصبيات العنصرية من مارون وتركمان وأكراد وأرمن.

أما إذا تناولنا أحوال الشام الدينية والمذهبية فإن أغلبيتها كان من المسلمين، ولكن طوال الحكم الإسلامى كان يوجد أهل الذمة، وهم أهل الكتاب وهم الأقلية. فإذا كانت القبائل العربية قبل الفتح أغلبها من النصارى حتى سموا بالعرب المتنصرة فإن أغلب مذهب المسلمين كان النسة.

وأهل السنة هم المتمسكون بسنة النبى، ذلك لأن أغلب القبائل وعامة أهل الشام، كانوا على المذهب السنى. وكان علماء السنة يرون أن الذى يحدد سلوك المسلمين اثنان لاثالث لهما، هما الكتاب والسنة، وذلك أن الله أنزل الآية

---

(١) إبن اياس، بدائع الزهور، جـ٩، ص٢٠٨، ١٢١٣، ١٢١٧.

التى تدل على تمام نعمة الله على المسلمين، وإنه تعالى رضى بالإسلام للمسلمين دينا(١). فقد كان أحوال نقلة الحديث من عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفين عادة عند عامة المسلمين فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر فالجميع معروفون فى كل عصر تواجدوا هم فيه(٢). فأخذ مالك والشافعى بالحديث والسنة،وإنتشر فى الحجاز ومصر والمغرب وأبو حنيفة بالرأى والقياس وهو الفقه وانتشر بالعراق وابن حنبل أخذ السنة أو الحديث، وأكثره بالشام والعراق(٣).

فأول مظهر لمذهب مالك السنى بالشام كان عن طريق محدث إسمه مكحول الشامى الذى كان من أهل الشام وأخذ عنه وعرف بمكحول الشامى. فهو مكحول بن عبد الله الشامى (ت١١٨/٧٣١)، وهو من الطبقة الثانية من تابعى أهل الشام، وأصل مكحول أفغانى من كابل ولدبها. (وكان فى لسانه عجمة ظاهرة، ويبدل بعض الحروف بغيره، سئل مرة عن القدر فقال أساهر أنا يقصد أساحر أنا، لأنه كان ينطبق الحاء هاء)(٤). وكان مقيم بمصر، فالتقى بعلمائها وأخذ من علمهم ما إستطاع الى ذلك سبيلا، قال، (فما خرجت من مصر حتى ظننت أنه ليس بها علم إلا سمعته)(٥). ثم سافر الى المدينة وأخذ من علمائها مثل أنس بن مالك، ثم من الشعبى وكلاهما من التابعين، وقد ذكر إبن خلكان مكحول هذا فقال عنه (كان مقامه بدمشق، ولم يكن فى زمنه أبصر منه بالفتيا)(٦).

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٦٢.
(٢) إبن خلدون، المقدمة، ص٤٤١.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٤٨.
(٤) إبن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص١٨٠.
(٥) إبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١، ص٢٧٢، دار الكتب، سنة ١٩٢٩.
(٦) إبن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص١٨٠.

وكان مكحول الشامي يدعو الناس الى الطهارة والتطييب فمن أقواله، أن من نظف ثوبه قل همه ومن طاب ريحه، زيد في عقله(١).

وبعد مكحول نذكر الأوزاعي، الذى تتلمذ عليه، وأخذ عنه، وظهر له مذهب خاص عرف بالأوزاعية، الذى أصبح من أوائل مذاهب الشام كقطر مستقل. فهو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي نسبة الى الأوزاع، بطن من همدان عرب الجنوب، ولد في بعلبك عام ٧٥٧/٨٨ ونشأ بالبقاع، ثم إنتقل الى دمشق وبيروت وعاش فيهما. ورحل في طلب العلم الى بلاد الحجاز والعراق وعاد الى الشام ودخل دمشق، ثم رحل عنهما الى بيروت وتوفى بها(ت١٥٧/٧٧٤)(٢).

أما مذهب الاوزاعي، فهو يميل الى مدرسة الحديث، مذهب الامام مالك، وقد روى الاوزاعي عن التابعين مثل نمير بن قيس (ت ١٢٨/٧٤٥) الذى ولى قضاء دمشق في عهد هشام بن عبدالملك ومثل قتادة بن دعامة السدوسي، وهو أحد علماء التابعين، الذى روى عن الامام مالك(٣).

وذكر الأوزاعي أن أحد الولاة باليمامة بأرض الحجاز كان يمتحن أصحاب رسول الله، ويفرض عليهم أن يسموا المسئ منافقا وليس بمؤمن ، فوافقوه ، فذكر الاوزاعي ذلك لعطاء – أحد علماء الصوفية – فقال عطاء، ما أرى في ذلك بأسا، وتلى قوله تعالى (الا أن تتقوا منهم تقاة)(٤).

---

(١) إبن كثير، البداية والنهاية، جـ١٠، ص٣٠٥.

(٢) إبن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص١٨٠.

Encyclopadia of Islam, V.I, A.B., P. 772

(٣) إبن كثير، البداية والنهاية، جـ١٠، ص٣٢٩.

(٤) المصدر نفسه، (آل عمران، آية ٢٨).

والأوزاعى (هو الامام الاكبر للمدرسة الشامية القديمة فى الشريعة)(١). وساد ببلاد الشام، ثم امتد الى بلاد المغرب وحتى الاندلس، وسبق فيهما مذهب مالك، الذى بدأ ظهوره فى المغرب حوال منتصف القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادى). وفى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) انتشر مذهب مالك فى بلاد الشام أيضا.

ثم نذكر من بعدهما، سفيان الثورى، (ت ١٦١/٧٧٧) وهو سفيان بن سعيد الثورى من العدنانية عرب الشمال. (كان فى زمانه رأس الناس)(٢). ومن أقوال سفيان الثورى أن (الغنى والعز يجولان فى قلب المؤمن، فاذا وصلا على مكان فيه التوكل أوطناه)(٣). وكان سفيان اماما فى علم الحديث، وغيره من العلوم الدينية، وكان ثقة وشهد له أهل الشام على ورعه وزهده(٤). وللثورى مذاهب فى الفقه أخذ بها أهل الشام فترة، الا أن مذهب الاوزاعى والثورى، وان كانا قد ذاعا منذ أيام العباسيين الا أنه قد شاركهما مذاهب أهل السنة المشهورة التى ذاعت فى الشام وغطت عليها بحيث انقرضتا ولم يصمدا، أمامهما نذكر منها مذهب مالك امام أهل الحجاز (ت ١٧٩/٧٩٥)، وله كتاب (الموطأ) فى أصول الأحكام والفقه والأحاديث وأسانيدها.

وأبوحنيفة النعمان (ت ١٥٠/٧٦٧). امام أهل العراق والشافعى (ت ٢٠٤/٨٢٠) الذى انتشر مذهبه بمصر أولا ثم بالشام، وكثر تابعوه فيها، وللشافعى كتاب (الام) دونَ فيه أصول الفقه، والأوامر والنواهى، والخبر والنسخ، وحكم العلة المنصوصة من القياس(٥).

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، ابراهيم خورشيد ، مجلد ٥، ص ٢٠٦.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص١٩٦.
(٣) ابن كثير، البداية، جـ١٠، ص ٣١١.
(٤) المصدر نفسه
(٥) ابن خلدون، المقدمة، الفصل السابع من الباب السادس فى علم الفقه، ص٤٤٨، سيدة اسماعيل الكاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ١٨٠.ط. القاهرة ١٩٤٧.

والامام بن حنبل (ت ٢٤١/٨٥٥)، وهو أحمد بن محمد بن حنبل من ربيعة عرب الشمال. ولد فى بغداد عام ١٦٤/٧٨٠، ومات أبوه وهو ابن ثلاث سنين وقد انتشر مذهبه بالشام. وكان أكثر انتشاره بالعراق والشام منذ العصر العباسى. وأسباب ظهور مذهب ابن حنبل عند أهل الشام أكثر من غيره لانتشار تلاميذه فى الشام أكثر من أى مذهب آخر ولتمسكهم فى مواقفهم فى الأحكام لصالح جمهور أهل الشام فى مواجهة الحكام، وأشهرهم بالشام محيى الدين النووى وعز الدين بن عبدالسلام(١).

وأخذ ابن حنبل عن الشافعى (جملة من كلامه فى أنساب قريش (٢)، أخذ عنه من الفقه ما هو مشهور)(٣).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، الفصل السابع من الباب السادس، ص ٤٤٩.

(٢) علم الأنساب من الأمور المطلوبة للأحكام الشرعية، مثل العلم بنسب النبى وهو النبى القرشى الهاشمى، ولابد لكل مسلم من معرفة نسب النبى. ومثل التعارف بين الناس فلا ينسب أحد الى غير آبائه وأجداده، ويترتب على النسب أحكام الورثة، ومنها اعتبار النسب فى الخلافة على كون الخليفة أو الامام قرشيا. (القلقشندى، نهاية الارب، ص٦).
وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته ان المسلمين عدول بعضهم على بعض الا ظنيا فى نسب فسوى بذلك بين المسلمين المشهود لهم بصحة نسبهم دون المشكوك فى نسبهم فانهم ليسوا بعدول لهم، كذلك كان الخلفاء لايولون منصب القضاء الا من كان من اهل عصبتهم بالنسب. (ابن خلدون ، المقدمة، ص ٢٢١) ط. المكتبة التجارية، وكان للمسلمين اهتمام بآل البيت النبوى خاصة، ففى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) اختص أهل بيت النبى من العلويين والجعفريين والعباسين من دون سائر المسلمين بلقب "الشريف" (البلاذرى، انساب الاشراف، ص ١٨ تحقيق محمد حميد الدين، ط. القاهرة ١٩٠٠، وفى عهد السلطان المملوكى الاشرف شعبان (٧٦٤-٧٧٨/١٣٦٢-١٣٧٦) اختص الاشراف قاطبة بعلامات مميزة بأن جعلوا فى عمائمهم شظفات خضر تميزا لهم عن غيرهم وتعظيما لقدرهم (ابن اياس، بدائع، جـ ٢، ص ٢٠٢).

(٣) ابن كثير، البداية ، جـ ١٠، ص ٣٢٦.

وكان أهل الشام هم أكثر الآخذين من مذهب ابن حنبل، وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث لتقاليد مذهبية سابقة فى التمسك بهما. ومذهب ابن حنبل هو الذى صار أكثر انتشارا بين أهل الشام من السنة.

ولكن منذ الايوبيين، بدأ مذهب الشافعى ينتشر فى الشام. والسبب أن الشام كانت خاضعة للأيوبيين وسلطانهم فى مصر، حيث كان الشافعى ورد مصر وخص أهل مصر بمذهبه وأخذ به الأيوبيون.

وكان الوضع فى مصر الأيوبية أن يكون قاضى القضاة شافعيا. وصار فقه الشافعى فى الشام الى أحسن ما كان والعمل به مثلما فى مصر(١). وكان ذلك تمشيا مع مذهب المصريين بعد القضاء على الخلافة الشيعية فى مصر فأصبح الأيوبيون يروجون للمذهب الشافعى وهو مذهب الحكم فى مصر.

وفى بداية العصر المملوكى فان المذهب الشافعى استمر فى الشام. ولاننسى أن العز بن عبدالسلام، شيخ الشافعية بمصر، وهو الذى أفتى السلطان قطز، بجباية الأموال من أهل مصر لصد عدوان التتار على بلاد الشام(٢).

ولكن فى عهد السلطان الظاهر بيبرس الذى أتى بعد المظفر قطز، كان بدء الأخذ بأحكام الأئمة الأربعة، وسبب ذلك أن الظاهر بيبرس اختلف مع قاضى القضاة الشافعى عبدالوهاب بن بنت الأعز، لتوقفه فى تنفيذ الأحكام، وكثرة الشكاوى منه بسبب ذلك. فأصدر السلطان أمرا بتعيين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، وصرح لهم أن يعينوا نوابا عنهم فى أنحاء البلاد(٣). لأن

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٤٨، ط. التجارية، طبعة القاهرة، ١٩٦٠.

(٢) محمد أبوزهرة، ابن تيمية حياته وعصره، القاهرة ١٣٠٥، ص ١٧.

(٣) محمد أبو زهرة، ابن تيمية حياته وعصره، دار الفكر العربى ، ص١٣٧.

المذهب كان كل شئ فى الدولة فى العصور الوسطى فانه أراد أن يوزع سلطة الحل والعقد بين عدة مذاهب ولاسيما أن المذهب الشافعى كان يمثل القومية المصرية فأراد أن يجعل سلطانه عليها. ومع وجود المذاهب الأربعة فى مصر والشام فان مذهب الحنابلة تميز بدور نشط فى بلاد الشام، بسبب فقهائه المشهورين، مثل ابن تيمية المتشددين فى الدين.

وقد رتب المؤرخ خليل بن شاهين القضاة فى ذلك العصر المملوكى. حسب منزلتهم، فوضع الشافعى فى المقدمة، يليه الحنفى ثم المالكى فالحنبلى(١).

وكان للحنابلة دور نشط فى بلاد الشام، وكان على رأسهم أحمد بن عبد الحليم بن تيمية(٢). (ت٧٢٨/١٣٢٧) شيخ الحنابلة فى نصرة المماليك، حماة الدولة الإسلامية، القائمين على نصرة الإسلام، والدفاع عن المسلمين، فكان إبن تيمية مع المقاتلين ويحمل معهم السلاح.

---

(١) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص٩٢، عبد الوهاب الشعرانى، الطبقات الكبرى، ص١٧، القاهرة ١٣٠٥، عبد ىالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٦٤ ص٨٨.

(٢) إبن تيمية: هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام شيخ الإسلام، ولد بحران شمال الشام عام ٦٦١/١٢٦٢، وإنتقل الى دمشق وتعلم الفقة ووقائعه، وكان من أئمة الفقة، إشتهر بقول الحق والنهى عن المنكر، وبلغت مؤلفاته فى مختلف الفنون والفتاوى الدينية ٣٣٠ مجلدا (إبن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، .ت١،ص١١٠) منها كتاب (السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية)، وكتاب (مجموعة الرسائل الكبرى).

وكان يرى الأغضاء عن هنات المماليك ومعاضدتهم إستنادا على رأى الأمام أحمد بن حنبل، عندما سئل عن قائدين، أحدهما صالح ضعيف، الآخر فاسد قوى، مع أى القائدين يقاتل المؤمن المقاتل؟ فقال مع القوى دون الضعيف، لأن القوى قوته للمؤمنين، وفسقه على نفسه والصالح ضعفه على المؤمنين وصلاحه لنفسه. وقد توارث الحنابلة في بلاد الشام، جواب الإمام أحمد هذا وكانوا عونا للماليك ونصرتهم ضد التتار. فكان ذلك يؤيد نفوذ المماليك في الشام(١).

وقد سجل مؤرخو المسلمين من أهل السنة حوليات دونوا بها أسماء لعلماء السنة بما فيهم الشام، مثل إبن كثير (ت ١٣٧٠/٧٧٢) في كتابه (البداية والنهاية) الذى دون فيه الآراء الفقهية لعلماء السنة في الشام ومصر، فدون لعلماء الشام أمثال مكحول والأوزاعي والثورى وغيرهم من فقهاء الشام وأئمته(٢). وفي مختلف الأقطار العربية والإسلامية. مثل كتاب (طبقات الشافعية) الذى ألفه عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى والسبكى وهو وان كان مصريا إلا أنه تكلم عن طبقاتهم، وأثر شافعى الشام فى نشر هذا المذهب مثل شافعى مصر، وذلك عن طريق الرحلة، بصفة خاصة فذكر جماعة من علماء الشام الذين هاجروا الى بلاد الإسلام الأخرى مثل على بن محمد الإنطاكى، الذى ولد بأنطاكية عام ٩١١/٢٩٩ ودرس الفقة والقراءات والحساب. ثم رحل الى بلاد الأندلس ينشر العلم بين أهله وعشيرته من أهل الإسلام هناك.

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٣، ص٢٢٦.

(٢) إبن كثير، البداية والنهاية، جـ١٠، ص٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٣، ٣٢٩.

والخلاصة أن المذاهب السنية هي التي إنتشرت بأغلبية في الشام، لانستطيع أن نقول أن واحد منها بد عن الأخر وأن كان الشافعي وابن حنبل خاصة تبادلا الإنتشار فالشافعي في الأيوبيين وبداية المماليك وابن حنبل بعد ذلك في عهد المماليك.

كذلك وجدت أقليات أعتقدت مذاهب أخرى كانت تمثل تجمعات بشرية لاتتميز بصفة قبلية وإنما بصفة طائفية ومن هؤلاء.

الشيعة بمعنى الذين شايعوا عليا بن أبي طالب، أمير المؤمنين، وقالوا بامامته وخلافته، وأن الأمامة لاتخرج عنه وعن بنية، إلا بظلم، وأن عليا وذريته أحق الناس بالخلافة ويجمعهم القول بوجوب التعيين للأمام بالنص عليه ممن قبله، وثبوت العصمة للأئمة عن الكبائر والصغائر، ويجمع الشيعة حب علي، ويختلفون فيمن سواه(١).

ومن الشيعة من يرى أن الإمام في الكمالات، وهي الصفات الروحانية، دون النبي وفوق البشر(٢). وهم يعتبرون "الأمامة" ركنا من أركان الإيمان. ومن

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٣، ص٢٢٦.

(٢) محمد الحسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، صيدا سنة ١٩٣٦، ص٩٣،٩٧.

الملاحظ أن الباطنية(١) التى هى أساس الدعوة لطوائف الشيعة، وقد لزمهم هذا اللقب "الباطنية" لقولهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا(٢) والمقصود بكل هذا هو القرآن الكريم والحديث فهو أشبه بالتفسير عند السنة وبالفقة. وقد دعوا الناس الى امام فى كل زمان يعرف موازنات العلوم الدينية والمذهبية الشيعية، يهتدى الى مدارجها(٣).

وهم فرق متعددة منها فرقة أولاد الحسن لأنه أكبر أولاد على وفرقة سلسلتها فى أولاد الحسين لأن الحسن قد سلم الخلافة لمعاوية فأضاع حق أولاده.

---

(١) قام بالدعوة القريطية، دعاة للمهدى من أهل البيت بدون تحديد لشخصية هذا المهدى، وقام بهذه الدعوة رجلين زكرويه بن مهروية، وهو الذى إنتهى اليه دعاتهم بسواد الكوفة عام ٨٩١/٢٧٨ ثم العراق والشام، ولقب الداعى للمهدى بقرمط (وشغل الناس به شؤنهم وحبسه عامل الناحية ففر من حبسه ولم يوقف له على خبر) ولم يتم لهم دولة (إبن خلدون، العبر، جـ٤، ص١٨١) والحسن بن بهرام القرمطى المعروف بالأعصم (الأعظم) كانت دعوته بالبحرين وقامت لهم دولة بها وإستقروا هناك وكانت تربطهم بالفاطمية بالمغرب علاقات. ولما سار الفاطميون الى القاهرة وبعثوا بجيوشهم الى الشام، وإستولوا عليه وقطعوا ما كان يؤديه الإخشيديون للقرامطة فنهض القرامطة لمحاربة الفاطميين وتغلبوا عليهم وطردوهم من الشام وتتبعوهم الى مصر، ثم إنتهى الأمر بهزيمة القرامطة وإنسحابهم الى الشام. وفيما مات القرامطة الى الأحساء بالبحرين ثم تلاشت دعوتهم وتفرقوا. (إبن الأثير، الكامل، جـ٧، ص٥٤، إبن خلدون العبر، جـ٤، ص١٨١، إبن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ٧٤، عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، القاهرة ١٩٦٨، ص١٠٩،

Ency, Ist art Hilal, t. 2. P. 325 savlain t 4, P. 542

(٢) الشهر ستانى، الملل والنحل، ص١٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٣.

وفرقة جعلتها فى محمد بن على من غير فاطمة(محمد بن الحنفية) الابن الثالث لان الحق آل اليه بعد وفاة أبيه وأخويه(١). ففى مقدمتهم فى الشام الشيعة الاسماعيلية(٢)، وهم غالبية الشيعة فى الشام. وهم القائلون بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق، وأن الامامة انتقلت اليه بعد أبيه، وهو التسلسل الذى نشأ منه الخلفاء الفاطميون فى المغرب ومصر الى الخليفة المستنصر بالله. ثم انتقلت الامامة الى المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ - ١٠٣٦/٤٨٧/١٠٩٤) وهو الخامس من خلفاء الفاطميين فى مصر وهو الثامن من أول نشأة الخلافة الفاطمية.

كذلك نذكر أن أصل هذه الفرقة من أصل قرامطة البحرين ومنهم القرامطة الذين كانوا والفاطميون فرقة واحدة أول الامر قبل الانشقاق فى عهد المعز، فأرادوا أن يستأثروا بالشام من دون الفاطميين فهاجروا فيه وانتقلوا بقبائلهم اليهم وزعيمهم الحسن بن بهرام القرمطى(٣).

وبعد موت الخليفة المستنصر بالله الفاطمى عام ٤٨٧/١٠٩٤ انقسم الفاطميون على أنفسهم لقسمين، هما النزارية أنصار نزار بن المستنصر الاكبر، والمستعلوية أنصار المستعلى بن المستنصر الأصغر، وقيل أن الزعيم الفارسى الحسن بن الصباح (ت ١٨٥/١١٢٤) طلب من المستنصر

---

(١) احمد أمين، ضحى الاسلام، جـ٣ ، ص ٢٠٨ ، القاهرة ١٩٤٩.

(٢) (الشيعة الاسماعيلية فرقة من الشيعة، وقد عرفوا بهذا الاسم لأنهم اعتبروا الامامة منتهية عند اسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى ١٤٣/٧٦٠). المقريزى، السلوك، جـ١، ق ٢، ص ٢٢٧.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٧ ، ص ٥٤.

أن ينص على خلافة الامامه فأفهمه الخليفة بأن نزار سيكون ولى عهده ولكن بعد موت المستنصر تولى الخلافة ابنه المستعلى ولقب أبو القاسم أحمد (٤٨٧-٤٩٥/١٠٩٤-١١٠٢) وتمسك الحسن بن الصباح وأتباعه بامامة نزار- الذى لقب بالمصطفى لدين الله - وفاء لعهد المستنصر. فصارت الاسماعيلية الفارسية التى ببلاد المشرق (بأصبهان) تأخذ بمذهب النزارية، ونزار هو الأكبر وهو جد أصحاب الدعوة بقلعة الموت[١]، دعوة ابن الصباح الذى مالبث أن انفصل عن الخلافة الفاطمية وأصبح له مذهب جديد (الدعوة الجديدة) وهو الذى أطلق مذهب الاسماعيلية رجوعا للأساس لمذهب الشيعة وكون ابن الصباح فرعا بالشام ضد المستعلوية.

وعلى العكس فان غالبية الشيعة الذين هم بالشام فى أيام الفاطميين فانهم أخذوا بمذهب المستعلوية، ومما يؤيد صحة ذلك ماذكره المؤرخون المعاصرون من أن الخليفة الفاطمى المستعلى بعث بكتاب الى رضوان بن تتش السلجوقى فى عام ٤٨٩/١٠٩٥ بالدخول فى الطاعة، فاستجاب رضوان وأعلن الخطبة لنفسه وللمستعلى فى حلب ودمشق[٢]، وقد ذكر القلقشندى فى كتابه (صبح الاعشى) أن المستعلوية أنكروا امامة نزار بن المستنصر وقالوا بأن الحق فى الامامة والخلافة للمستعلى بالله، وأن من الضلال اتباع الحسن بن الصباح

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان ، جـ١، ص ٨٠،

Ency Isl, V. 3 L.R. p. 941

(٢) أبو الفداء اسماعيل، تاريخ أبو الفدا، جـ٢، ص٢٢٠، ابن خلدون، العبر، جـ٤، ص ١٤٠، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٥، ص ١٥٨.

داعية نزار. وأخذت الشيعة الذين هم بالشام بقلاع الاسماعيلية بمذهب المستعلوية (وصاروا شيعة لمن بعد المستعلى من خلفاء الفاطميين واشتهروا باسم الفداوية)(١)، لأنهم منذ الحسن بن الصباح وهذا أصبح اسما لهم. وهذا أمر طبيعى يبين وحدة القطرين، مصر والشام فظهر حتى فى المذهب الشيعى لأن المستعلوية هى التى سادت مصر(٢).

وماورد هنا من أن إسماعيلية الشام هم الإسماعيلية المستعلوية منقول عن كتاب (صبح الأعشى) للقلقشندى، وهذا بخلاف ما ذكرته بعض المراجع الحديثة التى تقول بأن إسماعيلية الشام هم (الإسماعيلية النزارية)(٣).

وهكذا كانت امامة المستعلى معترفا بها من الاسماعيلية فى مصر والشام، باستثناء الاسماعلية الفارسية التى لم تعترف بالا بامامة نزار(٤).

ويبدو أن التشيع فى الشام قد أصبح من الضرورة أن يتميزا ويعادى التشيع الذى كان فى مصر، فالقرامطة كانوا يخالفون الفاطميين فى الشام وهذا هو السبب فى انقسام التشيع دلالة على أن للشام رغبة فى أن يكون له ذاتيته. فلعل التشيع وضع بذوره منذ ذلك الوقت.

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ ١٣، ص ٢٤٥.

(٢) ابن خلدون ، العبر، المجلد٤، ص ١٣٩، ط. بيروت ١٩٦٨.

(٣) انظر (العدوان الصليبى على بلاد اشام)، لمؤلفه جوزيف نسيم يوسف، طـ ثالثة الإسكندرية ١٩٧١، ص٢٢٦.

(٤) Encyclopadia of Islam, t. 3, L-R, P. 767

وبعد موت رضوان حاكم حلب السلجوقى عام ١١١٣/٥٠٧ تعرض الاسماعيلية لسوء المعاملة لمنعهم من نشر دعوتهم فى حلب، ولكن لم يلبث أن ظهر داعية فارسى آخر قدم من بغداد يدعى بهرام[١] استطاع أن يستميل أنصارا كثيرين خلال عدة أعوام قليلة. واستطاع أن يحتل بانياس عام ١١٢٦/٥٢٠ ثم انتشرت الدعوة فى دمشق وملكوا عدة حصون فى الجبال عرفت بقلاع الدعوة. منها القدموس فى عام ١١٣٠/٥٢٥[٢]، والخوابى والكهف عام ١١٣٧/٥٢٣ ومصياف عام ١١٤٠/٥٣٥ والمنيقة عام ١١٥١/٥٤٦[٣]. وصار مقرهم فى نواحى طرابلس التى أهم مدنها، صهيون والمرقب، وحصن الأكراد وقدموس حتى عصر صلاح الدين.

وقد حاصر صلاح الدين الاسماعيلية فى مصياف[٤] عام ١١٧٦/٥٧٢ (ليقاتهلم بما فعلوه من الوثوب عليه وارادة قتله)[٥] لاختلاف المذهب والمنافسة

---

(١) وهو داعية فارسى غير بهرام القرمطى الذى ظهر فى بدء الدعوة القرمطية فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى).

(٢) ابن خلدون، العبر، مجلد ٤ ، ص ٢٠٦، القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ ١٣، ص ٢٤٥، عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى، ص ٢٣٧، ط. اسكندرية ١٩٦٧، ص ٢٣٧.

(٣) ابن خلدون، العبر، المجلد ٥ ، ص ٨٤٥، القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ١٣ ، ص ٢٤٥، محمد كرد على ، خطط الشام، جـ ٢، ص٣، ١٣.

(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٤ ، ص ٢٠٧، ومصياف، هى احدى حصون الاسماعيلية بالشام، وتقع على الساحل قرب طرابلس (المقريزى، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٣٠٢).

(٥) ابن الاثير، الكامل، جـ٩، ص ١٣٩، أبوشامة، الروضتين، ص ٢٥٨ ومابعدها.

فى الحكم، وهذا يعنى أن الشام يريد ذاتيته، ثم عاد وانصرف عنهم بعد تدخل شهاب الدين خال صلاح الدين فى الصلح بينهم، وظلوا بقلاعهم بأعمال طرابلس(١).

وقد أورد لنا ابن بطوطة – ت ١٣٧٧/٧٧٩ كثيرا من المعلومات عن حصون الفداوية فى الشام وأحوالها فى أيام المماليك – الذى رحل إلى الشام ومر بحصون الفداوية وهى : القصر، واشغر بكاس، وصهيون والقدموس والمنيقة والعليقة ومصياف والكهف. وذكر أن هذه الحصون لطائفة الاسماعيلية. وهم أيضا الفداوية. وذكر أنه لايدخل حصونهم غيرهم وأنهم فى عهد الملك الناصر الايوبى ٦٤٨-٦٥٩ (١٢٥٠-١٢٦٠) كانوا يحصلون على مرتبات نظير قيامهم باغتيال أعدائه، فضلا عن أن من يقوم بمهمة فداوية يكلفه بها السلطان يحصل على ديته مقدما، فان سلم فالديه له، وأن أصيب فهى لولده. وأنهم كانوا يحملون سكاكين مسمومة لقتل من كلفوا بقتله(٢).

ومثلما فعل صلاح الدين فى أيام الأيوبيين بتأديب الفداوية، فعل الظاهر بيبرس فى أيام المماليك نفس الشئ وهو تأديب الفداوية ولكن المماليك تمكنوا أكثر من الأيوبيين من بسط سلطانهم على الفداوية وإخضاعهم للسلطة المركزية فى مصر، مما يدل على بقائهم الى زمن المماليك، فقد ذكر إبن بطوطة حصون بإسمها بعضها قد إختفى،الأن من خريطة الشام الحالية فى عصرنا وهى حصون مصياف والكهف القدموس والعليقة والمنيقة وغيرها.

وفرض المماليك جزية عليهم يدفعونها بلغت مائة ألف درهم وقد سميت فى عهد المماليك جزية، مع أن الجزية خاصة بأهل الذمة، يدفعونها لحمايتهم(٣).

---

(١) المصدر نفسه، القلقشندى، صبح الاعشى، جا١٣، ص ٢٤٥.

(٢) ابن بطوطة، تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار، ص ٥٦.

(٣) دائرة المعرف الإسلامية، إبراهيم خورشد، مجلد ٦، ص٤٥٤.

وبقى إسمها كما هى بسبب أنهم كانوا ملتزمين بها لدى الصليبيين، وتحولت هذه القلاع الفداوية الى قلاع تخدم نيابات الشام التى ورد ذكرها فىالتقسيم الإدارى أيام المماليك. ومنذ ذلك الحين، صارت الإسماعيلية فى الشام شيعة لمصر المملوكية(١).

وهم أيضا الحشيشية، وهم فرعا من الإسماعيلية النزارية الشرقية ويسمون أيضا الفداوية، اللذين لعبوا دورا مهما فى الحروب الصليبية، حيث كانوا يحتلون الحصون الجبلية فى الشام. وقد عرفت هذه الجماعة بإسم الحشاشين. والأرجح أن هذا الإسم أطلقه عليهم الأعداء لأن مؤسسى هذه الفرقة (الجسن إبن الصباح كان رجلا شهما كافيا عالما بالهندسة والحساب والنجوم)(٢). وكان أيضا متشددا فى تحريم الخمر وغيرها من المفاسد فكيف يسمح لأعضاء فرقته بتعاطى الحشيش(٣). وقد سماهم إبن خلكان بإسم الفداوية(٤). وأهم ما يميزهم أنهم (جماعة سرية يطيع أفرادها أئمتهم طاعة عمياء(٥)).

---

(١) إبن خلدون، العبر، مجلد ٤، ص٢٠٩،بيروت ١٩٦٨.، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٧٩، جـ١٣، ص٢٤٥.

(٢) إبن الأثير، الكامل، جـ٨، ص ٤٩٢.

(٣) ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، ص ٤٢٠.

(٤) (الفدائى فى نظام جماعة الحشاشين هو الشخص الذى يناط به إغتيال من تقرر الجماعة قتله من أعدائها، ويكون هذا القتل مقابل مبلغ من المال أحيانا)، (المقريزى السوك، جـ١،ق٣، ص٢٧٧، Ency., Isl., Art, Fidai

(٥) المقريزى، السلوك، جـ١،ق٢،ص٢٧٧، دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٧، ص٤٣٤.

وقد تمكن الحشيشية فى عهد الأمير السلجوقى، رضوان بن تتش الذى اعتنق مذهبهم من تثبيت أقدامهم فى حلب لفترة، ثم تمكنوا بقيادة بهرام[1] وهو داعية فارسى حضر من بغداد الى الشام أوائل القرن السادس الهجرى (العاشر الميلادى) ليعمل على نشر الدعوة ببلاد الشام، وقد إستطاع بهرام وأعوانه من أن يحتلوا بانياس، عام ١١٢٦/٥٢٠. ثم فتحوا بعض الحصون فى شمال الشام نواحى طرابلس مثل كهف وقدموس وعليقة والخوابى، وكان على رأسهم شيخ الجبل، ومن أشهر حكامهم، راشد الدين سنان. وكان بقلاع الدعوة فى عهد صلاح الدين[2].

ولما سقطت قلاع الدعوة فى يد سلاطين المماليك، صارت الحشيشية (شيعة لمصر وملوكها)[3] الموحدون (الدروز).

وهم فرقة من الشيعة وهم الدروز، يسمون أنفسهم أصلا الموحدين، وهم ميعثرون فى أماكن مختلفة فى بلاد الشام وخاصة جبال لبنان وحوران فى جنوب دمشق، وعملهم الأصلى الزراعة وإقتناء الأراضى.

وقد كان بدء ظهور الدروز فى الشام، فى عهد الحاكم الخليفة الفاطمى فى مصر (٣٨٦ - ٤١١/٩٩٦ - ١٠٢١) وحسب المذهب الفاطمى الذى ظهررسميا فى مصــر فإن الحاكم هو خليفة فاطمى، وفى أوائل القرن الخامس الهجرى

---

(١) وهو غير بهرام القرمطى، الذى ظهر فى بدء الدعوة القرمطية فى أواخر القرن ٣ هـ (٩م).

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٣، ص٢٤٣، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٢، ص١٩٠.

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٧٩

(الحادى عشر الميلادى) وبالذات فى عام ١٠٢١/٤١١[١] قامت طائفة الدروز وهم من الإسماعيلية.

ومن أشهر دعاتهم محمد بن إسماعيل أنوشتكين الدرزى الذى فسر طبائع وخصال حاشية الحاكم بأوصاف بأنها الإسماعيلية الحقة التى ذكرت فى التأويل، وإنها هى نفس الامامة التى أوردها التنزيل، وأن ممثلها هو النبى الذى خلع الإمامة على الحاكم بدستور غير طبيعى متلبسا فى العقل الكلى.

ونتيجة لحدوث عدة إضطرابات فى عهد الحاكم، قام الحاكم بتكليف زعيم آخر هو حمزة بن على، ويعتبر حمزة المؤسس الحقيقى لمذهب الدرزية، وإن كان اسمه الذى أطلقه حمزة نفسه مذهب التوحيد. وقد بدأ حمزة رسالته أو ولايته عام ١٠١٧/٤٠٨ فى محيط الدروز، وبعد موت الدرزى فى عام ١٠١٩/٤١٠ حاول حمزة إحتواء جميع الحركة تحت رايته، وكان مذهبه واضحا كالأصل عند مذهب الدرزى، وهو الذى سمى اتباعه من الدرزية "الموحدين". وقد ألف حمزة أنظمة جديدة.

وربما كانت القواعد التى فسرها حمزة من المذهب الشيعى الفاطمى الذى دعى الى تنظيمه قد تطورت فى الشام بظهور أحوال شخصية يتعامل بها أتباعه إذ أنه طالب بإستقلال دينى متأسيا بالسنة وبالتأويل الإسماعيلى.

وبالرغم من ذلك فإن الدورز قبلوا من المذهب السنى للإمام أبى حنيفة، فى حدود ما سمح به الحاكم مع بعض التعديلات.

---

(١) **Sauvaget, Memento chronologiqur d'his toirs musulemane paris,195 P.2.**

وقد شارك الدورز فى الدفاع عن بلاد الشام. ومن أمثلة ذلك مشاركتهم المماليك فى معركة مرج دابق شمال الشام ضد العثمانيين عام ٩٢٦/١٥١٦(١). وقد أظهروا من الشجاعة والنجدة ما تقر به العيون (٢).

وينسب فليب حتى، الدروز الى جماعات عرقية مختلفة من فرس وعرب(٣).

أما شكيب أرسلان فإنه ينسب الدروز الى قبائل بنى معروف من القحطانية عرب الجنوب، وينفى عن الدروز أنهم من أجناس مختلفة، ويرى أنهم من عرب الجنوب لأن فى لغتهم إصطلاحات تدل على ذلك (٤). بينما ذكر القلقشندى بنى معروف عند ذكره لبنى المنتفق أنهم من العدنانية (٥).وهذا يعنى أهم عرب خلص وليسوا عناصر وافدة على الشام غريبة عن جنس العرب.

ويتصف الدروز بصفات تميزوا بها هى الولاء للجماعة وحب الحرية والإستقلال والصبر على تحمل المكارة والشدائد.

---

(١) Encyctopadia of Islam, B. Luis and J, Scheht. V.T. C-G. London, 1956, p. 630

والمصادر هى : أبو المحاسبن بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، إبن الجوزى، مرآة الزمان، إبن العديم، تاريخ حلب، النويرى، نهاية الأرب، محمد كامل حسيهن، طائفة الدروز، تاريخها وعقائدها، القاهرة ١٩٦٢، ص١٦٢.

(٢) محمد كرد على ، خطط الشام/ جـ٢، ص١٤.

(٣) فليب حتى، تاريخ لبنان، ص٣١٤.

(٤) أحمد الشرباصى، شكيب أرسلان، داعية العروبة والإسلام، ص٧٩.

(٥) ذكر القلقشندى، أن منازل بنى المنتفق بين البصرة والكوفة والإمارة فى بنى معروف (نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، ص٢٧٥).

على أن قبائل عربية مثل التنوخيين إنضموا الى الدروز[١] وكانت هذه القبائل العربية المقيمة فى جبال لبنان الساحلية حاجزا بين الصليبيين والمسلمين فى دمشق وحلفاء للمسلمين [٢]

النصيرية (العلوية) :

وهم من الشيعة الاسماعيلية، سكنت فى شمال لبنان، فى جبل النصيرية، يسمى أيضا الإنصارية، وهو جزء من جبل لنان وتمتد بلاد النصيرية شرقا حتى سهل حماة وحمص وحلب وشمالا حتى أنطاكية. ثم تمتد حتى حدود الأناضول. ويعرف النصيرية (بالعلوية) بينما أسمهم الأصلى (النصيرية)، نسبة الى مؤسس الطائفة النصيرية وهو الفقيه الشيعى محمد بن نصير الذى توفى عام ٨٧٣/٢٦٠[٣].

والنصرية التى كانت تقيم فى وادى التيم من أعمال بعلبك هى التى قتلت بهرام الداعية الإسماعيلى الذى خرج من بانياس فى عام ١١٢٨/٥٢٢ وإتجه بأتباعه الى وادى التيم من أعمال بعلبك وهضبة النصيرية وحاصرهم وقاتلهم ولكنهم هزموه وقتل بهرام فى المعركة عام ١١٢٨/٥٢٢ وإنسحب أتباعه بعد هزيمتهم الى بانياس [٤].

أما عن أهل الذمة، وهم كانوا قبل الإسلام معظمهم من العرب المتنصرة على عقيدة مذهب مصر اليعقوبى، وهو الذى يؤمن بالطبيعة الواحدة وأقليتهم من الموارنة[٥].

---

(١) فليب حتى، تاريخ لبنان، ص٣٢٠.
(٢) محمد كرد على، خطط الشام، جـ٢، ص١٤.
(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٣، ص٢٤٨، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى جـ٤، ص٢٦٥، ط. أولى القاهرة ١٩٦٨.
(٤) إبن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص٢٧٩، إبن خلدون، العبر، جـ٤، ص٢٠٦.
(٥) إبن خلدون، العبر، مجلد ٢، ص٣٠٥.

وكان على أهل الذمة أن يؤدوا الجزية فيؤمنون على أنفسهم وأسرهم وما لهم، ولكن بعض عرب الشام مثل تغلب(١)، وهم من ربيعة من العدنانية عرب الشمال. (كانت النصرانية غالبة عليهم لمجاورة الروم على حدود الشام)(٢) على المجرى الأدنى لنهر الفرات(٣). كانوا يعفون من الجزية، وأن النبى صلعم نفسه، وضع القواعد لعرب الشام حين توجه الى المدينة وفد من تغلب، وبعضهم مسلمون وبعضهم نصارى، وعقد الرسول للنصارى تغلب صلحا (أبقوا فيه على دينهم على ألا ينصروا أولادهم)(٤) وفى عهد الخليفة عمر، ذهب إليه فى المدينة وفد من تغلب عرب الشام، ليضع عنهم إسم الجزية، أنفه منهم، فقبل منهم، وجعل الصدقة مضاعفة(٥).

وقد عاش أهل الذمة فى بلاد الشام ومصر فى ظل الإسلام عيشة طيبة حتى عصر سلاطين المماليك، فكانوا يلبسون أفخر الثياب ويركبون البغال والخيل المسمومة، ويستخدمون فى المناصب السلطانية ولدى الأمراء المماليك.

ثم تغيرت أحوالهم، وصدرت الأوامر السلطانية فى عهد السلطان محمد بن قلاوون بمنعهم من العمل فى الدواوين أو لدى الأمراء المماليك، وألا يركبوا

---

(١) وتغلب هذه هى تغلب وائل من العدنانية عرب الشمال وهى غير تغلب حلوان اليمنيةالتى تسمى تغلب العليا تمييزا لها عن القبيلة الأولى. (القلقشندى، نهاية الأرب، ص١٨٧، دائرة المعرف الإسلامية، مجلد ٥، ص٣٢٥ مادة تغلب

(٢) القلقشندى، نهاية الأرب، ص١٨٧.

(٣) دائرة المعارف الأسلامية، إبراهيم خورشيد، مجلد ٥، مادة تغلب، ص ٣٢٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٢٩.

(٥) إبن خلدون، العبر، مجلد٥، ص٩٤٥، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٥، مادة تغلب، ٣٢٩

خيلا ولا بغالا. ولبس النصارى عمائم رزقا ولبس اليهود عمـائم صفـرا، ونشـر ذلك الأمر من دنقلة الى الفرات. وطبق فى الآفـاق، وخاصـة أهل دمشـق فإنهم نفذوا هذا الأمر السلطانى على أهل الذمة بمنتهى الدقة(١).

وقد كان صدور هذا الأمر السلطانى فى عام ١٣٠٠/٧٠٠ وذلـك عندمـا شاهد أحد الوزراء المغاربة – وكان فى زيارة للقاهرة – أحد النصـارى ممتطيـا فرسا فى ميدان القلعة وجماعة من النـاس يمشـون حولـه، يلتمسـون منـه قضـاء مصـالحهم فـى ذل وتضـرع وهـو لايلتفـت إليهـم ولا يكلمهـم، ولكـن ينهرهـم ويحرض حراسه لإبعادهم عنه. فأنزعج الوزير المغربى من هذا المنظر وطلـب لقاء السلطان فإجتمع معه السلطان، ثـم طلـب السلطان الأمـراء، وجمـع مجلس حضره رجال الدين من المسلمين وأهل الذمـة. ثـم أصـدر ذلـك القرار وكلفهم بتنفيذه.

اما الموارنة، فكان هواهم لمكان الدين، مع الصليبيين(٢). حتى ان فرنسـا هـى التى عملت على قيام إمارة لبنانية مستقلة عن سوريا عام ١٨٦١/١٢٧٨(٣).

والموازنة هم الكسروانيون وهم تركمان غير كسروان الذيـن سـكنوا فـى جبل كسروان، وكان للكسروانيين دور فى ثورة منطاش التـى قـام بهـا الأتـابكى منطـاش نـائب الشام ضـد السلطان برقـوق، فقد خـرج بـدلار النـاصرى والـى طرابلس على السلطان برقـوق وتمكـن مـن ضـم جماعـة مـن الأمـراء الممـاليك بطرابلس وحلب وحمص، وإنضم إليه منطاش، وجماعة من التركمان والعـرب. وإستولى الناصرى على دمشق وأفرجوا عن المسجونين بها. ثم إتجه الناصرى

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ١، ق ٣، ص٩٠٩، إبن تغرى بـردى، النجـوم الزاهـرة، جـ٨، ص١٣٣.

(٢) محمد كرد على، خطط الشام، جـ٢، ص١٤.

(٣) يوسف دريان، نبذة تاريخية، ص١١.

الى القاهرة، وتمكن من السيطرة على القلعة، ونصبوا أمير حاج بن الأشرف شعبان ولقبوه المنصور، وإعتقل السلطان برقوق بالكرك(١).

ثم إختلف منطاش مع الناصرى فقبض منطاش على الناصرى وإستولى هو على السلطنة، وجدد البيعة لأمير حاج المنصور. وأثناء ذلك تمكن الظاهر برقوق من الهرب من الكرك وإتجه الى الشام ودخل دمشق وإنضم الى برقوق جماعة من بنى عقبة وغيرهم (٢).

فقد إستعان منطاش فى حربه ضد برقوق بأهل كسروان وغيرهم من قبائل الشام، وإنتصر منطاش. ثم تغلب عليه برقوق وهزم منطاش وإعتقل.

وبعد أن عاد الظاهر برقوق الى السلطنة وجه عساكر الى تركمان كسروان، وقاموا بطردهم من أماكنهم فى جبال لبنان.

وقد ذكر يوسف الديس رئيس اساقفة بيروت المارونى الكسروانيين الموارنة بجبال لبنان أنهم غير تركمان كسروان الذين طردهم المصريون من جبل لبنان بعد إشتراكهم فى ثورة منطاش التى إنتهت بهزيمته وعودة الشام الى مصر عام ١٣٨٨/٧٩١(٣).

أما عن السريان، الذين كانوا يسكنون فى جبل لبنان، فقد ذكرهم إبن خلدون فى العبر فقال أنهم (قد اندرسوا وإنقطع أثرهم) ثم إستدرك فذكر أنه يقال أن السريانيين من أهل تلك الأجيال(٤).

(١) إبن خلدون، العبر، جـ٥، ص١٠٣٩.

(٢) المصدر نفسه

(٣) يوسف الدبس، الجامع المفصل، ص ٢٣٦.

(٤) ابن خلدون، العبر، مجلد ٢، ص٨٢.

إلا أن القلقشندى ذكر أن السريان من بنى سوريان ولم ينسبهم إلى قبيلة(١).

وقد ذكر يوسف دربان، الذى كان نائب البطريرك المارونى فى مصر، السريان فقال أن السريان هم الموارنة الذين كانوا يسكنون جبل لبنان، وهم الذين وصفهم أسقف صور بأنهم المؤمنين السريان الذين قدموا خدماتهم للفرنج عندما زحفوا على القدس بعد فتح أنطاكية. وذكر أن شهادة أسقف صور تثبت أن هؤلاء المؤمنين السريان أنما هم الموارنة، لأن النواحى التى عددها هذا الأسقف والمؤرخ الجليل لم يكن يسكنها تلك الأيام غيرهم ممن يمكن دعوتهم بهذا الإسم(٢).

ونحن إذا تتبعنا تدخلهم فى سياسة المماليك فإننا نجدها غير ثابتة فى إتجاه واحد، فقد كانوا منقسمين فى سياستهم مع المماليك فبعضهم كان بحكم سكناهم فى الشام يقبل الموادعة والتعاون وبعضهم بحكم عدائه وبغضه، كان يقف دائما موقفا معاديا للمماليك.

وإزاء ماقلناه فإن الموارنة كانوا جزءا من أهل الشام، ومعادين للماليك فى معظم الأحوال، لأنهم كانوا دائما فى نصرة الصليبيين بحكم الدين.

وكان ثمة أرمن فى أملاك المسلمين يخدمون الخلفاء. ولكنهم أسلموا، مثل الأمير على الأرمنى الذى توفى عام ٨٦٣/٢٥٠ بعد توليته على أرمنية وأذربيجان بوقت قصير. وكان الأرمن يوجدون فى مصر بجيش الطولونيين.

وفى منتصف القرن العاشر الميلادى، قام الأرمن الذين هاجروا إلى الأراضى البيزنطية بتعمير قيليقية وشمالى الشام بعد غزو الروم لها، وهاجر منها الأهالى من المسلمين.

---

(١) القلقشندى، نهارية الأرب، ص ٢٦.
(٢) يوسف دربان، نبذة تاريخية، ص٤٠.

وقد تمكن أساقفة الأرمن فى أنطاكية وطروس فى عهد خاجيك الأول (٣٦٢-٣٨٢/٩٧٢-٩٩٢) من تحسين أوضاع الأرمن بتلك الأراضى، ثم عمد بعض ولاة هذه المدن من الضباط الأرمن(١) إلى تكوين إمارات أرمينية خلال الغزو السلجوقى لآسيا الصغرى.

وقد تعاون الأرمن مع الفاطميين فى مصر وكان بدر الجمالى الأرمنى الأصل قائدا للجيش المصرى فى الشام، ثم صار وزير للفاطميين (٤٦٦-٤٨٧/١٠٧٣-١٠٩٤).ثم كثر عدد الأرمن فى مصر بتشجيع من بدر الجمالى، ومثل بهرام الأرمنى الذى ولى منصب الوزارة الفاطمية وظل نصرانيا، وقد لقى هؤلاء الأرمن رعاية من بعض الخلفاء الفاطميين(٢).

وكان بعض وزراء التفويض من الأرمن. وقد لعب هؤلاء الوزراء الأرمن دورا أساسيا كبيرا فى عصر الدولة الفاطمية(٣).

وقد تمكن الأتراك السلاجقة بعد معركة ملاذكرد عام ٤٦٤/١٠٧١ من إنهاء سيطرة البيزنطيين على أرمينية واحلال التركمان، وإستقرارهم فى أرمينية وكبادوكيا، ومعظم مناطق آسيا الصغرى.

---

(١) وردت كلمة (الضباط الأرمن) الذين قاموا بتكوين إمارات أرمينية مستغلين الإضطرابات التى حدثت فى بلادهم فى عصر بنى سلجوق فى دائرة المعارف الإسلامية (مجلد ١٧، ص٧٧). ومن مصادرهم M canard, Aleo, n visir chetien a l' epoque Fatimitde.

(٢) ابن خلدون، العبر، المجلد ٤، ص١٥٤، ط. بيروت سنة ١٩٦٨،دائرة المعارف الإسلامية، مجلد٣، مادة أرمينية.

(٣) محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، جـ١، ص٧٠.

ثم ظهر الصليبيون وفى عهدهم تمكن الأرمن بزعامة ليو الكبير ملك الأرمن من إجتذاب عددا عظيما من الأرمن وظهرت قيليقية عام ١١٩٨/٥٩٥ حتى أطلق عليها أرمينية الصغرى. وفى عهد أحد الحكام الأرمن هو الأمير مله الذى دخل الإسلام مضطرا بسبب صراع الأحزاب المناوئة له، وتحول عدد كبير من الأرمن إلى الإسلام.

وقد بسط نور الدين حمايته على هؤلاء الأرمن(١).

ثم ضعف الأرمن وانتقل ملكهم الى سيس الأرمنية المجاورة لحلب فى شمال الشام. وظلوا يؤدون الجزية للمسلمين حتى العصر الأيوبى.

وكان مع الأرمن من الثغور المصيصة وأردن، وطرسوس، أستولوا عليها من الروم وأبقاهم عليها صلاح الدين.

ثم شقوا عصا الطاعة وقطعوا ماكانوا يؤدونه من المال، وغدروا بالتركمان المجاورة لهم(٢). فحاربهم صلاح الدين، وأخضعهم، ورجعوا الى ماكانوا عليه من أداء الجزية، وحسن الطاعة.

وكان الأرمن فى شمال الشام حتى عصر سلاطين المماليك، تارة يشقون عصا الطاعة، وينضمون الى الأعداء وتارة يصيرون على الطاعة وحسن الجوار.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٣، مادة أرمينة.

(٢) كان التركمان يقيمون فى شمال حلب، منذ عهد المرادسية، ثم انتشروا فى لبنان وساحله، وكثر عددهم فى عهد الدولتين النورية والصلاحية واستعربوا وصاروا جنودا فى جيش الدولة منذ ذلك الحين. (محمد كرد على، خطط الشام، ج١، ص٦٩.

وكان مع الأرمن من البلاد قبل عام ١٠٠٩/٤٠٠ من الثغور والعواصم، إياس وأدنه والمصيصة، وطرسوس وبغراس وبهسنى والدربساك، وسيس وقلعة الروم وغيرها. ومنعوا ما كانوا يؤدونه من الجزية.

وفى العصر المملوكى فى عام ١٢٦٩/٦٦٨ حارب الظاهر بيبرس الأرمن وإنتزع منهم بغراس وبهسنى الدربساك وغيرها.

وفى عهد الأشرف خليل فى عام ١٢٧٢/٦٧١ فتح الأشراف خليل قلعة الروم، وكانت من أهل قلاعهم. وكان يقيم بها خليفة الأرمن، وسماها قلعة المسلمين(١).

وفتح محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ١٣٣٧/٧٣٨ قلعة إياس فى شمال الشام وكانت تابعة لنائب الشام المملوكى، ثم صارت الى نائب حلب المملوكى وفتح طرسوس(٢).على ساحل البحر الأبيض وهى من أملاك الأرمن.

وفى عهد الأشرف شعبان قامت حملة عسكرية بقيادة قشتمر المنصورى نائب حلب، بفتح سيس، وجميع بلاد الأرمن. وصارت بلاد الأرمن من يومئذ من البلاد الخاضعة لسلطان دولة المماليك(٣).

أما مساكن الأرمن فى الشام نفسه، فى أيام المماليك، فكانوا فى حلب وفى جبال لبنان من مقاطعة كسروان. وإشتغلوا بالتجارة والصناعة والزراعة والرعى(٤).

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١١٩، ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، الباب الثانى، فى وصف السلطنة، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ ١، ص ١٠٤.

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٤، ص١٣٤، ابن اياس، جـ ٢، ص١٩٨.

(٤) ابن فضل الله العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف،ط.القاهرة١٣١٢، ص٥٥،أنطون خانجى، مختصر تواريخ الأرمن، ص ٢٨٩، ط. القدس، ١٨٦٨.

وممن تولى من الأرمن مناصب دينية في مدينة أنطاكية، إبن العبرى (ت ١٢٨٦/٦٨٥) وكان له مكانة عالية عند السلطان الناصر بن قلاوون(١).

والخلاصة أن الأرمن سواء كانوا فى شمال الشام، أو فى داخل الشام نفسه، فإن موقفهم فى أيام المماليك إختلف عن موقفهم قبلهم وذلك لوجود أخطار على الشام، لم تكن قبل المماليك، ولاسيما أن الشام كان دائما فى ثورة على سلطة المماليك.

ثم الأقليات المسيحية، وهم بقايا الصليبيين منهم الروم الأرثوذكس، والروم والكاثوليك والبروستانت وكانوا موزعين فى أنحاء لبنان(٢).

وأما اليهود. وكانوا يعيشون فى الشام فى مدن القدس وحلب وبيروت ودمشق فهم فرق ثلاثة، هم: الربانيون والقراعون والمسامرة. ولهم رئيس يقوم على أمور الدين، لطائفته، وهى تماثل وظيفة البطرك فى النصارى.

ويليه الخزان ومهمته الخطابة والوعظ، والإرشاد، والشليحصبور، ويؤم اليهود فى الصلاة.

ولكل من الربانيين والقرائين توراة خاصة بهم. وينفرد الربانيون بشروح موضوعة لفرائض التوراة. وتفريعات على التوراة نقلوها عن النبى موسى، ويصفون ما وقع من صفة الله فى التوارة، ويذكرون لهم تأولا فى الصفات الربانية.

أما القراؤن فإنهم يقفون مع ظواهر نصوص التوراة ولايزيدون عليها فيذكرون أفعال الله على ظواهرها.

---

(١) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول.

(٢) نعوم شقير، تاريخ سيناء، جـ ٣، ص ٦٧٥، القاهرة ١٩١٦.

وهؤلاء الربانيون والقراؤون ينكرون أن طائفة السامرة التى لها توراة تختلف عن توراة الطائفتين السابقتين فى كثير من الأحوال ينكرون أن هؤلاء السامرة من اليهود.

ومن رؤساء اليهود فى مصر والشام فى العصر المملوكى، إبن الموفق بن شمويل الطبيب، الذى صدر له فى عهد المنصور قلاوون فى عام ١٢٨٥/٦٨٤ توقيع برئاسة سائر الطوائف اليهودية بمصر والشام[١].

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٢٧.

الفصل الثانى

العصبية العربية فى الشام

- العصبية عند العرب.
- موقف الاسلام من العصبية.
- أثر الاسلام فـى تكوين أمة عربية واحدة محورها الدين، تسمو على مبدأ العصبية القبلية العربية.
- ضياع مبدأ الامة منذ الحكم الأموى فى الشام.
- موقف عرب الشام من العباسيين، فى زمن قوتهم.
- موقف عرب الشام من العباسيين، فى زمن ضعفهم.
- موقف عرب الشام من البويهيين والفرس فى العراق.
- موقف عرب الشام، فى وقت الفاطميين الذين اعتمدوا على المغاربة.
- موقف عرب الشام فى زمن الصليبيين.
- موقف عرب الشام فى عصر الأيوبيين.
- موقف عرب الشام فى عصر المماليك.

وقد لعبت هذه العصبية(١) العربية القبلية ، دورا فى انقسام العرب قبل الاسلام. وقامت بينهم الحروب فى الجاهلية، ومن أشهرها حرب البسوس (يوم البسوس)(٢) وهى أعظم حروبهم لأنها دامت أربعين سنة، وقامت بين بكر وتغلب(٣). التى كانت تقيم فى

---

(١) يعرف ابن خلدون العصبية بأنها شهور التماسك والتضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم، وهى على مثل هذا النحو مصدر التكامل التى تربط أفراد القبيلة الواحدة (ابن خلدون، المقدمة، الباب الثانى، فصل٨)، الزمخشرى أساس البلاغة، مادة عصبية، ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية عصورالجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين، ص٤٩، القاهرة ١٩٥٦، عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الاسلام حتى سقوط الدولة الأموية، ص١٧، اسكندرية ١٩٧٤، وأنظر على مظهر فى العصبية عند العربية.

(٢) سميت الحروب بين قبائل العرب بأيام العرب لان العرب كانوا يتحاربون فى النهار فقط.

(٣) وكان سبب حرب البسوس أن ناقه كانت للبسوس - خالة جساس - قد كسرت بيضة حمام في حمى كان قد أجاره كليب بن وائل فأصاب كليب ضرع الناقة بسهم فقتل جساس كليب. فقامت الحرب بين القبيلتين بكر وتغلب ودامت أربعين سنة (القلقشندى ، نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، ص٤٥٧). وأما كليب فهو الذي تقول فيه العرب " أعز من كليب بن وائل " وبمقتله هاجت بكر وتغلب (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص٦٢، تحقيق أحمد شاكر ، القاهرة١٣٦٤ هـ) وقامت بين بكر وتغلب أيضا حروب ثلاثة عرفت باسم (يوم الحنو) و(يوم واردات) و(يوم التحالق) وقد عرف يوم التحالق بهذا الاسم لأن أحد الفريقين المتحاربين حلقوا رؤوسهم لتكون علامة لهم. ومثل الحروب التى قامت بين الأوس والخزرج منها حرب عرفت بيوم بعاث وحرب عرفت باسم (يوم قباء).

ديار ربيعة من بلادالجزيرة المجاورة للشام وكانت على علاقـة بقبـائل الشـام(١). وقد ظل هذا الانقسام العربـى -المظهر للعصبيـة- بعد ذلك مصطبغا بصفات عديدة وأسماء مترادفة مثل القيسية واليمنية ، نسبة الى أشهر قبائل العرب حيث الأولى مركزها الحجـاز وهـم العرب المستعربه. والثانيـة جنوب الحجاز وهـم العرب العاربه.

وأما أسباب هذا الانقسـام بين القيسية واليمنية، فـان أهل اليمن كـانوا يدعـون أنهم أشرف وأفضل من سكان الحجـاز. والحجـازيون ينكرون ذلك، ويدلون بأفضليتهم عليهم مما يبين التعصب الأعمـى للجماعـة، بحيث ظهر من مقاصد شعرهم ما يعرف بالمفاخرة والمناظرة. فتمادوا في المنـاظرة والمفـاخرة حتى أدى ذلك الي المشاحنة والاشتباك. فوشـجت النعرة العصبيـة وتحـزب كل قبيل الى أهلـه، فاشـتعلت الحـرب الأهليـة وتنبهت قرائح الشـعراء، ففتحـوا بابـا خاصا لمديح قومهم وذم خصومهم(٢).

ثم جاء الاسلام وهم أحزاب متطاحنة، فحاول أن ينسيهم هـذا التطـاحن. اذ الاسلام جاء يدعو لنبذ العصبيـة القبليـة وتكويـن أمـة عربيـة واحـدة محورهـا الدين لا تحفل بالمآرب الفردية أو العصبية القبلية وانما يوجد ترابـط بين أفـراد الأمة، ولذلك فقد آخى الرسول في المدينـة بين المهـاجرين والأنصـار، فقـال (تآخوا فى الله أخوين أخوين) (٣). وهكذا جمع الاسلام بين العرب وجعل منهم أمة واحدة.

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية، ابراهيم خورشيد، مجلد٥، ص ٣٢٦.

(٢) المسعودى ، مروج الذهب، جـ٣، ص١٥٩.

(٣) ابراهيم الابيارى، المختار من سيرة ابن هشام، ط. الشعب ثالثة، ص٥٥، وأنظر:
Encyclopedie de L'Islam. A-D M th. Houstma. R.Basset. t.W. Arnold et R Hartman 1913. Paris. Ansap.

وبالرغم من جهود الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الربط بين العنصرين من المهاجرين والأنصار بالتآخى فيما بينهم، فقد كادت تظهر العصبية من جديد بخطرها الشديد فى مجتمع المدينة فى عام ٦٢٧/٦[١] وبلغ الرسول الخبر، فترفق وأخذ يسوس الأمر حتى استقامت الأحوال وهدأت النفوس من جديد.

ولما تمكن مبدأ الأمة من نفوس العرب حينما عاد اليها رشدها بعد القضاء على حركة الارتداد وسيرهم وراء زعيم واحد وهو أبو بكر، الذى تمكن بهذا المبدأ من تخليص العرب الذين كانوا تحت الاحتلال الرومى، والعرب الذين كانوا تحت الاحتلال الفارسى.

---

(١) وذلك عندما تزاحم اثنان احدهما من المهاجرين من قبيلة بني غفار والآخر حليف بنى عوف من قبيلة الخزرج على بئر ماء يريد كل واحد منهما أن يسبق أحدهما الآخر فى الحصول على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهنى : يامعشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يامعشر المهاجرين (ابراهيم الابيارى، المختار من سيرة ابن هشام،ص٩٧). وحاول عبد الله بن أبى وكان رئيس قبائل الأوس والخزرج ودخل الاسلام كارها لأنه كان سيتوج ملكا على المدينة قبل قدوم المسلمين اليها (وكان رأس المنافقين واليه يجتمعون) حاول ابن أبي استغلال هذه الحادثة ونادى فى قومه بطرد المسلمين من المدينة وأشعل نار العصبية بين المسلمين، ولكنه فشل فى محاولته (المختار من سيرة ابن هشام، ص٦٠،٩٧).

ثم كانت الفتوحات الكبرى.ولكن بدأت النكسة بعد ذلك بفتنة عثمان مما أعاد العصبية التى تزعمها الأمويون فى الشام، لأن معاوية كان واليا من قبل الخلافة على الشام ، فأراد أن يأخذ بثأر عثمان، فحرض قبيلة كلب ضد معارضيه ممن اتهمهم بدم عثمان. وان كان بسبب دهائه تمكن من أن يستميل غيرها من القبائل غير اليمنية فى حربه ضد أعدائه ممن اتهمهم بمقتل عثمان فمن ذلك قبيلة تغلب فقد مالأت عليا أول الأمر، ثم ما لبثت أن انضمت للأمويين وحاربت في صف معاوية(١). فكانت الفتنة الكبرى هى عودة مبكرة للعصبية والقضاء على مبدأ الأمة الواحدة الذى سعى الاسلام الى قيامه. ومن هنا بقيت العصبية أمدا طويلا. ولم يكن عجيبا أن تعود الى الاشتعال بين الحين والحين.

وقد اتخذ المسلمون من عرب الشام موقفا مميزا من غيرهم من الشاميين غير العرب بالنسبة لدفع الجزية وهى ضريبة تفرض على أهل الذمة(٢). فمثلا قبيلة تغلب(٣).من عرب الشام من العدنانية عرب الشمال، عقد لهم الرسول صلحا (أبقوا فيه على دينهم على ألا ينصروا أولادهم(٤).

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية، ابراهيم خورشيد وآخرين، مجلد٥،ص٣٣١، مادة تغلب.

(٢) ابن خلدون، العبر، مجلد٢،ص٩٥٤، دائرة المعارف الأسلامية مجلد٥، ص٣٢٩.

(٣) وتغلب هذه هى تغلب وائل من العدنانية، عرب الشمال وهى غير تغلب حلوان اليمنية، تغلب التى تسمى تغلب العليا تمييزا لها عن القبيلة لأولى (القلقشندى نهاية الارب، ص١٨٧، دائرة المعارف الاسلامية، مجلد٥، ص٣٢٥، مادة تغلب.

(٤) ابن خلدون، العبر، مجلد٢، ص٩٥٤، دائرة المعارف الاسلامية، ابراهيم خورشيد، مجلد٥٤، ص٣٢٩.

وفى عهد الخليفة عمر رفع عنهم إسم الجزية أنفة مهم، وصـارت عليهم الصدقة مضاعفة(١).

وكان من أعظم أسباب نجاح العرب فى فتح الشام، أنهم نبذوا العصبيـة القبلية فيما بينهم، فالخليفة ابو بكر الصديق، كان يعين بعض فرسان العرب الشجعان من قبيلة ما ويجعلهم تحت راية قائد من قبيلة أخرى حسبما تقتضيه ضرورة تنظيم الجيوش العربية الفاتحة(٢).

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الواقدى فى كتابه (فتـوح الشـام) مـن أن الخليفـة أبو بكر دعا ربيعة بن عامر وجعله جنديا فى سرية يزيد بـن أبـى سفيان، وقـال ليزيد (هذا ربيعة بن عامر من ذوى العـلا والمفـاخر، وقد علمت صولتـه، وقد ضممته إليك وأمرتك عليه، فأجعله فى مقدمتـك، شاوره فـى أمـرك، ولا تخالفـه فقال يزيد، حبا وكرامة(٣). وقد كتب لهذه السرية النصر على الروم فى معاركهم بأرض الشام فى عهد ابى بكر(٤).

كذلك كان بعض فرسان جيش المسلمين من أهل الشام أنفسهم وانضمـوا الى المسلمين وحاربوا فى صفوفهم ضد قومهم وضد الروم. وذلك مثل، مصعب بن محارب اليشكرى، وكان قائدا فى جيش المسلمين فى فتـوح الشـام، فـى عهـد أبى بكر (حارب على رأس ٥٠٠ فارس من قومه ومن أهـل اليمـن، وهـو الـذى أحرز النصر على بلده العواصم وعلى قنسرين)(٥).

---

(١) ابن خلدون، العبر، مجلد٢، ص٩٥٤.

(٢) الواقدى، فتوح الشام، ص٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٤.

(٤) نفسه، ص٦٥.

(٥) نفسه.

ومثل عبد الله ابن المعتم الذى نجح بمساعدة العرب النصارى فى تدبير مكيدة استولى بها على معسكر الروم وحصنين من حصونهم فى عام ٦٣٧/١٦في شمال الشام. حدث ذلك بعد اعتناقهم الاسلام ودخولهم فيه بجهود عبد الله بن المعتم الذى دخل معهم فى مفاوضة للدخول فى الاسلام خلال القتال ونجح في ذلك(١).

ومن هنا يتبين أثر الاسلام فى تكوين أمة عربية واحدة محورها الدين، ولا تحفل بالمآرب الفردية أو العصبية القبلية.

وبالاضافة الى ذلك، فقد كانت القبائل العربية والعشائر فى ظل الحكم الأموي فى الشام بما فيها اليمنية والقيسية تكون جيش الشام(٢). ولذلك فان التنافس على المراكز القيادية فى الدولة الأموية بين القبائل العربية فى الشام كان له أكبر الأثر والخطورة على الدولة الأموية.

وقد زاد الخلفاء الأمويون من حدة هذا التنافس، اذ أن سياستهم اعتمدت فى غالب الأحيان على ضرب القبائل بعضها ببعض فى الشام(٣). ليجعلوا أنفسهم فوقها. وحتى ولاتهم كانوا يجعلون مصالح الدولة فوق كل شئ ، حتى

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ٥، مادة تغلب، ص٣٣٠، ومن مصادرهم:(الطبرى، جـ١،ص٢٤٧٤-٢٤٧٧).

(٢) الواقدى، فتوح الشام، ص٥، ط. المطبعة العثمانية ١٣٠٤.

(٣) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص٣٤٥،ط.القاهرة١٩٥٨، ترجمة عبد الهادى أبوريدة

ولو كان ذلك لا يتوافق على مبدأ الأمة ويتعارض مع تعاليم الدين(١). فلم يكن الحكام الأمويون وولاتهم يهتمون بالحياة الدينية أو الاجتماعية التى تتناسب مع السنة. ومن أمثلة ذلك أن معاوية مؤسس الدولة الأموية هو أول من (جعل هذا الأمرملكا)(٢). وورثة لأبنائه من بعده.

وكانت تقوم بادارة الدولة كل قبيلة تأتى مع كل خليفة قادم لتولى الخلافة، ويقع العداء المرير بين القبيلة المخلوعة والقبيلة الحاكمة. ونتيجة لهذه السياسة عادت العصبية وقويت بشدة فى الشام. ومن أمثلة ذلك، معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية، ومن قبل والى الشام فى أيام الراشدين.

فقد كان الخلاف فى بلاد الشام بين قبائل قيس عرب الشمال وقبائل كلب عرب الجنوب، وكان سببه النزاع حول الخلافة. وكان وسط الشام لقبيلة كلب وكان معاوية يقيم فى دمشق المنطقة الكلبية، وتزوج معاوية امرأة هى ميسون بنت بحدل وهى من أشراف كلب، وجعل ابنها يزيد بن معاوية وليا للعهد(٣). وقد زادت حدة الخصومة بين القيسية والكلبية بعد مصاهرة معاوية لقبيلة كلب. وكان أن أخذت قيس جانب أعداء الدولة الأموية، والخارجين عليها. بينما حافظت كلب على ولائها للأمويين. فكان عداء قيس لبنى أمية بسبب ما كان لكلب من شأن بسبب يزيد وابنه معاوية لأن أم كل منهما كانت من قبيلة كلب(٤).

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٠، ص٣٠٨ ، وأنظر:

GoldziherEtudes sur la trafition Islqmiaque Extraites du tome II des.P. 35-377-39.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٠ ،ص٣٠٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٤ ،ص٥٣، فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص١٦٧.

(٤) المصدر نفسه.

وأيضا اعتماد الخليفة يزيد بن الوليد على اليمنية لأنهم كانوا أخواله وخصوصا كلب، ولم يكن أحد من قيس يغشاه، أو يقف ببابه(١). فظهرت الخلافات القبلية.

ومن أمثلة أيضا ما ذكره الأوزاعى (ت١٥٧/٧٧٣) امام أهل الشام عن صحابة النبى الذين انتشروا فى أنحاء الدولة الاسلامية يعملون على نشر حقيقة جوهر الدين ويعطون تأثيرهم الحسن والقدوة فى المجتمعات الاسلامية التى كانت حديثة عهد بالاسلام. وكانوا على عكس الولاه الأمويين الذين كانوا يتدخلون ليفرضوا آراءهم على هؤلاء الصحابة ويمنعوهم من حرية الكلام أحيانا(٢)، فحين كان الاوزاعى باليمامة بشرق مكة لقى أحد ولاة بنى أمية وكان يلزم أصحاب رسول الله عليه الصلام والسلام هؤلاء أن يسموا المسئ منافقا، وقد وافقوه على قوله اضطرارا ، مما يبين النقيضين بين هؤلاء الصحابة وبين الولاة الأمويين(٣).

---

(١) الطبرى، تاريخ الرسل، جـ٧، ص٢٧١.

(٢) Goldziher. Etudes sur la tradition Islamique Extraires du tome II des P.35-37-39.

(٣) قابل الأوزاعي، بعد ذلك عطاء بن أبى رباح - وهو تابعى جليل - (ت١١٤/٧٣٢) وناقشه فى ذلك، فقال له عطاء (ما أرى بذلك بأسا، يقول الله تعالى الا أن تتقوا منهم تقاه). (ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٠ ،ص٣٠٨) والآية نصها : (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شئ ، الا أن تتقوا منهم تقاة، ويحذركم الله نفسه والى الله المصير). (٣-٢٨).

ولعل المظهر القوى لعودة العصبية بشدة الى الشام فى أيام حكم الخلافة الأموية، موقعة مرج راهط، بنواحى دمشق(١). اجتمعت غسان والسكاسك والسكون وتنوخ وكلب وهم من قضاعة اليمنية عرب الجنوب لتمثل حزب الحكومة. بينما أخذت سليم وعامر وذبيان، وهم عرب القيسية عرب الشمال جانب المعارضة. وبدأ القتال بين الفريقين في المحرم عام ٦٥/٦٨٤ واستمر فى مرج راهط عشرين يوما. ثم هزمت قيس(٢). وعلى الرغم من انتصار الأمويين فى مرج راهط، الا أنها أوجدت للأمويين من المشاكل الداخلية التى اشتدت بين القبائل مما أعاقها عن مواجهة الروم عدو العرب الأول آنذاك الذين انتهزوا فترات الصراع الداخلى فى الدولة الأموية.

وحتى فى عداوتهم للروم ظهرت العصبية العربية فى الشام لتشتت قواهم أمام عدوهم، فقد لعبت العصبية القبلية فى الشام دورا بلغ تأثيره عليهم وهم فى مهمة أنهم كانوا من القيسية عرب الشمال، واليمنية عرب الجنوب، وكانوا يشكلون الميمنة والميسرة لجيش الشام، وكانوا فى مهمة حربية الى ثغور الشام لتأديب الروم. فقام ثابت بن نعيم زعيم اليمنية بتحريض اليمنية عن الانفصال عن القيسية والعودة الى أهلهم. الا أن مروان أخر خلفائهم تغلب عليهم وفرض عليهم طاعته(٣).

---

(١) ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٥، ص١٠٥.

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل، جـ٥، ص٥٣٣، ٥٣٧، ٥٣٨.

(٣) الطبرى، تاريخ الرسل، جـ٧، ص٢٥٦.

وعلى الرغم من أن الشام كله كان قد بايع لمروان بن محمد بالخلافة الا أن اليمنية بزعامة ثابت بـن نعيم الجذامى ثـاروا عليه فحـارب مـروان اليمنيـة (حتى استقامت له الشام كلها)(١).

وقد استمرت العصبية القبلية التى كانت سائدة فـى العصـر الأمـوى، فـى العصر العباسى أيضا متمثلة فى نزاعات مستمرة. ولم تكن الدولـة العباسـية فـى أول أمرها تعتمد على الفرس كلية، وانما تعتمد على العـرب، فقد ذكـر الشـاعر مروان بن أبى حفصة فى قصيدة له أن جيش بنى العباس كان يجمع فى صفوفه عربا وعجم، فمن ذلك قولـه:

كتائب لبنى العباس قد عرفت   ما ألف الفضل منها العجم والعرب(٢)

وفي عهد الدولة العباسية بلغ سلطان الفرس الغاية، ولم يعد نفـوذ لقيس أو ليمن. بحيث تلاشى نهائيا. وكـان لذلـك رد فعل لـدى العـرب، سـيظهر أثـره واضحا فى الشام، حيث لم يعد يعتمد العباسيون على قبائل الشـام العربيـة، ولـم يمثلوا فى الجيش العباسى.

فأهل الشام وخاصة كلب وقيس الذين ساءهم ما حدث لأسرة بنـى أميـة فى الشام، اجتمعـت كلمتهـم علـى الثـورة ضد نظـام الحكـم العباسـى، فـى عهـد الخليفـة العباسـى السـفاح(١٣٢-١٣٦/٧٥٠-٧٥٣) دفاعـا عـن مصـالحهم التـى كانت مع الأمويين حيث كانوا جعلوهم مركز خلافتهم ورجال دولتهم.

كذلك كانت تتدخل أحوال شخصية لعرب الشام فى مصادمات مع الـولاة العباسـيين، فقـد اعتـدى أحـد قـادة جيـش العباسيين الـذى قـدم الــى بــالس مــن

---

(١) نفسه، ص٣١٤، ابن الأثير، الكامل، جـ٤ ،ص٢٨٦.

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل، جـ٨، ص٢٥٧.

نواحى حلب على بعض أفراد البيت الحاكم من أسرة مسلمة بن عبد الملك، وكانت تقيم فى بالس، فشكوا الى أبى الورد مجزأة الذى قتل القائد وأعلن الثورة على العباسيين(١)، فثارت كلب فى تدمر، وقيس فى قنسرين وأهل الجولان والبلقاء وحمص وفى دمشق.

ثم ظهرت العصبية مرة أخرى فى جيش الشام أثناء الحرب بين مروان بن محمد وبنى العباس فى معركة الزاب الأعلى(٢).وكانت كفة مروان راجحة فى البداية، ولكن الهزيمة لحقته عندما رفضت قيس عرب الشمال أن تقاتل دون قضاء عرب الجنوب(٣).

ولعل من أسباب هزيمة مروان فى هذه الواقعة حيث أنسحب قيس لتغلب العصبية وإهتمام كل قبيلة بمنافسيها، بحيث أن الدولة لم تعد تهمهم.

وقد إنتهى الأمر بخذلان قبائل الشام لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ولم ينفع مروان تعصبه للقيسية عرب الشمال فغدروا به وخذلوه(٤).

وهكذا انتهى الصراع بين كلب وقيس بسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية عام ٧٤٩/١٣٢.

---

(١) إبن خلدون ، العبر، مجلد٣، ص٣٧١.

(٢) الزاب الأعلى : بين الموصل واربل وجمع زاب زوابى (ياقوت الحموى، معجم البلدان، المجلد ٣، ط. بيروت، ١٩٥٧، ص١٢٣.

(٣) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص٥١٨.

(٤) المسعودى، مروج الذهب، ص١٧٩.

وبايعوا جميعهم – الكلبيين والقيسية، لأبى محمد عبد الله، (وقالوا هو السفيانى المنتظر)(١). إلا أن جهودهم ذهبت سدى. وقتل قائدهم السفيانى فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور (١٣٦-١٥٥/٧٥٣-٧٧١). ثم لم يلبث أن تفرقت كلمتهم مرة أخرى وظهر الإنقسام بينهم لأول حادث وقع بينهم.

ومع وجود الحكم العباسى الذى لم يرفعهم مثلما كانوا فى ظل الحكم الأموى، فإن العصبيتين لم تتحدا وإستمرا فى تصادلهما, وكانت أيضا على أساس حادث فردى، وتناسوا أنهم ينتسبون الى أمة واحدة.

ففى عام ١٧٥/٧٩١، هاجت الفتنة بالشام، بين اليمنية والقيسية، وذلك عندما قتل رجل من اليمنية رجلا من القيسية، فإجتمعوا لثأره، فقام والى دمشق بجمع كبار العشائر، ليصلحوا بينهم، ولكن استمرت الحزازات، ولم يتم الصلح إلا بعد سنين(٢).

وفى عام ١٨٠/٧٩٦ عادت العصبية بين القبائل، وتجددت الحزازات والأحقاد، واهتم الخليفة الرشيد بهذا النزاع لأنه كان لايريد للعرب أن تتمزق، وهو الخليفة العربى، ذلك ولاسيما أنه كان قد وقف موقفا خاصا من القومية الفارسية بنكبته للبرامكة. وارسل الخليفة الرشيد الى جعفر بين يحيى، وقال له (أما تخرج أنت أو أخرج أنا، فقال له حعفر، بل أقيك بنفسى(٣). ثم توجه جعفر الى الشام، وتمكن من إصلاح الأحوال وصالح بين القبائل.

---

(١) ابن خلدون، العبر، مجلد٣، ص٣٧١.

(٢) المصدر نفسه

(٣) الطبرى، تاريخ الرسل، جـ ٨، ص ٢٦٢.

وهكذا أصبح الشام بؤرة للثورات ضد الدولة العباسية. وتكرر ظهور السفيانى مرة أخرى فى محاولة بائسة لإحياء مجد الشام القديم، مما أضعف ثقة الخلفاء بالعرب. وصاروا يعتمدون على العنصر الفارسى، الذى إتخذوه جندا بخرسان وبغداد، أكثر من إعتمادهم على العنصر العربى[١] فى القضاء على الفن والثورات التى كانت تهيجها العصبيات العربية فى الشام وفى غيرها. ثم ضعف أمر العرب وأصبحوا لايتحمسون للقتال تحمس الفرس، فبلغ سلطان الفرس غايته وقويت شوكتهم[٢]. فأوقع بهم الخلفاء وصادروا أموالهم[٣].

ثم حاول العباسيون فى بغداد التخلص من نفوذ الفرس بآخرين غيرهم، فأدخلوا الأتراك، والبربر والصقالبة. فإستبد هؤلاء بالسلطة وخاصة الأتراك حتى صاروا هم أصحاب النفوذ فى الدولة العباسية[٤].

ومنذ أن بدأ يضعف الحكم العباسى، فإنه حدث شبه تقارب وإندماج ما بين العصبتين ظهر على الخصوص فى العصر العباسى الثانى (٢٣٢-٦٥٦/٨٤٧-١٢٥٨) وذلك إنه مع هذا النفوذ التركى، النفوذ الفارسى كان للنفوذ العربى، وخاصه فى الشام قوة لايستهان بها فالعرب وكانت لهم المناصب العليا فى العصر الأموى، وتقلصت فى العباس الى حد ما.

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل، جـ٨، ص٢٦٢.

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه جـ١٠، ص٢٠٩، ابن كثير، البداية والنهاية،جـ٩، ص٢٩٣، ٣٠٢، ٣١٢.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٩، ص٢٩٢،٢٩٩، محمد كرد على خطط الشام،جـ١، ص١٩٧.

ومن قبل تمكن الفرس فى عهد الدولة العباسية من الخلفاء العباسيين، وبسطوا نفوذهم فى كل ناحية وصقع، وبلغ سلطانهم الغاية.عندئـذ أحس العرب بضعف سلطانهم، فظهر شبه تقارب وإندماج بين العصبتين فى بلاد الشام. الأولى، الحمدانية(١). وكان الحمدانيون فى حلب (يرون رأى الشيعة ولذلك كثر التشيع فى شمال الشام على عهدهم)(٢). وذكر ياقوت حمص فى شمال الشام، فقال أن أكثر أهلها شيعة(٣). وذكر المقدسى أن عمان أيضا أكثر أهلها شيعة(٤). فالعرب، الذين هاجروا الى الشام والعراق فى أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) من الجزيرة العربية، من الخليج، شكلوا فى العصر العباسى قوة سياسة، كان لها عند الخلفاء شأن كبير، فقد صاروا قوة لايستهان بها فى فترة ضعف الخلافة العباسية فى بغداد. فأقام بنوحمدان – من بنى تغلب – الدولة الحمدانيه فى الموصل. (٣١٧ – ٣٩٤/٩٢٩-١٠٠٣) ثم فى حلب (٣٣-٣٩٤/٩٤٤-١٠٠٣). وأقام بنو كلاب الدولة المرادسية فى حلب (٤١٤-١٠٢٣/٤٧٢ – ١٠٧٩) وأقام بنو عقيل دولتهم فى ديار بكر والجزيرة بالعراق (٣٨٦ – ٩٩٦/٤٨٩ – ١٠٩٥)(٥).

---

(١) (بنوحمدان(بطن من بنى تغلب بن وائل من العدنانية عرب الشمال ومنهم سيف الدولة بن حمدان مؤسس الدولة الحمدانية فى شمال الشام فى حلب عام ٩٤٤/٣٣٣. (ابن خلدون، العبر،جـ٤، ص٥٠٣، القلقشندى، نهاية الأرب، ص ٢٣٧.

(٢) محمد كرد على، خطط الشام،جـ١، ص٢١٨.

(٣) ياقوت الحموى، معجم البلدان، مجلد٢، ص٣٠٤.

(٤) المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص١٧٩،ط. ثانية، ليدن ١٩٠٦.

(٥) القلقشندى، صبح العشى، جـ٤، ص ١٦٨، ١٦٩.

وتعد الدولة الحمدانية أهم هذه الدول. فقد جمعت شمل العرب فى بلاد الشام، وقاومت بهم العصبيات التركية والفارسية، واشتبكت مع هذه العصبيات وعملت على طرد النفوذ التركى والفارسى من بغداد والشام. وحاربت فى سبيل إستعادة النفوذ العربى فى الشام، وبغداد(١)، حتى أن الخليفة المتقى بالله (٣٢٩-٣٣٣/٩٤٠-٩٤٤) قلد ناصر الدولة بن حمدان عام ٣٣٠/٩٤١مرة الأمراء وخلع عليه هو وأخيه سيف الدولة بن حمدان، وتمكن ناصر الدولة بن حمدان من دخول بغداد فى عام ٣٣٠/٩٤١ فى إحتفال مهيب. إلا أن ثورة الأتراك بزعامة توزون(٢). تغلبت على ابن حمدان. واستمر الصراع بين العرب والترك، بينما عقّد صلح بين الفرس والعرب وذلك بعد تدخل سيف الدولة فى الصلح بين أخيه ناصر الدولة ومعز الدولة البويهى(٣). وهم من عنصر فارسى التى كانت سيطرت فى إيران ودقت أبواب - الحجاز وسيطرت على الخلافة العباسية وأعادت هيمنة الفرس من جديد عليها.

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٦٣.

(٢) تزعم توزون وكان رئيسا للشرطة فى بغداد، ثورة الأتراك ضد العرب وعلى رأسهم إبن حمدان، الذى تمكن من قتل ابن رائق زعيم الأتراك، فقلده الخليفة المتقى بالله امرة الأمراء، محاربة توزون فى عام ٣٣١/٩٤٢ وطارد العرب الى الموصل وتقلد توزون امرة الأمراء (أحمد أمين، ظهر الإسلام، جـ١، ص٥٧، القاهرة ط. ثالثة ١٩٥٢، على إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام العام، القاهرة ١٩٥٠، ص ٤٩٠.

(٣) ابن خلدون ، العبر، جـ٤، ص٥١٠، والبويهيون/ اسرة فارسية قوية اتخذوا لقب الملوك بدلا من أمير الأمراء السابقة وكانوا شيعة. (ماجد، ظهور خلافة الفاطمين وسقوطها، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٠١.

ولما تمكن البويهيون من بغداد، وقاومهم العرب فى بلاد الجزيرة والعراق وحاربوهم ولكن تغلب البويهيون على العرب وإمتدت سيطرتهم على دمشق عندما إستولى عليها أفتكين مولى معز الدولة إبن بويه. وأفتكين ولو أنه لم يكن فارسيا ولكنه تركى إلا أنه كان عونا للفرس فى الشام. وقطع منها الخطبة للمعز الفاطمى حيث كانت الشام مسرحا للتنافس بين الفاطميين الذين نشأوا فى المغرب ونقلوا خلافتهم الى مصر وبين الخلافة العباسية التى سيطر عليها البويهيون، وخطب لخليفة بغداد عام ٩٧٤/٣٦٤. ثم إستردها الفاطميون من البويهيين، وقبض على أفتكين وأرسل الى مصر(١).

ولعل عرب الشام بالنسبة لأفتكين كانوا عنصر تأييد بإعتبار أن أهل الشام سنة فى غالبيتهم وأن الفاطميين الذين وجدوا فى مصر كانوا يطمعون فيها فوجدوا فى أفتكين من يحميهم(٢).

ولقد إمتاز عنصر بنى حمدان بعصبيته العربية ضد الفرس والترك وضد الروم. فقد قاتل سيف الدولة بن حمدان الروم وصدهم عن بلاد الشام، وحمى الثغور حتى بلغت غزواته للروم أربعين غزوة. (ولولاه لأستولى الروم على الشام فى غفلة العباسيين)(٣). مما يدل على أن العصبية قلت بين عرب الشام وأصبحوا يتميزون ضد أعدائهم بما فيهم العدو الأكبر وهو الروم.

على أن نجاح هذه القبائل العربية فى تاسيس دولة فى شمال الشام. كان نقلة كبيرة فى حياة تلك القبائل وتجربة رائدة فى تاريخها.

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٦٣.

(٢) ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، القاهرة ١٩٦٨، ص١٢٤.

(٣) أحمد أمين، ظهر الإسلام، جـ١، ص٥٧، ٦٠ط. ثالثة، القاهرة ١٩٥٢.

كما كانت تحركات تلك القبائل العربية فى الشام بقيادة ناصر الدولة بن حمدان وأخيه سيف الدولة تتم بتأييد من الخليفة العباسى المتقى بالله الذى أعجب بشجاعتهما وتمكنهما من القضاء على معارضيه مثل ابن رائق زعيم الأتراك(١)، الذى بعثه الخليفة العباسى المتقى بالله لينقذ الشام ومصر من الأخشيد محمد بن طغج، فعصا ابن رائق الشام. وحاول أن يقيم لنفسه دولة بها. فحاربه الحمدانيون وقتلوه عام ٣٣٠/٩٤١. واستولى سيف الدولة على حلب عام ٣٣٣/٩٤٤(٢).

وأقام الخطبة للخليفة العباسى المستكفى بالله (٣٣٣ - ٣٣٤/٩٤ - ٩٤٩)، ولأخيه ناصر الدولة أمير الموصل ولنفسه. (فخلع المستكفى على سيف الدولة)(٣).

وكانت تحركات تلك القبائل العربية فى أنحاء الشام، واصطدامها بالسلطات المحلية، مثل ابن رائق والأخشيد، سببا فى انزعاج هؤلاء الحكام، ولكن لم يكن فى إمكانهم، وقف هذا التحرك القبلى، الذى يتجه الى التجمع الوحدوى، منذ بدأ سيف الدولة يعمل على ضم القبائل العربية فى الشام الى

---

(١) كان ابن رائق زعيم الأتراك يشغل منصب إمير الجيش وأمير الأمراء. كانت بيده جميع أمور الدولة وذلك فى عهد الخليفة العباسى الراضى(٣٢٢-٣٢٩/٩٣٣-٩٤٠). Canard, Sayf Aldaula, Alger, 1934, p.9.، أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ط. القاهرة ١٩٦٦، ص٣٨١.

(٢) محمد كرد على، خطط الشام، جـ ١، ص ٢١٦.

(٣) المصدر نفسه.

صفه، واستطاع جذب كثير من بطون القبائل العربية وعشائرها من بني عقيل(١).

وبني نمير(٢)،وبنى كلب(٣)،وبنى كلاب(٤). وكانوا جميعهم كالرعايا لبنى حمدان وجنودا لهم فى الحروب(٥). حتى صار للعرب كيانهم السياسى وطابعهم العربى المتميز ازاء العناصر التركية الأخرى مثل الأخشيديين. وواصل سيف الدولة حروبه ضد الأخشيديين حتى انتهى الى صلح معهم تقرر فيه لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية، وكان من نتائج هذا الصلح أن ساد الصفاء بين الحمدانيين والأخشيديين، وهدأت الفتنة واستقامت الطرق(٦).

---

(١) بنى عقيل: وهم من قبائل قيس عرب الشمال، وأصلهم من البحرين، خرجوا منها الى العراق وملكوا الكوفة والجزيرة والموصل بالعراق وحلب فى شمال الشام. ثم انتزعها منهم السلاجقة عام ١٠٨٤/٤٧٧. (القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٤،ص١٦٩، جـ١، ص٣٤١).

(٢) فى حلب، (بنى نمير: وهم من قبائل قيس عرب الشمال، وكانت منازلهم بنجد، ثم رحلوا الى الجزيرة الفراتية ثم رحلوا منها الى الشام وانضموا الى الحمدانيين يحاربون فى صفوفهم. (عمر كحالة، معجم قبائل العرب، جـ ٣، ص١١٩٥).

(٣) بنى كلب : وهم بنو كلب بن وبرة وهم بطن من قضاعة عرب الجنوب، وكانوا ينزلون فى الجاهلية دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام، وشيرز وحلب.(القلقشندى صبح الأعشى، جـ ١، ص٣١٦، كحالة، معجم قبائل العرب، جـ ٣، ص٩٩١).

(٤) بنى كلاب: وقد كان بنو كلاب فى جهات المدينة وفدك والعوالي ثم انتقلوا الى الشام، أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وملكوا حلب ونواحيها، وكثير من مدن الشام، منهم صالح بن مرداس مؤسس الدولة المرداسية القلقشندى، نهاية الأرب، ص٤٠٧).

(٥) ابن خلدون، العبر ، جـ ٤، ص٥٤٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ص٩٩،١١٨، Canard, Sayf Aldaula, Alger,1934,P.30.

(٦) محمد كرد على، خطط الشام، جـ ١، ص٢١٨.

وهذا الاندماج، الذى حدث بين القبائل العربية فى الشام حتى صارت لهم دولة بفضل اتحاد العصبيات العربية تحت راية بنى حمدان ابان ضعف العباسيين وحتى العصر الفاطمى. فظهر الحلف العربى بين قبائل بنى طئ وبنى كلاب، وبنى كلب، عام٤١٤/١٠٢٣. وقد تحالف أمراء هذه القبائل العربية على اقتسام البلاد الشامية فيما بينهم(١).

ولما أدرك الفاطميون خطورة هذا الحلف على ممتلكاتهم فى الشام، أعدوا جيشا كبيرا بقيادة أنوشتكين الدزبرى، عام٤٢٠/١٠٣٨، للقضاء على هذا التحالف العربى الشامى. وكان الفاطميون يعتمدون على المغاربة فى مواجهتهم لمنافسيهم بالشام(٢). وتمكنوا فعلا من الحاق الهزيمة بقبائل الشام المتحالفة.

لكن نصر بن صالح بن مرداس الذى قتل أبوه صالح بن مرداس فى المعركة عام ٤١٥/١٠٢٤ سار الى حلب وتمكن من الاستيلاء عليها واقامة الدولة المرداسية(١).وهذه هى المحاولة الثانية - بعد المحاولة الحمدانية - للقبائل الشامية ونفوذها الذى تغلغل فى بلاد الشام لعودة الحكم العربى الخالص والاستقلال الذاتى لها.

---

(١) ابن الأثير ، الكامل، جـ ٧، ص٢٤٩، ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٢٣، ٢٣٠، ابن خلدون، العبر، مجلد ٤، ص٥٨٢، ابن القلانسى،ذيل تاريخ دمشق، ص٧٤، ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، ص١٣٥، القاهرة ١٩٦٨،

(٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص٤٥، بيروت ١٩٠٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٤، ابن الأثير، الكامل، جـ٧ ص٢٤٩، ابن العديم زبدة الحلب، ص٢٢٣، ٢٣٠، ابن خلدون، العبر، مجلد /٤، ص٥٨٢، ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص١٣٥.

ولبنى مرداس دور طليعى شجاع فى الحروب التى شهدها الشام ضد الصليبيين. ففى عام ١٠٢٩/٤٢٠ خرج الروم من أنطاكية لمهاجمة حلب، وكان عليها نصر بن صالح وكان يشاركه فى الحكم أخيه ثمال بن صالح، ونزل الروم على هضبة قرب عزاز من أعمال حلب، ثم أرسلوا سرية من كبار قادة جيش الروم الى عزاز فأسرع الأميران المرداسيان للدفاع عن البلاد، واستطاعا أن ينزلا بالمهاجمين هزيمة ساحقة، وأرغما حاكم أنطاكيةعلى عقد صلح في نهاية عام ١٠٢٩/٤٢٠(١).

ثم ظهر الاتراك السلاجقة الذين حاولوا فرض نفوذهم على بلاد الشام، ومن بينها حلب المرداسية، وعلى الرغم من مسايرة بنى مرداس للسلاجقة، وذلك عندما قام جماعة منهم الى عطية بن صالح أمير بنى مرداس فى حلب عام ١٠٦٢/٤٥٤ وعرضوا عليه خدماتهم، فاستقبلهم وضمهم الى قواته وقوى بهم . ولم يلبث أن وقع الخلاف بين عطية بن صالح والسلاجقة، فلجأ السلاجقة الى أمير آخر من بنى مرداس هو محمود بن نصر الذي قام بمحاصرة حلب وملكها فى عام ١٠٦٢/٤٥٤ وبقيت حلب فى أيدى المرداسيين حتى ظهر تاج الدين تتش السلجوقى وحاول الاستيلاء على حلب عام ١٠٧٩/٤٧٢، فعاونه أهالى حلب وبعث الى مسلم بن قريش أمير الموصل ليملكوه حلب فتمكن مسلم من تملكها فى عام١٠٨٠/٤٧٣ وبقيت حلب فى أيدى المرداسيين حتى سقطت فى أيدى السلاجقة عام ١٠٨٠/٤٧٣(٢).

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ص ٢٤٢،٢٤٧،٢٤٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، جـ ٧،ق٢٦٢ ، ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٩٤،٢٩٧، ابن خلدون، العبر، جـ ٤ ، ص٥٨٦.

وفى عهد الأتابك زنكى صاحب الموصل، كان ظهور قبائل ربيعة، وهم بنو ربيعة بن حازم من بنى الجراح، وترجع أصولهم الى طئ عرب الجنوب(١). وولى ربيعة امارة عرب الشام فى عهد طغتكين السلجوقى حاكم دمشق.

ولما تولى نور الدين محمود بن زنكى حكم الشام عام ٥٤٩/١١٥٤. ووفد عليه ربيعة أكرمه نور الدين وشاد بذكره(١).

أما فى عهد السلطان صلاح الدين، فقد كان لأبناء ربيعة دور طليعى فى حروب صلاح الدين ضد صليبى الساحل فى عام ٥٨٢/١١٩٢، وقد استشهد من أمراء ربيعة فى حروب صلاح الدين ضد صليبى الساحل فى عام ٥٨٥/١١٩٢ الأمير زامل بن ربيعة والأمير حجى بن منصور بن ربيعة والأمير مطرف بن رفيع بن ربيعة. وكان إستشهادهم فى فتوح مرج عيون نواحى صيدا(٢).

ولكن الدور الحربى الكبير لقبائل العرب فى الشام، بدأ يظهر فى العصر المملوكى، الذى يعد بحق أهم الفترات الحاسمة فى تاريخ الشام لارتباطها بالأحداث العالمية التى من أهمها وأخطرها صد الزحف المغولى القادم من الشرق منذ أول معركة وأشهرها (عين جالوت ٦٤٨/١٢٥٠). ثم

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٠٣، كحالة، معجم قبائل العرب، جـ ٢، ص٤٢١.

(٢) محمد بن محمد (عماد الدين الكاتب الأصفهانى) الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص١٣٥، ط. القاهرة.

دور الهجوم،وتحقيق الإنتصارات ضد العدوان الصليبى القادم من الغرب، فى عصر الدولة المملوكية.

دور الهجوم،وتحقيق الإنتصارات ضد العدوان الصليبى القادم من الغرب، فى عصر الدولة المملوكية.

وللقبائل العربية فى الشام دور طليعى شجاع فى الحروب التى شهدها الشام ضد الصليبيين.

لقد تعرض الساحل الشامى خلال تحريره من الصليبيين، للهجوم على يد العرب فى مختلف عهود سلاطين المماليك، ونجحوا فى إنزال الهزيمة الساحقة بالصليبيين فى حصار عكا، فى عهد خليل بن قلاوون فى عام ١٢٩١/٦٩٠. وفى معركة طرابلس فى عام ١٣٦٧/٧٩٦ وفى غيرها من المعارك الحربية ضد الصليبيين حتى تم إخراج الصليبيين من جميع الساحل الشامى(١)، وقد تناولنا هذا بالتفصيل فى الثالث من هذا البحث.

والخلاصة أن العصبية القبلية عند مجئ المماليك، كانت نموذجا رائعا لاتحاد قبائل عرب الشام ونجاحها فى الإطلاع بدورها الحربى والحضارى فى بلاد الشام.

ودليلا على ماأصاب تلك القبائل العربية من تغيير، وماشهدته من الأخذ بأسباب التحول والإستجابة، لعناصر التغير المستحدثة فى بلاد الشام. فى عصر سلاطين المماليك.

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٧٨، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٩٢.

الفصل الثالث

دور القبائل العربية السياسى والحربى فى الشام

فى عصر دولة سلاطين المماليك

- موقف عرب الشام من الحكم المملوكى.
- اعتراف الحكم المملوكى بزعماء قبائل عرب الشام.
- اقطاعاتهم واستحواذهم على مناطق فى بلاد الشام.
- اشتراكهم فى الجيش المملوكى، كجند وأسلحة، فى حروبهم وحراستهم للطرق وغيرها.
- أمثلة على دورهم الحربى فى أيام المماليك.
- موقف عرب الشام من منازعات المماليك.
- دور عرب الشام، فى نهاية الحكم المملوكى.

لعب الزعماء العرب لقبائل الشام، فى عصر سلاطين المماليك دورا بارزا فى النواحى الحربية المتعلقة بغزو الشام أو الفتن، القائمة فى الشام نفسه من أهله، او نتيجة للمنازعات المملوكية. وهو دور بارز نجده بتفصيل أو باقتضاب فى كتب المؤرخين الاسلاميين، وان كان غالبا غير مسهب حتى نستطيع أن نتلمس حقائقه. وبسبب هذا الدور فقد توطدت علاقات عرب الشام بحكام الدولة المملوكية فى مصر كسلاطين. وفى الشام كنواب لهم. ونتيجة لدور امرائهم البارزين فان سلاطين المماليك كانوا يقدمون أمراء عرب الشام على غيرهم من رجالات العرب أجمعهم، فمنحوهم المراكز القيادية. فكان السلطان المملوكى يكافىء الامير العربى الشجاع المخلص له، الذى يثبت ولاءه للدولة المملوكية بأن يصدر له " تقليدا سلطانيا مثلما صدر لفضل بن عيسى بتوليته أميرا على آل فضل عام ١٣١٢/٧١٢ أو "مرسوما شريفا" مثلما صدر لجماز بن محمد بن أبى بكر بتوليه أميرا على آل على فى عهد محمد بن قلاوون فى أول ولايته لعرش السلطنة. فكانت المكاتبة السلطانية لهم هى بمثابة اعتراف من السلطان المملوكى الحاكم، بأمرة هذا الأميرالعربى على قبيلته. وبذلك تصير طاعة قبيلته واجبه له، وأن يفوضوا له أمرهم، كبر أو صغر، وان كان من واجب الامير مراعاة الامن والامان لمن هم فى طاعته.

كذلك صارت لهؤلاء الامراء العرب فى ديوان الانشاء ألقابا محدده يخاطبون بها تعظيما لقدرهم، وتقديرا لأدوارهم ومساهمتهم الفعالة فى الدفاع عن البلاد ضد الغزاة والمعتدين ومايؤدونه من ادوار سياسية. فكانت ألقاب الامراء العرب تصدر من الأبواب السلطانية على طبقتين متمايزتين. الأولى تلقب بـ " المجلس العالى" مثلما لقب مهنا بن عيسى أميرا على آل فضل فى عهد السلطان لاجين. أما الطبقة الثانية من أمراء العرب فهم على مرتبتين. الأولى

"المجلس السامى" مثلما لقب الأمير شطى بن عمر بامرة آل مرا(١) مع اضافة الياء الى لقب الأمير. والمرتبة الثانية " المجلس السامى" بغير اضافة ياء الى لقب الامير مثلما الامير نوفل بن سعيد أميرا على عرب زبيد(٢). وجميعها تصدر بمرسوم من السلطان المملوكى. وكان للامراء العرب حق مكانية السلطان والاتصال الشخصى به بغير قيود.

فقد كان بعض الامراء العرب يقومون بمهام سياسية اما من تلقاء انفسهم او بتكليف من السلطان المملوكى، فمن امثلة دورهم السياسى مشاركة الامير عيسى بن مهنا فى أحياء الخلافة واصلاح مابين الامراء والسلطان وأيضا الوساطة لدى سلاطين المماليك للافراج عن معتقل منهم أو رد بعض ممتلكات مصادرة للبعض الاخر. أو للصلح بين بعض أمراء المماليك وبين السلطان والحصول على العفو السلطانى للبعض الآخر من امراء المماليك، الذين صدرت ضدهم احكام سلطانية لسبب أو لاخر وغير ذلك.

كذلك كان بعض هؤلاء الزعماء العرب يكلفون من قبل السلطان فى بعض الاحيان، بالقبض على نائب الشام المملوكى الخارج عن طاعة السلطان فى مصر، وذلك مثل الامير موسى بن مهنا، الذى كلفه السلطان محمد بن قلاوون بالقبض على تنكز نائب الشام المملوكى فى عام ٧٤٠/١٣٤٠. كما شاركوا فى القضاء على الفتن، السياسية التى كانت تقع من قبل بعض نواب الشام من أمراء المماليك.

---

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، ج١٢، ص ١٣٠.

(٢) القلقشندى، صبح الاعشى، ص ١٢٤، ١٣٧.

وفى ظروف الحرب، كان للعرب وأمرائهم دور عسكرى. فكانوا يشاركون فى المعارك الكبرى ضد الغزاة والمعتدين، ويشكلون ميمنه الجيش المملوكى أحيانا وأحيانا الميسرة بل كانوا فى بعض المعارك يشكلون قوة الدفاع الرئيسية كما حدث فى المعارك الحربية ضد العثمانين فى شمال الشام، فى نهاية العصر المملوكى، مما دعا السلطان المملوكى لان يصدر مرسوما بنيابة حمص للقائد العربى ناصر الدين بن الحنش، الذى تصدى للعثمانين وحاربهم بتشكيل من جيش مكون من الفرسان العرب ومن أهل الشام(١).

وعلى النقيض مما تقدم عن العلاقات السياسية الطيبة التى ربطت بين الامراء العرب فى الشام وسلاطين المماليك، الا انه كان يحدث احيانا مايعكر صفو تلك العلاقات لسبب أو لاخر، فنذكر مثلا، ماحدث بين الامير زامل أمير آل على -وهى احدى قبائل الشام- والسلطان الظاهر بيبرس، من جفوة واعراض من جانب الامير زامل بن على، فعزله السلطان من الامارة وصادر اقطاعه وأصدر أمره بالقبض عليه وهو فى حلب، وبعثوا به الى القاهرة، معتقلا، وذلك بسبب اعناته واعراضه، وخروجه عن الطاعة وخلافاته مع أبناء عمومته من أمراء العرب فى الشام. الا ان السلطان سرعان ماأفرج عن الامير زامل، فأخرجه من معتقله، وأصلح مابينه وبين أبناء عمومته، ونال الحظوة لديه،حتى أنه لعب مع السلطان فى الميدان، واعاده الى امارته، ورد عليه اقطاعه. وعلى الرغم من عفو السلطان عن الامير زامل وحسن معاملته له فان هذا الامير العربى لم يلبث ان خرج عن الطاعة، من جديد، واشاع عدم الاستقرار فى البلاد وهاجم ممتلكات احد ابناء عمومته فى الشام، واعترض

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص ١٠٥٢.

طريق بعض سفراء السلطان المكلفين بمهمة رسمية خارج البلاد الشامية، واستولى على ما معهم من مستندات واتجه بها الى التتار- حكام العراق فى ذلك الحين- وحصل منهم على اقطاع له بالعراق(١). فلما علم بذلك السلطان، أخذ منه اقطاعه، ومنحه لاحد اخوة زامل. ولما أراد زامل العودة الى طاعة السلطان، بعث يلتمس العفو من السلطان فحدد له السلطان، موعدا يحضر فيه فاذا تخلف عنه، فلا عهد ولاأيمان للامير، فحضر الامير زامل الى القاهرة، وكان الميعاد المحدد له، من قبل السلطان قد انتهت مدته فقبض عليه وأعتقل بقلعة الجبل. ونحن نرجح ان من أهم أسباب افراج السلطان عن الامير زامل واعادته الى مكانته واللعب معه فى الميدان، هو الادوار البطولية التى قام بها هذا الامير فى دفاعه عن بلاد الشام ضد التتار.

مثل آخر لهذه العلاقات مع الامير زامل هذا، هو ماحدث فى معركة الرستن التى تقع بين حماة وحمص والتى وقعت فى عام ١٢٦٠/٦٥٩ حينما عاود التتار الهجوم على بلاد الشام، للانتقام من هزيمتهم فى، معركة عين جالوت: فبرز اليهم الامير زامل يقود جماعة من فرسان العرب دفعهم صاحب حماه وحمص، وواقعوا التتار على الرستن، فأفنوهم قتلا وأسرا(٢).

---

(١) ابن خلدون، العبر، المجلد٥، ص٩٤١، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٦٥، ص٥٣٥.

(٢) المقريزى، السلوك، ج١ ق٢، ص٤٤٢، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٠٤،١٠٩.

أما أسباب جفوة الامير للسلطان فنرجح انها تعود الى مقتل السلطان قطز بتدبير من بيبرس(١). وقد خرج على بيبرس أيضا عقب توليه عرش السلطنة نائب الشام سنجر الحلبى الذى كان ولاه قطز نيابة الشام. وتلقب بالملك المجاهد، واجتمع معه نواب دمشق واخرين غيرهم، ولم يشأ السلطان بيبرس ان يترك عرب الشام بغير أمير يسوسهم بعد عزل الامير زامل عن الامارة، فعين مكانه الامير عيسى بن مهنا ابن عمه على احياء جميع العرب بالشام وكلفه بالعمل على استتباب الامن فى البلاد. وقد لعب الامير عيسى بن مهنا دورا سياسيا هاما فى إحياء الخلافة العباسية فى مصر وذلك عندما حضر الى مصر مع جماعة من أمراء العرب وبصحبتهم أبو القاسم أحمد بن على الخليفة المستنصر بالله العباسى، الذى كان معتقلا فى بغداد بأمر من الخليفة المستعصم بالله العباسى، ثم تمكن من الفرار من المعتقل، وقدم الى مصر مع وفد الأمراء، العرب يتقدمهم الامير عيسى بن مهنا وقابلهم السلطان الظاهر بيبرس فى ٨رجب من عام ٦٥٩/١٢٦١. واحتفلت مصر بقدوم الخليفة العباسى ثم بويع بالخلافة(٢). ثم قام الخليفة بكتابة تقليد بالسلطنة للظاهر بيبرس على مصر

---

(١) ذكر ابن اياس فى كتابه، بدائع الزهور، أن الناس حزنوا على قطز، لانه قتل من غير موجب، وكان له فضل تعرض صفوف المسلمين ورفع هممهم لمواجهة التتار، ومحاربتهم وردهم عن البلاد بعد ان اجتاحوا الشام وأشرفوا على الدخول الى مصر.

(ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ص٨١.

(٢) المقريزى، السلوك ج١ ق٢ ، ص٤٤٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٠٩،١١٠.

والشام وديار بكر والحجاز واليمن والعراق، فى ١٧ رجب من نفس عام ١٢٦١/٦٥٦(١).

* * *

وبادىء ذى بدء، نذكر زعماء قبائل عربية فى العصر المملوكى، استمر الحكم المملوكى معترفا بزعامتهم، ويعتبرون امتدادا لزعامتهم التى امتدت الى ماقبل هذا العصر، فنذكر زعماء، من قبيلة آل ربيعة، وهم بطن من طىء عرب الجنوب القحطانية، وينسبون الى جد لهم اسمه ربيعة(٢)، وكان يعيش ابناء له فى أيام صلاح الدين، شاركوفى حروبه ضد الصليبيين فى بلاد الشام، وقد استشهدوا فى تلك الحروب(٣).

فقد أنجب ربيعة أربعة ابناء هم : فضل الذى كان له فرعان هما آل مهنا، وآل على ومرا وثابت وَدغْفل. ومن هؤلاء تفرعت فروع من آل ربيعة(٤). وهم الذين أصبح لهم دور سياسى فى العصر المملوكى معترف به.

وبالاضافة الى ذلك فانه كان من هؤلاء الذين ذكرناهم، يوجد أعيان ذوو مكانة مرموقة، وأول من ظهر فى عهد المعز أيبك أول سلطان فى دولة المماليك البحرية فى مصر، والى عهد المنصور قلاوون، زامل بن على بن

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١١١،١٢٣.

(٢) القلقشندى، نهاية الارب، ص١٠٠، عمر كحالة، معجم القبائل، ج٢، ص٤٢١، بيروت سنة ١٩٦٨.

(٣) عماد الدين الكاتب الاصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص١٥٣ط. القاهرة.

(٤) ابن خلدون، العبر، مجلد٢، ص٥٣٢، ط. لبنان ١٩٧٧.

حديثه أمير آل على(١). وأخوه أبو بكر بن على من أمراء آل على أيضا(٢). وأحمد بن حجى، أمير عربان آل مرا بالبلاد القبلية فى جنوب الشام(٣). وعيسى بن مهنا، أمير عربان آل فضل بالبلاد الشرقية والشمالية(٤). وجميعهم تولوا مناصب قيادية بين عرب الشام مثل رئيس قبيلة، او أميرا لها. فهم سادات العرب ووجوهها. نالوا المكانة العالية عند سلاطين المماليك. فمن مظاهر التكريم المملوكى لهم أنهم (طلبوا من السلطان الناصر فى المدة الثالثة من أيام حكمه فى السلطنة، بلاد أمراء حلب وحماة ودمشق، فأنعم عليهم، وعوض الامراء عنها حتى صاروا من الكثرة بحيث يخافهم، من عداهم من سائر العرب. فكانوا اذا رحلوا الى مشاتيهم أو مصائفهم تكون أموالهم من الذهب والفضة ملء رقاب الجمال(٥).

وبسبب تعاون هؤلاء الزعماء العرب مع الحكام المماليك فى بلاد الشام، نالوا الكثير من التقدير والاجلال، وكثيرا ماقدم لهم السلاطين من الهدايا والضيافة حين توجههم الى القاهرة، فى مقر السلطنة مايفوق الحصر(٦).

---

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص٢٠٣.

(٢) نفسه، ج٤، ص٢٠٣.

(٣) القلقشندى، ج٤، المقريزى، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٠، ص ٧٨٥.

(٤) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص ٢٠٥.

(٥) المقريزى، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٢٧.

(٦) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص٢٠٥.

وذكر القلقشندى، انه كانت توجد ميزانية ثابتة للامراء العرب للانفاق عليهم فى مناسبات ضيافتهم فى مصر(١).

وذكر القلقشندى أيضا أن احد الوفود العربية الشامية التى نزلت دار الضيافة بمصر فى عهد المعز أيبك بلغ ماأنفق عليها ستة وثلاثون ألف دينار(٢).

وفى عهد الظاهر بيبرس وفد عليه جماعة من آل ربيعه وغيرهم من عرب الشام (فحصل لهم من الضيافة فى المدة اليسيرة اكثر من هذا المقدار)(٣).

ولاشك أن نظرة الحكام المماليك الى عرب الشام قد اختلفت عن نظرتهم الى عرب مصر اختلافا كبيرا(٤). لان عرب الشام اتخذت موقفا ايجابيا تجاه دولة سلاطين المماليك منذ أول لحظة لظهورهم فى بلاد الشام وتعاونوا معهم، وذلك لضعف القوى الأيوبية، امام التهديد الخارجى لبلاد الشام، ومواجهة قوى الجيش المملوكى، للعدوان الخارجى ودحره. ولم يتردد، زعماء قبائل العرب فى الشام فى تشكيل قوة عربية ضاربة انضمت الى صفوف الجيش المملوكى للدفاع عن بلاد الشام.

واما عرب مصر فكانوا يرون أنهم أحق بالحكم من المماليك، لان المماليك أرقاء مجلوبين خرجوا على الدولة الايوبية، وهم عرب احرار حاربوا

---

(١) القلقشندى، نهاية الارب للقلقشندى، ص٢٠٧.

(٢) نهاية الارب للقلقشندى، ص١٠٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) راجع ماورد فى هذا الشأن فى الرسالة المقدمه من محمود محمد السيد للحصول على درجة الماجستير، وعنوانها (تاريخ القبائل العربية فى مصر فى عهد الدولتين الايوبية والمملوكية) جامعة الاسكندرية، س٢١٠٠.

فـى صفـوف الايوبييـن. ولذلـك تعـددت ثـورات العـرب فـى مصـر ضـد الحكـم المملوكى، فيما عدا الفترات الحرجة من تاريخ مصر والشام. فقد كـان العـرب فى مصر يتقدمون فرسانا ورجالة ويشـكلون قـوة دفاعيـة مـع الجيش المملوكـى متناسين خلافاتهم فى سبيل صد الخطر الخارجى ومواجهة العدو صفا واحدا(١).

* * *

كذلـك مـن مظـاهر الاجـلال لزعمـاء عـرب الشـام، اقطـاعهم، فقـد كـان سلاطين المماليك يقطعون بعض زعمائهم، مدنـا بأكملهـا، مثلمـا اقطعـت سـلمية بشمال الشام، للأمير عيسى بن مهنا، من قبيلة آل فضل، من قبائل الشـام(٢)، بـل انـه فـى أواخـر الدولـة المملوكيـة حظـى بعـض الأمـراء العـرب بوظيفـة نـائب للسلطان فى المدينة مثلمـا حـدث للسـلطان طومـان بـاى عندمـا أصـدر مرسـوما للامير ناصر الدين بن الحنش أمير عرب الشام. بنابة حمص فـى رمضـان عـام ٩٢٢/اكتوبر ١٥١٦(٣).

وعلى العكس مما كان يوجد فى الشام من اقطاع كبير للعـرب وولايتهـم للمناصب السياسية الكبرى حتـى صـاروا نوابـا للسـلطان، فـى بـلاد الشـام. فـان مصر لم يكن يوجد بها اقطاع بالصورة التى كان عليها للعرب فى بلاد الشـــام،

---

(١) راجع ماورد فى هذا الشأن فى الرسالة المقدمـه مـن محمـود محمـد السـيد للحصـول علـى درجـة الماجستير، وعنوانهـا (تـاريخ القبـائل العربيـة فـى مصـر فـى عهـد الدولتيـن الايوبية والمملوكية) جامعة الاسكندرية، س١٠٠-٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٢٠، ابن خلدون، العبر، ج٥، ص٨٢٠، ابن تغـرى بـردى، النجـوم الزاهـرة، ج٧، ص٣٠٣، ٣٦٣، الحلبـى، أعـلاه النبـلاء، ص٢٩٤.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص١٠٥٢.

وانما هى غالباالاراضى (السباخ) الغير صالحة للزراعة وتمنح اقطاعا للعرب، ثم يقومون باستصلاحها حتى تصير صالحة للزراعة، أو يجعلوها لرعى مواشيهم وابلهم، وعادة ماتكون فى حدود بضع مئات من الافدنة، وهى غالبا فى اقليم الصعيد من جنوب مصر أو اقليم الشرقية(١).

وفى عهد الظاهر بيبرس، حظى عرب الشام من آل ربيعة أكثر مما حظى أسلافهم من قبل(٢). وازدادت علاقة عرب الشام بالسلاطين توثقا حتى أن العطايا-وهما غير الاقطاع- (كانت تفيض عليهم فيضا من الذهب العين، والدراهم مئات الألوف، والخلع الأطلسى والذهب وأنواع المزركش لنسائهم، السكر المكرر والاشربة المختلفة بالقناطير المقنطرة...." ومع مايطلق لهم من الاموال الجمة فى الشام، ويقطع باسمائهم من المدن والبلاد، ويملك لهم من القرى والضياع، ويعطى علماؤهم، ويجرى عليهم من الاقطاعات لهم واللائذين بهم مع مؤاكلة السلطان، لهم مدة اقامتهم بحضرته غداء وعشاء والدخول عليه فى المحافل والخلوات وملازمته فى اكثر الاوقات(٣).

* * *

أما عن اشتراكهم فى جيش المماليك، فان جيش الشام، كان منذ الفتح العربى يتكون من جنود ينسبون الى قبائل مختلفة، وكان منظما على اساس انضمام الجنود من قبيلة واحدة معا، بحيث يكونون كتيبة(٤) واحدة احيانا مثل آل

---

(١) ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الامصار، مجلد٤، ٥، ص٤٥، القاهرة ١٣١٠هـ.

(٢) القلقشندى، نهاية الارب، ص١٠٢، صبح الاعشى للقلقشندى ج٤، ص٢٠٣.

(٣) القلقشندى، نهاية الارب، ص١٠٣.

(٤) الكتيبة:ماجمع فلم ينتشر، وعددها من مائة الى الف (النويرى، نهاية، ج٦، ص١٨٩.

مرا وكان عددهم فى جرائد الدولة المملوكيــة ١٠٠٠فـارس(١). وأحيانـا يكونـون جيشا(٢) قوامه ٤٠٠٠فـارس وهـم آل مـرا ايضـا وهـم وان لـم يـرد فـى القوائـم السلوكية غير ألف من آل مرا، الا أن المؤرخ المقريزى ذكر أن عددهم بلغ فـى احدى المعارك الحربية ضد التتار أربعة آلاف فارس(٣).

وكان هذا التنظيم يتمشى مع الاوضاع الاصلية للاجتماع العربى، يضمن الانسجام والتكاتف بين افراد الكتيبة الواحدة. وظـل تنظيـم العـرب فـى الجيش المملوكى بنفس النظـام القديـم، أساسـه القبيلـة، ليقطـع الطريـق علـى أى فرصـة للخلاف داخل الكتيبة الواحدة.

وقد أورد المؤرخ غرس الدين خليل بن شاهين فـى كتابـه، "زبـدة كشـف الممالك" وصف الجيش المملوكى فذكـر انـه ينقسـم الـى قسـمين، احدهمـا ديـوان الجيش الشـامى والاخـر، ديـوان الجيـش المصـرى. علـى أن هذيـن الديوانيـن يشتملان على الجنود المماليك والعرب ومن التركمان والاكراد وغيرهم، ثم ذكر ابن شاهين قبائل العرب المقيدة فى جرائد الجيش المملوكى -وهى القوائم- ويـدأ بآل فضل يليهم آل مرا ثم آل على وبنى عقبه وبنى مهدى والعائذ. ويلغ عددهـم جميعا تسعة وعشرون الفا مابين فارس وراجل(٤).

أما عن أسـلحة العـرب فـى الشـام : السـيف والرمـح والقـوس والـترس، وكانت لهم عناية كبرى فى استخدامها.

---

(١) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١٠٥.

(٢) الجيش : ماكـان عدده مـن الـف الـى أربـع' الاف (النويـرى، نهايـة الارب، ج٦، ص١٨٩.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٠.

(٤) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك ، ص١٠٥.

وفى العصر المملوكى، كانت قبائل العرب تلبى نداء الحرب شاكين السلاح، على متن الخيول المسومة، لابسين الدروع الحديد وفوقها معطف(١) قصير مصنوع من القطن او الحرير المبطن وعلى رؤسهم الخوذ الحديد لوقاية الرأس، مقلدين سيوفهم وبأيديهم الرماح وخلفهم (الظعائن والحمول)(٢).

وأما الخيول فكان للعرب عناية فائقة بها، لان العرب أهل فروسية، وخيول العرب مشهورة بخفتها وسرعتها وسهولة قيادتها، وكان الفرس، الوسيلة الرئيسية فى قتال العدو والنيل منه(٣). وكان القواد، يوصون رجالهم أن يعتنوا بأفراسهم مثل عنايتهم بنسائهم، بل وأكثر(٤).

وظل العرب يهتمون بخيلهم حتى العصر المملوكى ونتج عن هذا الاهتمام باقتناء الخيول وتربيتها ان حظى العرب بهبات السلاطين، وعطاياهم أمثال الظاهر بيبرس ومحمد بن قلاوون.

---

(١) المعطف : يسمى الكزغند وهو المعطف القصير يلبس فوق الزردية، ويصنع من القطن المبطن المنجد والجمع كزاغنديات، وهو لفظ فارسى. (المقريزى، السلوك، ج١ ق١، ص٢٥٣هـ).

(٢) المقريزى، السلوك، ج١ ق٣، ص٦٩٠، كان العرب فى حروبهم يضربون المصاف وراءهم، أى انهم كانوا يتركون ابلهم ومواشيهم، وعيالهم وأثقالهم من خلفهم دفعا لهمم المقاتلين وثباتهم فى قتال عدوهم (المختار من سيرة بن هشام، ابراهيم الابيارى، ص١٠١، محمود شيت خطاب، عقبة بن نافع الفهرى، ص٦٧ القاهرة٧١.

(٣) ابن خلدون، المقدمه ص٢٧٢،٢٧٣.

(٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص١٤٣.

ومارس فرسان عرب الشام أسلوب الكر والفر فى حروبهم مع أعدائهم واشتهروا بالشجاعة والاقدام والضرب بالسيف والرشق بالسهام، واستخدموا الترس(١). والمقلاع والنشاب والحجارة(٢).

وكذلك كان للعرب وحدهم فى الشام، المقدرة الفائقة على استخدام الموانع المائيه، مثل الانهار كسلاح للحصار ضد المهاجمين، مثلما حدث فى معارك أمير عربان حماه، ناصر الدين بن الحنش، وذلك عندما أطلق على الجنود العثمانيين الماء من أنهار دمشق، ليعوق حركتهم. وقد تمكن بذلك من هزيمتهم، حتى أن السلطان طومان باى، أصدر أمرا بنيابة حمص، لابن الحنش(٣). تقديرا لشجاعته فى الدفاع عن بلاد الشام ضد العثمانيين، ولم يحدث مثل ذلك فى معارك الشام من قبل فى العصر المملوكى.

واستخدم العرب طريقة جديدة أخرى ضد العثمانيين فى الشام، حين منعوا عنهم الشعير والقمح والتين، وحاصروا الجنود العثمانيين (وكل من خرج الى الضياع قتله العرب)(٤). وصارت خيول العثمانيين، (سائبة تأكل من ورق الاشجار وهى فى غايةالحصر)(٥).

لقد كان للعرب كيانهم البارز فى بلاد الشام وكان لهم بالتالى، دورهم الواضح فى شؤنه المختلفة فى ظروف الحرب والسلام على السواء.

---

(١) المقريزى، السلوك، ج٢ ق٣، ص٩١٣،ابن اياس،بدائع،ج٣،ص٢٨٦، ج٩، ص١٠٧٠.

(٢) المقريزى، السلوك، ج١ ق٢، ابن اياس، بدائع، ج٩. ص١٠٨١.

(٣) ابن اياس، بدائع، ج٩، ص١٠٥٢.

(٤) المصدر نفسه.، ص١٠٥٥.

(٥) نفسه.

واشتغل العرب من البدو مثل قبائل جذام، وكان لهم بطون كثيرة بالاردن، والجولان فى بلاد الشام، بأعمال الحراسة، فقاموا، بحراسة الطرق وحماية القوافل التى تمر بأراضيهم من اللصوص وقطاع الطرق، مقابل مبلغ من المال يدفع لهم(١).وكان بنو عقبة(٢) يتولون الحراسة فى المنطقة التى تقع بين مصر، والحجاز الى حدود غزة(٣)، ثم زبيد مساكنهم بالمرج والغوطة، من ضواحى دمشق. وكانوا يقومون أيضا بأعمال الحراسة وحفظ الأطراف(٤).

ومن الجدير بالذكر ان شيخ الاسلام أحمد بن تيمية شهد للعرب، عامة وبنى عدى خاصة وهم من عرب الشام، بالصلاح والتقوى، وبأنهم أهل قتال مجاهدون(٥). وأجاز للعرب قيامهم بتحصيل مبلغ من المال، من القوافل المارة عبر الصحراء، نظير حمايتهم لتلك القوافل ومن فيها(٦).

* * *

---

(١) المقريزى، البيان والاعراب، ص١٨، القلقشندى، نهاية الارب، ص٣٦٤، قلائد الجمان للقلقشندى، ميكروفيلم رقم٣٨١ معهد المخطوطات.

(٢) بنو عقبة : هم بنو عقبة من مخرمة، بطن من جذام من القحطانية، وكانت ديارهم من الكرك الى الازلم من برية الحجاز، وعليهم درك الطريق مابين مصر والمدينة المنورة الى حدود غزة (كحالة، ج٢، ص٧٩٧).

(٣) القلقشندى، نهاية الارب، ص٣٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٦٩.

(٥) ابن تيمية، مجموعة الرسائل الكبرى، ص٢٧٢، القاهرة ١٣٣٢هـ.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٦.

لم تلبث الجهة الاسلامية التى أقامها فى مصر والشام السلطان الناصر صلاح الدين، أن تفككت بعد وفاته، وتمزقت الوحدة التى قضى معظم حكمه يرعاها ويتعهدها، ووجد الخلف بين حكامها من ابناء وأخوة صلاح الدين(١). فضعفت شوكة الاسلام فى عهد خلفائه.

ومن هنا قوى عزم الامراء المماليك فى مصر على التصدى لمواجهة الاخطار التى تعرضت لها البلاد واستطاعوا ان يوحدوا الجبهة الداخلية فى كل من مصر والشام، وقد انضمت قبائل العرب فى الشام ومصر الى جيش المماليك وكونوا جبهة متحدة تمكنت من مواجهة الاعداء ودحرهم. وأعاد المماليك وحدة مصر والشام فى ظل دولة سلاطين المماليك. وظل المماليك يسيطرون على بلاد الشام، بعد أن استمالوا اليهم أمراء قبائل عرب الشام. وظلت قبائل الشام، خلال عصر سلاطين المماليك، جنودا مدافعين عن بلاد الشام منذ معركة عين جالوت، حتى معركة قابون فى عهد طومان باى.

وتفصيل ذلك ان أبناء البيت الأيوبى قسموا الشام فيما بينهم وجعلوا منه ممالك مستقلة، فلما بلغهم استيلاء الاتراك المماليك على مصر وولاية عز الدين أيبك عرش السلطنة، أجمع حكام الشام أمرهم على استدعاء الملك الناصر يوسف حاكم دمشق وحلب الى دمشق، وبايعوا له بدمشق، وكلفوه باسترداد مصر لبنى أيوب.

وفى عام ١٢٥٠/٦٤٨ خرجت جيوش الشام لملاقاة جيش المماليك فى مصر والتقى الجمعان فى العباسية، ودار القتال بين الفريقين، وانتهى القتال لصالح المماليك.

---

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٣، ص٥٨، ٤١٢.

وفى عام ١٢٥٣/٦٥١ بعث الخليفة المستعصم العباسى برسول استطاع أن يصلح بين الطرفين. وتم الصلح ورسمت الحدود لمصر والشام. ثم تجدد الصراع واستمر عدة سنوات. وأخيرا انتهى بينهما على ان يكون الشام للايوبيين، ومصر للماليك(١).

وفى عام ١٢٥٨/٦٥٦ كانت بغداد وبها الخليفة المستعصم بالله العباسى. وكان التتار يسيطرون على خراسان وماوراء النهر، وخوارزم وخلاط وفارس ومعظم بلاد الشرق(٢).

وفى ربيع الثانى من عام ٦٥٥ ابريل ١٢٥٧ بعث هولاكو الى الخليفة المستعصم برسالة يدعوه فيها الى تسليم نفسه وعاصمته بغداد الى التتار، والا فان الحكم للسيف. ولم يعط الخليفة العباسى الاهتمام الواجب لمواجهته خطر التتار. وفى عام ١٢٥٨/٦٥٦ هاجم التتار بغداد بقيادة قائدهم هولاكو، وملكوها وقتل الخليفة المستعصم بالله شهيدا(٣).

ثم اتجه نظر هولاكو بعد ذلك الى الشام ومصر وبدأ هذه الخطوة بارسال خطابات تهديد الى حكام الشام ومصر. وفى عام ١٢٥٨/٦٥٨ وصل الى حلب

---

(١) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص٥٨، وط.الهند١٩٥٤، اسماعيل أبى الفدا، تاريخ أبوالفدا، ج٣ ص١٩٥، ١٩٩، ابن خلدون، العبر المجلد الخامس، ص٨٠٩، ٨١٠، المقريزى، ج١، ق٢، ص٣٥٨، ٣٧٢.

(٢) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص٤.

(٣) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص٨٤، اسماعيل ابو الفدا، تاريخ المؤيد اسماعيل، ج٣، ص٢٠٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٨، ابن خلدون العبر، المجلد٥، ص٨١٨، ٨١٩.

-وهى مفتاح الشام- ثم اضطرته الظروف للعودة الى بلاده تاركا لقائده كتبغا(١) اتمام مهمته الحربية فى الشام ومصر واتجه كتبغا نحو مصر وأرسل خطاب تهديد للمصريين لتسليم بلادهم(٢). وكان سلطان مصر فى ذلك الحين هو السلطان المظفر قطز الذى ولى السلطنة فى عام ٦٥٧/٣٥٩.

وعندما تقدم التتار ودنوا من حلب قوى عزم الملك الناصر على لقاء التتار، فجمع قواده واجتمع بهم فى برزه(٣). وكان معه الامير بيبرس. ثم بعث الناصر بأهله الى الكرك. وبعث الى قطز سلطان مصر طلبا للنجدة. ثم بعث قطز بخطاب الى الملك الناصرأطمأنت به نفس الملك الناصر. واجتمع مع الملك الناصر نحو مائة ألف مابين عرب وعجم(٤). ولكن لاختلاف الكلمة بين الجيوش، انسحب الملك الناصر صاحب دمشق الى الكرك واستعان ببعض العرب، فتعقبه التتار وأرادوا الانتقام من العرب، الا أن العرب قاموا بالهجوم على خيل جشارهم فى نبل راهط فى نصف شعبان من عام ٦٥٨/١٢٦٠ فأطلقوها بأسرها، فأسرع اليهم التتار فلم يدركوهم(٥).

---

(١) كان كتبغا عظيما عند التتار، يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره، وكان بطلا شجاعا مقداما خبيرا بالحروب وافتتاح الحصون والاستيلاء على الممالك وهو الذى فتح معظم بلاد العجم والعراق. (ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧ ص٩٠).

(٢) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص٣٤٩، أبو الفدا، تاريخ ابى الفدا، ج٣، ص٢٠٩، المقريزى، ج١ ق٢، ص٤٢٢، ٤٢٦، ٤٢٧.

(٣) برزة : قرية بالغوطة شمالى دمشق.(المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٢١٩.

(٤) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٢٣.

(٥) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص٣٥٠، ابن كثير، البداية ج١٣، ص٢١٩.

واما الامير بيبرس فانه انسحب من عند الناصر واتجه الى القاهرة وانضم الى قطز لقتال التتار فرحب قطز بالامير واستعدوا لقتال التتار. وانضم اليه ايضا الملك المنصور صاحب حماة(١).

وفى ١٥ شعبان خرج السلطان قطز بجيش للقاء التتار فى الشام ومعه الامير ركن الدين بيبرس(٢). والمنصور صاحب حماة، ومن انضم اليهم من عساكر الشام ومن العرب والتركمان(٣). واستدعى السلطان عرب مصر من البلاد الشرقية والغربية وأنفق على الجيوش من المماليك والعرب، بعد أن اجتمع بهم فى الريدانيةشمال القاهرة(٤). وذلك أن العرب يعدون من جيش الدولة المملوكية(٥). وكذلك فان القبائل العربية فى الشام عنصر هام ومؤثر فى البلاد(٦). منهم بنو نعير وهم من آل فضل عرب الشام وبلغ عددهم وحدهم أربعة وعشرون ألف مقاتل، فضلا عن قبائل الشام الاخرى من آل مراء وآل على وبنى عقبة وبنى مهدى والعائذ وغيرهم، وجميعهم ممثلون فى جيش الشام. وأما عرب مصر الممثلون فى جيش الدولة فان عددهم بلغ أربعة وعشرون ألف

---

(١) ابو الفدا، تاريخ أبى الفدا، ج٣، ص٢١١، المقريزى،السلوك، ج١، ق٢، ص٤٢٠.

(٢) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص٣٦٥.

(٣) ابن خلدون، العبر المجلد٥، ص٨١٩.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ص٧٩، الشيخ عبد الله الشرقاوى، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، ط.ثانية، ص١٣٤، ١٧٤.

(٥) المقريزى، الخطط، ج٣، ص٣٥٠،جلال الدين السيوطى،حسن المحاضرة، ص٨٣.

(٦) المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص٢٤٧.

مقاتل من عرب هوارة فضلا عن قبائل أخرى بلغ عدد فرسانهم نحوثلاثة الاف فارس(١).

وبعد ان اكتمل جمع الجيوش العربية فى الصالحية، أصدر السلطان قطز أمره الى الامير بيبرس بالتوجه الى غزة للاستطلاع. فتوجه الى غزه، وكان بها جموع التتار، وكان العرب، فى نفس الوقت الذى خرجت فيه الجيوش من مصر لقتال التتار بالشام يشنون الغارات على معسكرات التتار بالشام ويستولون على خيولهم. فاذا أحس التتار بالعرب اسرعوا خلفهم. ولكنهم لايدركوهم، ولايستطيعوا أن يستردوا من اسلابهم شيئا(٢). فلما سار السلطان قطز وقائد جيشه بيبرس ومن كان معهم من العرب من مصر فى شعبان من عام ٦٥٨/يوليو ١٢٦٠ الى غزة ووصلت طلائعه اليها، خرج منها التتار واستولى بيبرس عليها(٣). ثم تقدم السلطان الى غزة وبقى بها يوما ثم رحل عنها الى عكا، مارا بطريق الساحل(٤).

أما التتار فكانوا فى البقاع. وبلغ كتبغا قائدهم نبأ اجتماع جيش مصرفى مرج عكا.فأصدر أمره بجمع من فى الشام من التتار للقاء المسلمين فى الغور(٥) كما انضم الى التتار بعض حكام الشام مثل الملك الاشرف صاحب حمص، وقد

---

(١) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، باريس١٨٩٣، ص١٠٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ٢١٩، اليونينى،ذيل مرآة الزمان، مجلد١،ص٣٥٠.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٢٩،٤٣٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٣٠.

(٥) ابو الفدا، تاريخ أبى الفدا، ج٣، ص٢١٤.

بعث اليهم السلطان قطز يستميلهم اليه، فجاءه الرد من الاشرف صاحب حمص بالايجاب، ووعده بخذلان التتار عند اللقاء(١).

والتقت طلائع جيش المماليك ومن معهم من العرب وغيرهم بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس مع طلائع التتار، وكانت جيوش التتار قد اجتمعت فى أرض البقاع بقيادة كتبغا، والمسلمون فى عكا بقيادة السلطان قطز، استعدادا للمعركة الفاصلة، وبعث كل فريق بطلائعه، فالتقت طلائع المسلمين بطلائع التتار، فهزمت طلائع المسلمين التتار(٢).

ثم بدأ الفريقان يتحركان من مواقعهما. وفى ٢٥رمضان عام٦٥٨/ اغسطس١٢٦٠ التقى الجمعان بالغور على عين جالوت(٣).

وعندما بدأت المناوشات والتحم الجيشان اضطربت ميسرة المسلمين، عندئذ اشتد حماس السلطان قطز، وحمل حملة صادقة فى طائفة عظيمة من المسلمين على التتاروتحيز الاشرف صاحب حمص-كسابق وعده للسلطان قطز-فانهزم التتار. وقتل أميرهم كتبغا فى المعركة، وولوا ظهورهم المسلمين يقتلونهم فى كل مكان. ومنهم من فر الى رؤس الجبال فتتبعهم المسلمون فأفنوهم(٤).

---

(١) ابن خلدون، العبر، المجلد٥، ص٨٢٠.

(٢) ابن خلدون،العبر،مجلد٥، ص٨١٩، ٨٢٠، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٠.

(٣) ابو الفدا،تاريخ ابى الفدا، ج٣، ص٢١٤، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٠. وعين جالوت،(قرية صغيرة من قرى فلسطين تقع بين نابلس وبيسان) (ابن تغرى بردى، النجوم، ج٨، ص٥٦).

(٤) ابن خلدون، العبر، مجلد٥، ص٨١٩، ٨٢٠، المقريزى، السلوك، ج١ ق٢ ص٤٣٠، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص٣٥٠، ابو الفدا، تاريخ ابى الفدا، ج٣، ص٢١٤.

وقد قدم السلطان قطز عقب انتهاء معركة عين جالوت الى أبطال المعركة وقادتها من أهل الشام من أمراء العرب وغيرهم المكافأة تقديرا لبسالتهم فى قتال التتار. فأعاد المنصور صاحب حماة الى حماة واضاف اليه المعرة وكانت قبلها تابعة لحلب وغيرها، وأعاد الملك الاشرف صاحب حمص الى حمص. ومنح مدينة سلمية للأميرعيسى بن مهنا أمير العرب، مكافأة لـه لبسالته فى المعركة(١).

وهكذا بفضل تعاون المماليك وقبائل العرب فى الشام ومصر، نجح المماليك والعرب فى ايقاف سيول المغول الجارفة التى اجتاحت حدود العالم الاسلامى والعربى من الشرق الى الغرب الاف الاميال دون عائق او مانع ومكنتها الظروف من نسج أسطورة القهر الى أن قوضها المماليك والعرب فى عين جالوت، وعادت مصر والشام كما كانت فى عهد السلطان صلاح الدين دولة واحدة. هى دولة سلاطين المماليك التى استطاعت بفضل جهود بعض امراء عرب الشام احياء الخلافة العباسية وجعلت من القاهرة مقرا لها(٢).

وتتبع المسلمون التتار بقيادة الامير بيبرس يطاردونهم الى أن وصلوا خلفهم الى حلب، كما فر من بدمشق من التتار بعد سبعة أشهر وعشرة أيام من احتلالها(٣).

وعلم هولاكو بهزيمة جيوش التتار وانسحابها من الشام فعزم علىالعودة الى الشام يحاول استعادتها من أيدى المسلمين فهزموا. والتقى

---

(١) ابن كثير، البداية، ج٣، ص٢١٩، ابن خلدون، العبر، مجلد٥، ص٨٢٠، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣١.

(٢) ابو الفدا، تاريخ أبى الفدا، ج٣، ص٢١٨، المقريزى، السلوك، ج١،ق٢،ص٤٣٠.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١ ق٢، ص٤٣٣.

التتار والمسلمون فى معركة قرب بيسان[١]. عقب معركة عين جالوت، فهزم المسلمون التتار للمرة الثانية.

ثم أقبل الأمير بيبرس، يبعث بالجنود فى كل ناحية من ثغور الشام، ويزودهم بالذخيرة والسلاح، حتى عجز التتار عن مواجهة أهل الشام، فولوا الادبار منهزمين، بعد أن أطلقوا جميع الاسرى غير الغنائم والسلاح.

واستولى السلطان قطز على جميع بلاد الشام من الفرات الى مصر، ورتب أحوال الشام، فعين عليها النواب والولاة. ثم خرج من دمشق فى ٢٦شوال من عام ٦٥٨/سبتمبر ١٢٦٠ يريد القاهرة. وفى ٢٥ ذى القعدة عام ٦٥٨/اكتوبر ١٢٦٠ اعتلى بيبرس عرش السلطنة المملوكية، على أثر خلاف وقع فى صفوف أمراء المماليك، وتأثرت الاحوال السياسية فى البلاد الشامية ومصر[٢]. مما شجع التتار على معاودة الكرة متوهمين ضعف الموقف الداخلى فى البلاد، ومحاولين استغلال تلك الظروف الجديدة للحصول على نصر سريع يمسحون به وصمة عار عين جالوت.

ففى ٥ من المحرم من عام ٦٥٩/ديسمبر ١٢٦٠ عاود التتار الهجوم على الشام، وتقدموا نحو حمص وهم فى ستة الاف، فخرج اليهم الاشرف صاحب

---

(١) بيسان: تقع جنوب بحيرة طبرية، وكانت تابعة لدمشق، (غرس الدين خليل، زبدة كشف الممالك، ص ١٥٥).

(٢) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص ٣٧٠، ٣٧١، ٣٨١، اسماعيل أبو الفدا، تاريخ ابى الفدا، ج٣،ص ٢١٥، ٢١٦، ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٢٣٣، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٥.

حمص، والمنصور صاحب حماة فى الف وأربعمائة فارس، وتقاتل الفريقان بظاهر حمص، وانتصر المسلمون على التتار وفر بيدرا قائد التتار منهزما(١).

وقد ذكرالمقريزى ان معركة حمص هذه كانت على الرستن بين حماة وحمص وأن عرب آل فضل وأميرهم زامل بن على شاركوا فى القتال ضد التتار فى هذه المعركة(٢).

وفى أواخر عام ١٢٦١/٦٥٩ خرج الامام احمد الذى تقلد منصب الخلافة الاسلامية ولقب المستنصر، وبتنصيبه تم احياء الخلافة العباسية فى مصر.

خرج الامام احمد على رأس حملة عسكرية، انفق عليها السلطان بيبرس مائة وستون الف دينار، للتوجه لتحرير بغداد من التتار. وانضم الى تلك الحملة من قبائل الشام، عرب آل مهنا، ومن حكام شمال العراق، الملك الصالح حاكم الموصل والمجاهد اسحاق حاكم الجزيرة وحاكم سنجار ونحو سبعمائة فارس من التركمان وغيرهم.

وتوجه الخليفة وجنوده الى بغداد، والتقوا مع التتار قرب الأنبار-وتقع على الفرات غرب بغداد- وذلك فى أوائل المحرم عام ٦٦٠/نوفمبر١٢٦٢ الا أن الحملة فشلت فى مهمتها وعادت فلولها منهزمة ولم يعد المستنصر بعدها الى القاهرة(٣).

---

(١) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ص٤٣٤، اسماعيل ابو الفدا، تاريخ أبى الفدا، ج٣، ص٢١٨.

(٢) المقريزى، السلوك،ج١، ق١، ص٤٦٢،٤٦٣، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص١١٦، ابن اياس، بدائع، ج١، ص٨٤.

والواقع ان الحملة العسكرية التى قادها الخليفة المستنصر لمهاجمة التتار فى بغداد على الرغم مما انفق عليها فانها لم يكن فى استطاعتها التغلب على التتار، اذ أنها كانت تحتاج الى امدادات متصلة من الجنود والسلاح، ذلك أن الحملة هزمت التتار اولا ثم خرج على الحملة كمين من التتار، فلم يصمدوا امام التتار غير قليل ثم تفرقوا، ولم يعرف للخليفة مكان.

وقد كانت العرب فى الشام تكلف بشن الغارات على الاعداء كما كانت تقوم بدور الطلائع لاستكشاف أخبار الاعداء من التتار والصليبيين، ومعرفة تحركاتهم وتتبعها.

وقد استعان السلطان بيبرس فى حروبه ضد أعدائه من التتار والصليبيين، بقبائل العرب باعتبارهم من جنود الدولة يقاتلون فى صفوف الجيش فى الحروب ضد الأعداء(١).

وفى جمادى الاولى من عام ٦٧١/نوفمبر ١٢٧٢ كلف السلطان بيبرس- وكان مقيما بدمشق- جماعة من فرسان العرب فى الشام مع جماعة من فرسان المماليك بالتوجه الى الرحبه، لتقصى أخبار التتار. وخرج السلطان من دمشق، واتجه الى حلب ثم الى نبج فى شمال شرق حلب، لمتابعة اخبار التتار بنفسه، وعادت الطلائع تحدد موقع التتار وعددهم، فخرج السلطان على رأس حملة عسكرية، وتقابل جيش المماليك مع جيش التتار على رأس حملة عسكرية، وتقابل جيش المماليك مع جيش التتار على شط الفرات، فقتلوا منهم عددا كبيرا وأسروا نحو مئتين، وكان على البيرة مجموعة كبيرة من التتار، وعندما علموا

---

(١) السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص٨٣، خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١٠٥.

بأخبار انتصار الجنود المماليك على الفرات، أسرعوا بالانسحاب عائدين، فوصلها السلطان بجنوده فى أواخر جمادى الاولى وخلع على نائب البيرة وفرق على أهلها مائة الف درهم غير ماقدمه لهم من الغنائم التى تركها التتار عند انسحابهم منها، تقديرا لاستبسالهم فى الدفاع عن مدينتهم ضد التتار(١).

وفى شعبان من عام ٦٧٣/فبراير ١٢٧٤ كلف السلطان بيبرس الامير مهنا بن عيسى مع احد قادة المماليك بشن غارة على بلاد التتار وتخريب ثغورهم، وقد نجحت الحملة فى مهمتها، ثم عبرت الحملة الفرات عائدة الى الشام(٢).

وفى جمادى الاولى من ٦٧٤/نوفمبر ١٢٧٥ فتح السلطان بيبرس حصن القصر -ويقع بين حارم وانطاكية-(٣) وذكر ابن تغرى بردى أن السلطان بيبرس كان قد كلف جماعة من فرسان من العرب والتركمان بمحاصرة الحصن قبل اقتحامه(٤).

وتعدمركة حمص الثانية من المعارك الفاصلة فى التاريخ، ففى جمادى الأولى من عام ٦٨٠/اغسطس ١٢٨١ فى عهد السلطان قلاوون وردت للسلطان أخبار بمجىء التتار يريدون مهاجمة بلاد الشام فأسرع السلطان بالاستعداد لقتال التتار، وأصدر اوامره بالتعبئة، وجمع الجنود من سائر البلاد، فاجتمعت قبائل

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٥٩، ابن اياس، بدائع الزهورفى وقائع الدهور، ج١، ص٩٠.

(٢) ابن خلدون، العبر، مجلد٥، ص٨٤٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص١٦٥.

الشام من آل عيسى بن مهنا وآل فضل وآل مراء وأميرهم احمد بن حجى يتبعه نحو أربعة الاف فارس، يحملون اسلحتهم استعدادا لملاقاة التتار، وجعلوا الامير عيسى بن مهنا وآل فضل وآل مرا وعربان الشام ومن انضم اليهم، ميمنة الجيش، وجعلوا فى رأس الميسرة جموع التركمان وجنود حمص الاكراد. ثم وردت للسلطان قلاوون قبل بدء المعركة معلومات هامة عن جيش التتار منها أن عددهم ثمانون الف مقاتل(١). بينما ذكر ابن تغرى بردى، أن عدد جيش التتار بلغ مائة ألف مقاتل وأن عدد جيش المسلمين كان النصف من ذلك(٢).

وفى ١٦ جمادى الاخرة، من عام ٦٨٠/سبتمبر ١٢٨١ خرج السلطان قلاوون من دمشق ثم اتجه الى حمص، وفى حمص علم السلطان بتقدم التتار، حتى وصلوا الى حماة. ثم تقدمت فرق التتار وكانوا ضعف جيش المسلمين، ولم يسبق لهم ان حشدوا مثل هذا العدد. وفى ١٤رجب من نفس عام٦٨٠/اكتوبر ١٢٨١ التقى الفريقان بوطأة حمص، قريبا من مشهد خالد بن الوليد، فاندفعت ميسرة التتار مقابل ميمنة المسلمين، بضراوة شديدة، فثبتوا لها ثبوتا عظيما، واندفعت ميمنة المسلمين تقاتل الميسرة حتى هزمتها. ووصلوا الى القلب وبه منكوتمر قائد التتار، واجتمع قلب جيش المسلمين مع المبمنة، وكان يقودها عيسى بن مهنا وهاجموا منكوتمر قائد التتار حتى اضطروه الى الفرار منسحبا من المعركة.

---

(١) ابن خلدون، العبر، مجلد٥، ص٨٥٨، المقريزى، السلوك، ج١، ق٣،ص٦٩١،٦٩٤، ابن اياس، بدائع، ج١، ص٩٦.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص٩٦.

هذا بينما تمكنت ميمنة التتار من التغلب على الميسرة بجيش المسلمين وساقوا خلفهم حتى دخلوا حمص، وبعض مدن الشام. ولم تعلم ميسرة المسلمين بانتصار الميمنة، ولاعلم التتار، بهزيمة ميسرتهم.

ثم علم التتار الذين توغلوا في بلاد الشام بهزيمة منكوتمر وانسحابه فأسرعوا بالانسحاب عائدين لبلادهم تاركين وراءهم من الخيول والسلاح مالايحصى غنائم للمسلمين(١).

وفي عام ١٣٠٢/٧٠٢ في عهد السلطان محمد بن قلاوون، كانت معركة مرج راهط-شرقي الغوطة-بين التتار والمسلمين، وذلك أن التتار تسللوا الى حلب واعلنوا بها أنهم قدموا لشراء بعض مايلزمهم من الطعام، حيث اصاب بلادهم الجدب، حيلة منهم وخديعة، فبعث نائب حلب بخبرهم الى السلطان. فأعلنت القاهرة التعبئة(٢). فاجتمعت قبائل عرب جبل نابلس وعرب مصر وبلغ عدد الجيش من مماليك وعرب نحو مائتى ألف، بينما كان عدد التتار يبلغ مثل ذلك العدد أو اكثر(٣). ثم تلاقى الجيشان على مرج راهط شرقي الغوطة، واشتد القتال بين المسلمين والتتار، ثم انتهت المعركة بانتصار المسلمين، وأسروا من التتار نحو الثلث، واستشهد كثيرون من الجنود المماليك والعرب، ثم عاد السلطان محمد بن قلاوون من أرض المعركة متجها شمالا الى دمشق

---

(١) ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، ص٨٥٨، المقريزى، السلوك، ج١ ق٣، ص٦٩١، ٦٩٤، ابن تغرى بردى، النجوم ج٧، ص٣٠٧، ابن اياس، بدائع، ج١، ص٩٦.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٨، ص٥، ابن اياس، بدائع، ج٢، ص١٢٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) نفسه، ج٢، ص١٢٣.

يرافقه الخليفة العباسى المستكفى بالله والقضاة فأقام بها اياما. ثم عاد الى القاهرة يسبقه اليها الغنائم والاسرى من التتار(١).

ولما اجتاحت جيوش التتار بقيادة تيمورلنك بغداد فى عام ١٣٩٩/٨٠٢ ووصلت اخبارهم الى السلطان المملوكي في مصر، أصدر أوامره الى نواب دمشق وطرابلس وصفد للتوجه بقواتهم الى حلب للدفاع عن البلاد وضد التتار المهاجمين.

وفى عام ٨٠٣ تقابل جيش الشام مع جيش تيمورلنك فى شمال حلب، فتغلب عليهم تيمورلنك. واكتسحت جيوشه مدينة حلب ثم حماة(٢).

وعلى الرغم من أن اخبار تيمور لنك وصلت الى السلطان فرج الا انه تغافل عنها حتى تمكن تيمورلنك من البلاد. ثم بدأ السلطان فى الاستعداد واعداد الجيش لملاقاة جيش تيمورلنك، فخرج الجيش فى ربيع الاخر من عام ٨٠٣/ديسمبر ١٤٠٠من القلعة فى موكب عظيم، واتجه الى الريدانية ثم الى غزة. وفى ربيع الاخر ايضا خرج من غزة الى دمشق، وفى دمشق وردت الاخبار الى الناصر فرج، بأن الأمير ابن رمضان أمير التركمان تمكن من طرد جنود تيمورلنك من حلب(٣).

كما وردت الاخبار الى دمشق بأن عربان جبل نابلس قتلوا جماعة كثيرة من جنود تيمورلنك الذين كانوا فى طريقهم الى طرابلس بأمر من تيمورلنك،

---

(١) ابن تغرى بردى،النجوم،ج٨،ص٥، ابن اياس، بدائع، ج٢، ص١٢٣.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٨٣، ٢٨٥.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٨٦.

وكان مقيما بالقرب من سلمية، ثم ضلوا الطريق وتاهوا بين الجبال، فتمكن منهم عرب نابلس(١). فقتلوا كثيرا منهم بالنشاب والحجارة وفر الباقون.

وفى جمادى الاولى من عام ٨٠٣/يناير ١٤٠١ وكان الناصر فرج مقيما بدمشق، ظهر جماعة من جنود تيمور لنك بلغ عددهم نحو ألف فارس، فخرج اليهم جماعة من مماليك السلطان فى نحو مائة فارس، وتقابل الفريقان فانهزم جنود تيمور لنك، وانسحبوا مسرعين(٢).

وفى جمادى الاخرمن نفس العام. لم يستطع الجيش المملوكى، التغلب على تيمور لنك واضطر الى العودة الى القاهرة، ولما قوى عزم السلطان للخروج ثانية للشام لطرد تيمور لنك، اجتمع معه من امراء العرب فى الشام الامير نعير بن حيار أمير آل فضل، وكثيرا من عرب حارثة، ومن قبائل الشام واجتمع مع السلطان الناصر فرج من قبائل عرب الشام خمسة الاف فارس من عرب آل فضل، ومن قبائل عرب مصر ستة آلاف فارس من عرب البحيرة، والف وخمسمائة فارس من عرب بنى وائل، وخمسمائة فارس من عرب الشرقية فصار عدد الفرسان الذين انضموا لجيش السلطان سبعة الاف من فرسان العرب ومصر. وبعد ان صرف السلطان مرتبات الجنود استعد للعودة للشام للقاء تيمور لنك(٣).

وفى ١١ جمادى الاولى، كان تيمور لنك قد اتجه الى دمشق بجيشه فأسرع أهلها باغلاق ابوابها، وتسلقوا الاسوار، وبدأوا يقاتلون جيش تيمور لنك .

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور ، ج٣، ص ٢٨٦.

(٢) نفسه.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٨٧، ٢٨٨.

من خلف أسوار دمشق، وقد اشتد القتال، واستطاع الاهالى ان يقتلوا فى تلك المعركة، نحو الفين من جنود تيمور لنك.

ولما لم يجد تيمور لنك سبيلا الى التغلب على المدينة بالقتال لجأ الى استخدام الحيلة، بطلب الصلح بقصد الخدعة. وكاد أهل دمشق ان يرفضوا الصلح مع تيمور لنك، ولكن انقسموا فريقين، وأخيرا تغلب الفريق الذى يرأسه القاضى بن مفلح وهو الذى خدعه تيمور لنك عندما اجتمع معه للصلح وهو يضمر الشر للمدينة وأهلها، لانه كان مخادعا يظهر غير مايبطن(١)، صار تيمور لنك يتلطف فى القول مع بن مفلح ومن كان معه من أعيان دمشق وكانوا خمسة أفراد حتى قبلوا ان يفتحوا له ولجيشه أبواب دمشق. وفتحت ابواب دمشق للاعداء بغير قتال. أما قلعة دمشق فظلت تقاتل ضد الغزاة مدة شهر تقريبا. ثم سلمت القلعة والمدينة بأسرها(٢).

وفى رجب من عام ٨٠٣/مارس١٤٠١ كانت دمشق تحت سيطرة تيمور لنك بجيوشه، وصاروا يعملون فى السلب والنهب والقتل والاسر دون تفرقة بين الاطفال الرضع والشيوخ والعجائز حتى رحلوا عنها فى شعبان من عام ٨٠٣/ابريل١٤٠١ ثم أرسل تيمور لنك كتابا الى السلطان فرج يعتذر له عما حدث وسأله الافراج عن أحد رجاله المعتقلين بالقاهرة، مقابل افراج تيمور لنك عن جميع من عنده من الاسرى. ثم نفذ الطرفان الاتفاق وأفرج عن جميع الاسرى مقابل الافراج عن الاسير الذى كان معتقلا بالقاهرة، وتبادل كل من تيمور لنك والسلطان فرج الهدايا(٣).

---

(١) احمد بن عبدالله الدمشقى، عجائب المقدورفىأخبار تيمور،القاهرة١٢٨٥،ص٢٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٨، ٢٨٩.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٩٢.

وكانت غزوات سلاطين المماليك ضد الصليبيين كثيرة بدأت منذ عهد الظاهر بيبرس. وقد شاركت قبائل الشام فى تلك المعارك ضد الصليبيين- فقد كانت تلك القبائل العربية الشامية عنصر هام ومؤثر فى البلاد[١]- ومن أمثلة ذلك، حصار عكا الذى قامت به حملة من فرسان العرب بالاشتراك مع جماعة من فرسان التركمان، بأمر من السلطان بيبرس فى جمادى الاولى من عام ٦٦٣/مارس١٢٦٥، وعادت بأسرى من الفرنج[٢].

وظلت تلك الغزوات المملوكية العربية مستمرة ضد الصليبيين حتى تكاملت فتوح بلاد الساحل بأجمعها فى عهد الاشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩/٦٩٣-١٢٩٠/١٢٩٣)[٣] ففى ربيع الاخر من عام ٦٩٠/ابريل١٢٩١ كان حصار عكا الذى انتهى بسقوطها فى ١٧ جمادى الاولى من نفس العام فى أيدى المسلمين. وقد ذكر ابن تغرى بردى أن المتطوعين من العرب فى حصار عكا كان يزيد عن عدد جنود الجيش المملوكى[٤].

وكذلك ذكر ابن اياس ان الصليبيين فى عكا كانوا قبل فتحها يقطعون الطريق على المسافرين، ويستولون على اموال التجار ويقتلون كل من لقوه من المسلمين(٥). وكانت عكا اخر مدينة حصينة بالشام انتزعها المسلمون من الصليبيين.

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١ ق١، ص٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ج١ ق٢، ص٥٢٧.

(٣) القلقشندى، صبح الاعشى ، ج٤، ص١٧٨.

(٤) ابن تعزى بردى، النجوم، ج٨، ص٥.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ص١٠٣.

ومن المعارك الحربية التى وقعت فى الشام أيضا، وتكشف احداثها عن الدور البطولى لاهالى الشام فى الدفاع ضد اعداء البلاد من الصليبيين وغيرهم، معركة طرابلس التى حدثت فى عام ١٣٦٧/٧٦٩ فقد هاجم الصليبيون طرابلس فى تلك السنة وهم فى نحو مائتى مركب حربى، هاجموا المدينة فى غيبة من نائبها، وتغلبوا على جنود المدينة الذين ضعفوا عن الدفاع عنها. فدخلها الفرنج، ونهبوا أسواقها، وقتلوا نحو الفين من أهلها. وسرعان ماانتشرت اخبار هذا الغزو فى انحاء الشام. فأقبل الاهالى بأسلحتهم وعتادهم، واشتبكوا مع الفرنج المهاجمين، فى قتال شديد، وطاردوهم حتى أخرجوهم من طرابلس، بعد ان قتلوا منهم جماعة كثيرة، وكانت هزيمة الفرنج ساحقة(١).

وقد استطاع سلاطين المماليك مواصلة جهادهم ضد التتار فى الشرق والصليبيين فى الغرب، حتى تمكنوا من بسط سلطانهم على بلاد الارمن وفرض الجزية عليهم، بعد ان كانوا يدفعونها الى التتار(٢).

وكذلك تمكن المماليك من اخراج الصليبيين من جميع الساحل الشمالى، وقد شاركت العرب فى الشام ومصر فى أهم تلك المعارك الحربية، فى الشرق أو فى الغرب على السواء. وقد بدأت المشاركة العربية فى تلك الحروب منذ معركة عين جالوت، أول وأخطر المعارك الحربية، فى العالم فى ذلك الحين، وحتى آخر تلك المعارك فى مرج دابق فى شمال الشام وفى الريدانية فى شمال القاهرة.

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٩١.

(٢) ابن خلدون، العبر، مجلد٥، ص٩٠٢،٩٠٣.

بل ان القبائل العربية فى الشام منهم من شارك فى المعارك الحربية البحرية خارج أرض الشام، وذلك مثل بنى بحتر أمراء الغرب وهم من تنوخ عرب الجنوب، الذين كانت لهم بطولات فى أشهر المعارك الحربية ضد التتار(١).

أما جهادهم ضد الصليبيين، على السواحل الجنوبية الشامية فانهم استقروا مقيمين فى بيروت ساهرين على حراسة سواحلها منذ الاستيلاء عليها فى عهد الاشرف خليل عام ٦٩٣/١٢٩٤.

وشكل أمراء بنى بحتر هؤلاء قوة حراسة من تسعين فارس قسموا أنفسهم ثلاثة أبدال، يتبادلون الحراسة كل ثلاثين فارس يقيمون شهرا فى الحراسة ثم يستبدلون الحراسة مع جماعة أخرى تحل محلهم(٢).

كذلك شارك بنو بحتر فى الحملات الحربية البحرية لغزو قبرص فى عهد الاشرف برسباى فى عام ٨٢٨/١٤٢٥(٣).

وفى عام ٨٢٩/١٤٢٦ أعلن السلطان برسباى الجهاد العام واستجاب الكثيرون من المتطوعين من الاهالى فى الشام ومن مصر ايضا، ثم توجهت

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٩٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت،ص٦٣، عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام، ص٣٣٢، ط. بيروت ١٩٧٢.

الحملة فى اكثر من مائة سفينة حربية لغزو جزيرة قبرص، وتمكنت تلك الحملة من فتح قبرص وأسر ملكها(١).

كذلك شارك المطوعة من أهالى البلاد فى كثير من المعارك البحرية ضد رودس، فى عهد السلطان جقمق(٢).

وجينما ظهر التهديد العثمانى لحدود الشام الشمالية كانت فرسان القبائل العربية تستدعى للمشاركة فى مواجهة ذلك التهديد، وللدفاع عن البلاد.

ومن أمثلة ذلك ماحدث فى عهد الاشرف قايتباى فى جمادى الاخرة من عام ٨٩١/يونيو١٤٨٦، عندما حشد العثمانيون جيشا كثيفا على حدود حلب، وذلك اثر هزيمتهم فى حلب، فى صفر من نفس العام، وقتل نحو أربعين ألف منهم وأسر جماعة من امرائهم(٣).

وفى المحرم من عام ٨٩٢ /ديسمبر ١٤٨٦ تم عقد صلح بين المماليك والعثمانيين، وبمقتضى ذلك الصلح تم اعادة الاسرى العثمانيين لبلادهم(٤).

وفى شهر ربيع الأول من عام ١٤٨٩/٨٩٥ ظهرت الحشود العثمانية فى شمال حلب، واستدعى فرسان العرب للاستعداد لمواجهة تلك التهديدات العثمانية(٥).

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٥١، ابن اياس، بدائع الزهور،ج٣،ص٣٢٦، الاسحاقى،لطائف اخبار،ص١٩٥،عبدالعزيزسالم،تاريخالبحرية الاسلامية ص٣٢٥.

(٢) السخاوى، التبر المسبوك فى ذيل السلوك، القاهرة١٨٩٦،ص٨٨،٦٢.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٥٣١،٥٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٣٩.

(٥) نفسه، ص٥٥٨.

ولم يتخلف العرب فى الشام ومصر عن المشاركة فى مختلف العهود فى عصر سلاطين المماليك، عن الوقوف مع الجيش المملوكى، للدفاع عن البلاد وتتبع الاعداء ودحرهم فى عقر دارهم.

وظل العرب على اخلاصهم للدولة المملوكية حتى عهد السلطان الغورى والسلطان طومان باى من بعده.

فمثلا فى عهد السلطان الغورى فى رمضان من عام ٩١٧/ديسمبر ١٥١١ توجه محمد بن ساعد احد امراء قبائل الشام الى القاهرة وقدم الهدايا من الخيول والسلاح وغيرها الى السلطان الغورى تعبيرا عن الولاء والطاعة، وذكر ابن اياس فى كتابه بدائع الزهور أن حضور هذا الامير العربى من الشام الى مصر (من جملة سعد السلطان قانصوه الغورى)(١).

وعلى الرغم مما وقع من فساد فى حق أهل الشام وخاصة فى حلب، من قبل الجنود المماليك المكلفين بالدفاع عن حلب، ضد العثمانين، من سلب ونهب واعتداء على الاهالى، حتى اضطر أغلب أهلها الى الهجرة الى مصر بسبب تلك الاضطرابات(٢).

وكذلك مافرض على أهالى البلاد الشامية فى جبل نابلس، ودمشق وغزة وصفد وطرابلس وحماه من أموال بلغ مائة واربعة وعشرين ألف دينار، وماترتب على ذلك من أضرار بالبلاد فقد ظل العرب صامدون فى الدفاع ضد العثمانيين فى بلاد الشام(٣).

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٨، ص٨٣٨.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ج٩، ص١٠٥٢.

ومن البلاد الاخرى، فرض على كل فرد فيها عشرون دينارا تخصص للجنود العرب المكلفين بالدفاع عن البلاد.

ذكر ابن اياس أن ذلك لم يكن يحدث فى العهود السابقة لعصر سلاطين المماليك، بل ان الاشرف قايتباى، أنفق على الحملات العسكرية للجند العرب من الخزائن السلطانية، فى مثل تلك الحملات، ولكن السلطان الغورى لم يقبل ذلك. وذكر ابن اياس ان هذا كله سوف يكون سبب خراب البلاد وفساد الاحوال(١).

كذلك كان السلاطين فى العهود السابقة شديد والحرص على حماية أهالى الشام، وحسن معاملتهم من جانب الولاة ونواب السلطان المملوكى فى مصر.

فكان اذا بلغ السلطان أن احد الولاة أساء الى أهل ولايته انزل به أشد العقاب. ومن أمثلة ذلك ماحدث فى عهد السلطان جقمق، ففى عام ١٤٤٤/٨٤٨ وكان قد بلغ السلطان ان نائب حماة برد بك العجمى أساء الى أهالى حماة، الى حد الاشتباك معهم بجنوده فى معركة سقط فيها القتلى من الطرفين.

فلما حضر نائب حماة برد بك العجمى الى القاهرة وصعد القلعة لمقابلة السلطان، فان السلطان، (شتمه ولعنه، ثم أمر بالقبض عليه فأمسك وحبس ببرج القلعة)(٢) ثم نفى الى احدى المعتقلات خارج القاهرة(٣).

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص٩٣٩.

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوى، التبر المسبوك فى ذيل السلوك،ط. القاهرة١٨٩٦، ص٨٨.

(٣) المصدر نفسه.

وبعد أن هـزم المماليك أمـام العثمـانيين فـى مـرج دابـق فـى رجـب عـام ٩٢٢/اغسطس ١٥١٦ واستشهد السلطان الغورى فى المعركة، واستشهد فيها الكثيرون من العرب(١). ثم خلفه طومان باى فى السلطنة ولم يتخلف العرب فـى الشام عن مواصلة المقاومة ضد العثمانيين.

ففى رمضان عام ٩٢٢/اكتوبر١٥١٦ واجهت القبائل العربيـة فـى الشـام الغزاة العثمانيين، بقيادة الامير ناصر الدين بن الحنش مع الجنود العثمانيين، فقتل جماعة منهم، ثـم أغرق الاراضـى بمـاء الانهـار فـى دمشـق، فصـارت الارض موحلة، فتعذر على الجنود العثمانيين السيربخيولهم وكان ذلك سببا لهلاك الكثير منهم.

وذكر ابن اياس دور ابن الحنش فى معركة قابون فى بيتيـن مـن الشـعر يحذر العثمانيين من شدة بأس أهل الشام وابن الحنش هما :

قل لابن عثمان اذا قابلتـــه ٠٠٠ أقبل نصيحة ناصح ودع الطيـش

واحذر تعارض شاميا بجهالة ٠٠٠ نخشى عليك اللدع من ابن الحنش

ولما بلغ السلطان طومان باى نبأ انتصار عرب حماة على العثمانيين فى معركة قابون، أصدر مرسوما لابن الحنش بنيابة حمص(٢).

ولم يكن باستطاعة عرب حماة مواجهة العثمانيين وحدهـم بغير معاونـة من السلطان طومان باى، ولذلك فان ابن الحنـش أمير عـرب حمـاة ارسـل الـى السلطان طومان باى بالقاهرة يبلغـه فيـه بأنـه باستطاعته هزيمـة العثمـانيين، اذا أمده السلطان ببعض جنوده(٣).

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص١٠٥٢.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص١٠٥٢.

(٣) المصدر نفسه.

ثم صادرت قبائل العرب في الشام، جميع انواع المعونات من الاغذية من أن تصل الى الجنود العثمانيين وصار العثمانيون محاصرون من عرب الشام، ومن يجسر على الخروج الى الضياع يقتله العرب(١).

ولما لم يستجب السلطان لابن الحنش فى ارسال حملة عسكرية الى الشام للمعاونة فى مقاومة العثمانيين عاد وبعث الى السلطان فى شوال عام ٩٢٢ نوفمبر١٥١٦ يستحثه فى سرعة ارسال الحملة العسكرية قبل أن يتقدم العثمانيون الى غزة.

وفى ذى القعدة من عام ٩٢٢/ديسمبر١٥١٦ شرع السلطان فى تجهيز الحملة الى غزة، وفى ذى القعدة خرجت حملة حربية الى غزة. وبعد يومين وردت الاخبار من غزة الى القاهرة بهزيمة الحملة أمام العثمانيين.

ذكر ابن اياس أن بطء تحرك الامراء المماليك والجنود دفع بقائد الحملة جان بردى الغزالى الى جمع جماعة من العرب هو والامير أرزمك نائب حماة، ودولات باى نائب غزة وتقابلوا مع العثمانيين بالقرب من بيسان، وكان عدد جنود المماليك والعرب قليل بالنسبة الى عدد الجنود العثمانيين، فانهزم المماليك وسقطت غزة فى أيدى العثمانيين(٢).

ولما انتقلت المعارك بعد ذلك من الشام الى مصر استدعى طومان باى قبائل العرب لأخذ دورهم فى الدفاع عن البلاد، لبت فرسان قبائل العرب فى مصر الدعوة وصاروا قوة للسلطان طومان باى.

---

(١) ابن اياس، ص١٠٥٥، ١٠٥٨.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص١٠٦٦.

ففى ذى الحجة من عام ٩٢٢/يناير١٥١٧ جمع السلطان طومان باى قبائل عرب عزالة- وهوارة ومحارب وأمرهم باحضار أشجع فرسان العرب لمواجهة المعارك الحربية ضد العثمانيين(١). ثم تدخل بعض الامراء المماليك، لدى السلطان طومان باى ليصرف فرسان العرب وقبائلهم بحجة أن لافائدة فى خروجهم مع الحملة(٢).

ولم يكن رأى هؤلاء الامراء المماليك فى العرب صحيحا بل كذبته الاحداث التى وقعت بعد ذلك. فمثلا فى معركة الريدانية التى وقعت بين المماليك والعثمانيين فى شمال القاهرة فى ذى الحجة عام ٩٢٢ يناير١٥١٧ استشهد فيها كثيرون من عرب الشرقية والغربية(٣).

وفى محرم من عام ٩٢٣/فبراير١٥١٧ كانت معركة بولاق حيث هاجم طومان باىمعسكر العثمانيين فى بولاق، وذلك عندما اطلق على المعسكر جمالا محملة بالبارود، ثم أطلق عليها النار، فشبت النار فى معسكر العثمانيين، ثم اشتبك المماليك فى معركة مع العثمانيين بالسيوف، وقتلوا منهم مالايحصى(٤).

ثم اشترك المصريون والعرب فى الهجوم على العثمانيين بالمقاليع والحجارة. ثم تطور الموقف وبلغت قوة طومان باى الى الحد الذى خطب باسمه فى القاهرة(٥).

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص١٠٦١،١٠٦٨.

(٢) نفسه، ص ١٠٧.

(٣) نفسه، ص ١٠٧٨.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص١٠٨١.

(٥) المصدر نفسه، ص١٠٨٢.

وفـى صفـر مـن عـام ٩٢٣/مـارس١٥١٧ بعث طومـان بــاى يخــاطب السلطـان العثمانى، ويعرض عليه الصلح حقنا لدماء المسـلمين، وعلـى ان تكـون الخطبة والسكة باسم السلطان سليم مع دفع خراج سنوى تدفعه له مصر.

وبعد اطلاع السلطان سليم على خطاب طومان باى شـكل وفـدا للصلـح، من الخليفـة والقضـاة الاربعـة لعقد الصلـح مـع السـلطان طومـان بـاى، وكلفهم بالتوجه الى الصعيد وذلك بعد أن خلع عليهم الخلع السنية.

ولم يغفل طومان باى عن اظهار قوته الحربية للعثمانيين، فذكر انه معـه عشـرين الـف مقـاتل مـن الممـاليك السـلطانية والعـرب، وغـير كبـار القـواد مـن الامراء المماليك ذوى الرتب العسكرية العالية(١).

ذكر ابن زنبل ان العرب قامت جميعها لنصر طومان باى(٢).

ثم ظهر من الامراء المماليك جماعة أفسدت خطـة الصلح، وذلـك عندمـا تعرضـوا لاعضاء الوفد العثمانى، فقتلوا بعضهم وفر البعض الاخر(٣).

ولذلك صمم السلطان العثمانى على نبـذ الصلـح. وفـى ربيـع الأول عـام ٩٢٣/ابريل ١٥١٧ تقابل الفريقان قرب الجيزة وتقاتلوا فانهزم طومان باى، بعـد أن استشهد الكثيرون من العـرب والـترك(٤). وتحولـت الشـام ومصـر منـذ ذلـك الوقت الى ولاية عثمانية.

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٩، ص ١٠٨٨.

(٢) احمد بن زنبل، تاريخ السلطان سليم، ص٥٦.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٩ ، ص ١٠٨٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٠٩١.

ولما تولى المنصور قلاوون عرش السلطنة فى رجب عام ١٢٧٩/٦٧٨، خرج عليه الامير سنقر الاشقر نائب دمشق ورفض مبايعته، واعلن استقلاله بالبلاد الشامية، وتلقب بالملك الكامل، فى ٢٤ ذى القعدة عام ١٢٧٩/٦٧٨، وكانت حركة العصيان من جانب الامير سنقر نائب دمشق بسبب اعتراضه على خلع العادل سلامش بن الظاهر بيبرس من السلطة بتدبير من قلاوون، الذى كان قائما بتدبير أمور المملكة، نيابة عن سلامش، وكان عمره لايتعدى ثمان سنوات، واعتلاء قلاوون عرش السلطنة. وقد بايع سنقر الاشقر القضاة والعلماء والاعيان من اهل الشام، فأصدر قاضى القضاة بالشام، شمس الدين بن خلكان، فتوى بجواز قتال السلطان قلاوون(١)،والأرجح ان هذه الفتوى كانت من الاسباب التى ساعدت على انضمام عرب الشام من آل فضل، وآل مراء وغيرهم الى سنقر الاشقر، ومن الامراء العرب الذين انضموا الى الامير المملوكى الثائر، الامير عيسى بن مهنا أمير آل فضل والامير شهاب الدين احمد بن حجى أمير آل مراء، وجماعة كثيرة من جبال بعلبك ومن حماة ومن حلب(٢).

ولما فشلت ثورة نائب الشام، احتمى بآل فضل أما آل مراء فأعلنوا طاعتهم للسلطان(٣).

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١ ق٣، ص٦٧٥،٦٧٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٢، ابن اياس،بدائع الزهور، ج١، ص٩٥، القاهرة ١٩٦٠.

(٢) المقريزى، السلوك، ج١ ق٣، ص٦٧٥، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص٢٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٩٦.

وفى جمادى الاخرة من عام ٦٧٨/١٢٧٩ وردت الاخبار بقرب هجوم التتار على البلاد الشامية لما بلغهم اختلاف الكلمة بين الامراء وخروجهم عن طاعة السلطان وعندئذ، اجتمع الامراء على نبذ خلافاتهم، وتصالحوا وأعدوا أنفسهم لملاقاة التتار. وكان للامير عيسى بن مهنا أمير آل فضل دور هام فى الانتصار على التتار(١). ولذلك فقد صار له شأن كبير ومنزلة عظيمة لدى السلطان. ومما عرف عن هذا الامير العربى واشتهر به، كرم الاخلاق وحسن الجوار وكف الاذى وبذل الخير(٢).

وفى عهد السلطان خليل بن قلاوون، الذى أبدى اهتماما بالامير مهنا بن عيسى(٣). ومنحه الهدايا له ولوالدته، ففى صفر من عام ٦٩٢/١٢٩٢ منح الاشرف خليل، هذا الامير العربى بمناسبة زواج احدى بناته الاقمشة الحريرية وغيرها من الهدايا الثمينة، وكلف السلطان حاجبه بصرف قيمة ذلك من الخزانة(٤).

الا ان السلطان تغير على آل فضل وأصدر أمره بخلع أميرهم من منصبه عام ٦٩٢/١٢٩٣ وعين بدلا منه اميرا من آل على هو الامير محمد بن أبى بكر.

والأرجح أن عزل أمير آل فضل من امارته يرجع الى وشاية صدرت فى حق هذا الامير، اذ أن المصادر لم تشر الى سبب هذا العزل.

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٨،٣٠١،٣٠٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٦٣.
(٣) ابن خلدون، العبر، مجلد٦، ص١٩، القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص٢٠٥، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة،جـ ٧، ص٣٦٣.
(٤) المقريزى، السلوك، ج١ ق٣، ص٧٨٣.

ويوضح صحة مأشرنا اليه ماذكره ابن اياس عن صفات السلطان خليل بن قلاوون من أنه على الرغم من انه كان منقادا للشريعة ولايخشى فى الحق لومة لائم، (ويقضى بالحق على الأمراء المقدمين للسوقة)(١). الا انه كان فى نفس الوقت يستجيب لكلام بعض وزرائه فى حق الرعية بغير تقصى للحقيقة(٢).

وفى عام ١٢٩٤/٦٩٤ افرج عن أمير آل فضل وأعيد الى امارته بالشام(٣). وهكذا ابتدأ نجم آل فضل فى الصعود بعد عودة أميرهم الى الشام خاصة فى عهد السلطان محمد قلاوون، فكان يتوسط لدى السلطان فى العفو عن كبار العلماء وبعض أمراء المماليك المعتقلين لسبب أو لآخر، وكثيرا ما كان ينجح فى وساطته لدى السلطان.

وحضر ايضا مرة أخرى الى القاهرة عام ١٣١٠/٧١٠ للتوسط لدى السلطان المملوكى بشأن تولى الملك المؤيد عماد الدين حكم حماة، ومنح الملك المؤيد اسماعيل الأيوبى ولاية حماة.

وعلى الرغم من العلاقة الطيبة التى جمعت بين كلا من السلطان المملوكى والامير العربى، الا انه كان يحدث بينهما احيانا مايعكر صفو هذه العلاقة من ذلك مانسب لامير عرب الشام انه لم يحضر وقائع غازان عام ١٣١٢/٧١٢ في هجومه على الشام وخروجه عن طاعة السلطان. ولما اختلف الامير قراسنقر نائب حلب مع السلطان الناصر خرج الى ظاهر حلب، فكتب السلطان الى قرطاى نائب قراسنقر بحلب، ألا يمكن قراسنقر من العودة الى

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ص١٠٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن خلدون، العبر، مجلد٦، ص١٩.

حلب ومنع ارسال أمواله اليه،فشكا نائب حلب، الى الأمير مهنـا، فأرسـل الامـير الى قرطاى يهدده فيها بتسليم أموال قراسنقر اليه، والا أخـذت قسـرا. فاسـتجاب قرطاى وقام بتسليم بعض الامـوال اليـه، وبعـث بخطـاب الـى السـلطان النـاصر يبلغه فيه بما حدث بشأن تدخل الامير العربى بينه وبين نائب الشام.

ويرجع سبب تحيز أمير عرب الشام الى قراسنقر، أنه اطلعه على كتـاب من السلطان الناصر بالقبض عليه فغضب الامير مهنا، وكان تدخله لصالح نائب الشام المخلوع(١). مما أدى الى جفاء فى العلاقة بيـن الامـير والسـلطان فـأصدر السلطان أمـره بابعـاد مهنـا وتعيين فضـل بـن عيسـى بـن مهنـا أمـيرا علـى آل فضل(٢).

وفى عام ١٣١٧/٧١٧ وفد ابنا مهنا، وهما محمد وموسى، وأخو الأمـير مهنا وهو محمدعيسى، الى السلطان فأكرمهم،وقبل العفو عن أبيهما، وأعاده الـى امارته واقطاعه(٣).

وفـى عـام ١٣١٩/٧١٩ لـم تكـن توجـد علاقـات سياسـية بيـن الدولـة المملوكية وبلاد العراق، وعلم السلطان المملوكى، بقيام اتصالات بين عـرب آل فضل وبلاد العراق، فاعتبر السلطان المملوكى هذا التصـرف مـن جـانب عـرب آل فضـل خروجا عن الطاعة،وأمر بابعادهم عن البلاد واحلال عرب آل على،

---

(١) المقريزى، السلوك، ج٢ ق١، ص١٠٨.

(٢) ابن خلدون، العبر، مجلد٦، ص٢٠،١٩، القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص٢٠٦.

(٣) المصدر نفسه، السيد محمد ابو الهدى الصيادى، الروض البسام فى أشهر البطون

القرشية بالشام، ص٧١، الاسكندرية سنة ١٨٩٢.

أبناء عمومتهم محلهم، واختار منهم محمد بن أبى بكر بن على أمير على عرب الشام(١).

ونرى أن سبب اتصال آل فضل ببلاد العراق أنهم كانوا يعيشون فى شمال بلاد الشام مجاورين لحدود العراق، وكانوا دائمى الترحال، فلم يكن امامهم سوى الاتصال بأهل العراق، بحكم مجاورتهم لهم. الا ان حكام الدولة المملوكية، كانوا يرون أن فى ذلك خروجا عن الطاعة، وانه كان يتعين الحصول على اذن من السلطان أولا قبل التحرك منعا للشكوك.

والدليل على صحة ذلك، ان السلطان سرعان ماعفى عن هؤلاء العرب، وأعاد أميرهم العربى مهنا بن عيسى لامارته، كما كان أولا(٢).

ومما لاشك فيه ان العرب كانوا يعتزون بالتمسك بعاداتهم، وتقاليدهم حتى فى علاقاتهم مع سلاطين المماليك. ومن أمثلة، ذلك ماذكره المقريزى، من أن احد أبناء موسى بن مهنا -وكان طفل صغير- تقدم الى السلطان الناصر محمد- وكانوا مجتمعين فى رحلة حج عام ١٣١٩/٧١٩ الى مكة-وأمسك بلحيته يلتمس منه منحه احدى، الضياع انعاما عليه، فصرخ فيه فخر الدين، ناظر الجيش، محتجا، فما كان من السلطان الناصر، الا ان قال وهو يبتسم (هذه عادة العرب، اذا قصدوا كبيرا فى شيىء فيكون عظمته عندهم مسك لحيته، يريد انه استجار بذلك المس فهو سنة عندهم)(٣).

---

(١) ابن خلدون،العبر،مجلد٦،ص١٩، ٢٠،القلقشندى،صبح الاعشى،ج٤، ص٢٠٦.

(٢) (صدر عفو السلطان عن آل فضل، بعد تدخل من جانب الافضل بن المؤيد حاكم حماة)، (ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٢٠، القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤،ص٢٠٦.

(٣) المقريزى، المذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك، القاهرة١٩٩٥، ص١٠٤،١٠٥، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص٦٠.

وفى عام ١٣٣٣/٧٣٤ تولى سليمان بن عيسى بن مهنا ادارة آل فضل، وهذا الامير العربى هو الذى استجار به الامير المملوكى قراسنقر نائب حلب، فاستجاب له وأجاره. ثم أرسل الى السلطان المملوكى فى القاهرة يسأله العفو عن نائب حلب لانه استجار بأم سليمان، فقبل السلطان المملوكى الوساطة وعفا عن نائب حلب(١).

واستطاع هذا الامير العربى ايضا ان يحصل على عفو عن أخيه الامير فياض، الذى كان معتقلا بالقاهرة فى عام ١٣٤٢/٧٤٣، واسترد ماأخذ من آل مهنا من الاقطاعات(٢).

وايضا لأمراء عرب الشام أدوار سياسية على درجة كبيرة من الأهمية، كانوا يكلفون بها من قبل سلاطين المماليك، مثل، القبض على نائب الشام، ذكر المقريزى، أن تنكز نائب الشام عندما خرج عن طاعة السلطان المملوكى عام ١٣٤٠/٧٤٠ وأراد القبض عليه، تصادف حضور الامير موسى بن مهنا الى القاهرة(فقرر معه السلطان، القبض على تنكز)(٣) واضاف انه (أخرج موسى بن مهنا لتجهيز العرب واقامته على حمص)(٤).

وفى عهد الصالح اسماعيل فى عام ١٣٤٣/٧٤٤ ولى سيف بن فضل امارة عرب الشام، ولانه كان أميرا على عرب بيت فضل بن عيسى فحسب، فقد عزله الكامل شعبان وعين احمد بن مهنا بدلا منه أميرا على عرب الشام لانه كان أميرا على آل مهنا وسائر آل فضل، وساعد ذلك فى استتباب الامن

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١ ق١، ص١٠٧،١٠٩،ابن تغرى بردى،النجوم، ج٩، ص٣١.
(٢) المصدر نفسه، ج٢ ق٣، ص٦٢٨.
(٣) المقريزى، السلوك، ج٢ ق٢، ص٤٩٩.
(٤) المصدر نفسه.

بينهم، خاصة فى عهد السلطان الناصرحسن(١). ثم ولى حيار بن مهنا امارة عرب الشام وبقى عدة سنوات ثم اختلف مع السلطان حسن فعزله عن الامارة، ثم اعادة اليها ثانية بوساطة نائب حماة.

وقد كان لعرب الشام وعشائره دور مشارك فى الحياة السياسية والفتن فى دولة المماليك وذلك منذ عهد دولة المماليك البحرية (٦٤٨/٧٨٤/١٢٥٠-١٣٨٢) ففى عام ١٣٥٢/٧٥٣ فى عهد الملك الصالح صالح، خرج عليه جماعة من المماليك من نواب الشام، منهم بيبغا أروس - وكان مسجونا بقلعة الكرك، فصدر أمر من السلطان بالافراج عنه وتوليه نيابة حلب، وذلك فى عام ١٣٥١/٧٥٢ وأنضم نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب صفد. وبلغ عدد من انضم الى هؤلاء الثائرين على السلطان حسن نحو ستين من أمراء المماليك فى الشام.

ثم انضم عرب الشام والعشائر الى هؤلاء الامراء الثائرين، وانضم اليهم أيضا الامير قراجا أمير التركمان. وعلى الرغم من فشل الثورة فى الشام، الا ان أمراء المماليك فى مصر تمكنوا فى عام ١٣٥٤/٧٥٥ من الوثوب على السلطان الصالح صالح وخلعوه من السلطنة وأعيد السلطان حسن الى السلطنة وكان قد خلع منها عام ١٣٥١/٧٥٢(٢).

وفى عام ١٣٦٨/٧٧٠ فى عهد الاشرف شعبان عاد حيار الى الخروج عن طاعة السلطان، فعزله السلطان من امارة عرب الشام وولى مكانه زامل بن موسى بن عيسى، فلم يلبث حيار أن جمع اليه بنو كلاب وغيرهم من العرب، وهاجم زامل بن موسى فى حلب، فتدخل قشتمر المنصورى نائب حلب بعساكره

---

(١) ابن خلدون، العبر، مجلد٦، ص٢١.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٦٧،١٧٢.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٦٧،١٧٢.

لنصرة الامير زامل فقتل قشتمر فيالمعركة فعزل السلطان الامير زامل، وعين مكانه معيقل بن فضل بن عيسى(١).

وفى عام ١٣٦٩/٧٧١ أرسل معيقل الى السلطان الاشرف شعبان، يسأله العفو عن حيار، فعفا عنه السلطان، وفى عام ١٣٧٣/٧٧٥ توجه حيار الى السلطان الاشرف فاستقبله وأعاده الى امارته على العرب من آل فضل.

وفى عام ١٣٧٩/٧٨١ فى عهد السلطان المنصور على ولى امارة آل فضل معيقل بن موسى بن عيسى، وعيسى بن مهنا شريكين(٢). وهذا دليل على أن السلاطين انما كان هدفهم الرئيسى من تعيين الامير العربى، هو استتباب الامن، فى أنحاء البلاد قليس لسبب اخر.

وفى عام ١٣٨٢/٧٨٤ تم خلع السلطان الصالح حاجى من عرش السلطنة لصغرسنه، وهو اخر سلاطين المماليك البحرية واستولى الظاهر برقوق على عرش السلطنة بدلا منه، فهو أول سلاطين المماليك البرجية (الجراكسة) (٧٨٤-١٣٨٢/٩٢٣-١٥١٧). فانتفض عليه الامراء المماليك وعزلوه واعتقل(٣).

وفى عام ١٣٨٨/٧٩١ فى عهد السلطان الصالح حاجى (الفترة الثانية) كلف الامير عيسى بن مهنا شيخ العرب بتسلم السلطان برقوق بعد القبض عليه، وكلف بالتوجه به الى الكرك، حيث بقى معتقلا بالقلعة(٤).

---

(١) ابن خلدون، العبر، المجلد السادس، ص٢١،٢٢، القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص٢٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٧.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٢٣،٢٣٦.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٣٩.

ولما ولى امارة العرب نعير وهو محمد بن حيار بن مهنا، وكان قد ولى الامارة بعد أبيه حيار، ثم عزل عنها، وأعيد اليها ثانية(١)، وقد انضم نعير وعربانه الى الامير يلبغا الناصرى نائب حلب فى ثورته ضد الظاهر برقوق. وقد تمكن يلبغا من السيطرة على الشام والتوجه الى القاهرة(٢). وانضم اليه كثير من امراء الشام ومصر، حتى اضطر السلطان برقوق الى التنازل عن السلطنة واتفق الامراء على عودة الملك الصالح أمير حاج الذى خلعه برقوق من السلطنة الى السلطنة عام ١٣٨٩/٧٩١(٣)، وفى عام ١٣٨٩/٧٩١ دب الخلاف بين يلبغا الناصرى، والاتابكى منطاش الذى كان من مماليك الظاهر برقوق، نفاه الى الشام لفساد ظهر منه، فانضم الى يلبغا فى ثورته. وكان الظاهر برقوق معتقلا بقلعة الكرك، فتمكن من السيطرة على القلعة. ثم خرج من الكرك الى الشام بعد أن انضم اليه نحو ألف من عرب الكرك، وغيرهم من عرب الشام، أما حسام الدين بن باكيس نائب غزة فقد جمع نحو خمسة آلاف من عرب جبل نابلس لقتال برقوق فهزمهم برقوق واستولى على خيولم وسلاحهم، فقويت شوكته(٤).

وأما الأتابكى منطاش وكانت بيده امور السلطنه فانه خرج من القاهرة الى الشام ومعه السلطان أمير حاج وقد ساعد بعض عرب الشام على نصرة

---

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص٢٠٨.

(٢) السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج١٠، ص٢٠٨،القاهرة١٣٥٥.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٣٢.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٤٣، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج١، ص٤١، القاهرة ١٣٠٦.

برقوق بأن كشفوا له عن مكان تواجد السلطان أمير حاج فتمكن برقوق من القبض على السلطان وعساكره(١). ثم خلع السلطان أمير حاج نفسه من السلطنة، وبويع الملك الظاهر برقوق بالسلطنة فى عام ١٣٩٠/٧٩٢ ثم توجه الى القاهرة، واستقامت اموره بالسلطنة(٢). عفى عن يبلغا الناصرى، الذى كان سببا فى خلعه من السلطنة هو وزميله منطاش ورفع رتبه يلبغا العسكرية من أتابك الى أمير سلاح.

وأما منطاش، فانه رجع الى الشام(٣)، وانضم اليه نعير بن حيار أمير آل فضل، وملك مدينة بعدبك، وحماة وحمص، والتف حوله جماعة من عسكر دمشق ومن الاهالى بها لميلهم الى منطاش وبغضهم برقوق. وانضم اليهم ايضا عربان جبل نابلس، وجماعة من عسكر صفد وطرابلس(٤).

وقويت الروابط بين نعير امير آل فضل، فتزوج منطاش من بنات نعير وانجب منهم، ثم لما ضعف أمر منطاش ونعير انقلب نعير على منطاش، واتفق على تسليمه الى نائب حلب، وقبض على منطاش وسجن بقلعة حلب(٥).

أما نعير امير آل فضل فقد ارسل اليه الظاهر برقوق خلعه وأقره أميرا على آل فضل(٦). ثم عاد برقوق وغضب على نعيروطرده من الشام(٧).

---

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٤٨٧.

(٢) نفسه، ج٣، ص٢٤٩،٢٥٢.

(٣) نفسه، ج٣، ص٢٤٨،٢٥١.

(٤) نفسه، ص٢٥٢،٢٥٥.

(٥) السخاوى،الضوء اللامع،ج١٠،ص٢٠٨،ابن اياس،بدائع الزهور،ج٣، ص٢٥٨.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٥٩.

(٧) السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٠٨.

وفى عام ١٣٩٩/٨٠١ فى عهد الناصر فرج، تم تعيين الامير نعير شيخ آل فضل، وبعثوا اليه بخلعه، أميرا على آل فضل(١).

وفى عام ١٤٠٠/٨١٣، حضر الامير نعير بن حيار أمير آل فضل، وكان معه من العرب ما لايحصى عددهم. وكانت البلاد الشامية اذ ذاك مهددة من قبل جيوش تيمور لنك(٢) وقد قام عرب جبل نابلس بطرد طليعة من جيش تيمور لنك كان قد بعث بهم الى طرابلس فى ربيع الاخر فضلوا طريقهم وهاجمهم عرب جبل نابلس من آل فضل، وقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب والمقاليع فولى فلولهم مدبرين(٣).

ومات نعير مقتولا فى عام ١٤٠٥/٨٠٨ فى معركة بينه وبين نائب حلب وقد ذكر السخاوى نعير، فقال انه كان شجاعا جوادا مهيبا، وبموته ضعف آل مهنا(٤).

وفى صفرمن عام ١٤٨٠/٨٥٥ فى عهد السلطان الاشرف قايتباى كان سيف بن فضل، أميرا على آل فضل، ونسبوا اليه الخروج عن الطاعة، ووقع القتال بينه وبين ازدمر نائب حماة، وقتل ازدمر فى المعركة، وقتل معه جماعة من أمراء حماة. فبعث السلطان من مصر بحملة عسكرية من خمسمائة مملوك بلغت نفقتهم اكثر من مائة ألف دينار على رأسها الامير يشبك الدوادار وجماعة من الامراء من مختلف الرتب للتوجه الى حماة وقتال سيف. وقدم الامير يشبك

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه. ج٣، ص٢٨٦.

(٣) نفسه.

(٤) السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٠٨.

الى حلب ومعه نائب الشام، ونائب حلب، ونائب طرابلس ونائب حماة والعسكر الشامى والحلبى والمصرى وغيرهم(١). ولما علم سيف بالحملة، خرج من حلب الى الرها، فتعقبه الامير يشبك، وعبر الفرات ،وكان قد اجتمع معه من الجند مايزيد عن عشرة آلاف، وانتهت الحملة بالفشل والهزيمة المنكرة، وبقى سيف مقيما بالعراق لم يعد بعدها الى الشام(٢).

أما عرب آل فضل وحلفائهم، فقد ضعف شأنهم لتفرق كلمتهم. وخلافاتهم فيما بينهم. حتى أن السلطان قايتباى التجأ فى عام ١٤٨٥/٨٩٠ الى عرب مصر وكلفهم بالخروج معه للدفاع عن الشام ضد العثمانيين، وأرسل كرتباى الاحمر كاشف البحيرة ليقوم هو بجمع هؤلاء الفرسان العرب(٣).

وفى عام ١٤٦٧/٨٧٢ قام اثنان من مشايخ العرب هما محمد بن عجلان وعيسى بن سيف الدين، بمعاونة تمريغا-وكان معتقلا بدمياط بعد خلعه من السلطنة وتولى قايتباى مكانه -فاما الشيخان العربيان بمعاونة تمريغا بعد الهروب من معتقله والخروج به من مصر بحرا الى الشام قاصدين حلب، ولكنهم لم يتمكنوا من اتمام رحلتهم حيث انه تم القبض على الظاهر تمريغا فى غزة وأعيد ثانية الى القاهرة(٤).

وفى جمادى الاولى من عام ١٥٠٠/٩٠٦ اجتمع عرب جبل نابلس وعشير الشام الى المقر السيفى طومان باى - وكان مكلفا من قبل السلطان

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٤٩٣،٤٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٤٩٧.

(٣) نفسه، ص٥٣٤.

(٤) نفسه، ج٤، ص٤٠٠.

جانبلاط بالتوجه الى الشام على رأس حملة عسكرية للقضاء على ثورة قصروه نائب الشام – الا أن طومان باى، الذى كان يعمل فى الخفاء ليتولى هو عرش السلطنة، اجتمع مع قاصروه وجماعة من امراء الشام، والقضاة، وأعلنوا طومان باى سلطانا، وخلعوا جانبلاط. ثم توجه عرب جبل نابلس والعشير وجماعة المماليك من الامراء والجنود جميعهم، الى القاهرة ودخلوها من باب الفتوح. ثم بعثوا جانبلاط الى الاسكندرية معتقلا(١).

* * *

وفى عام ١٥٠٢/٩٠٧ اجتمع الاهالى من سكان بعض جهات دمشق، وأعلنوا ثورتهم ضد نائب الشام. وتدخل القاضى ابن يوسف وجماعة من ذوى النفوذ ودافعوا عن الأهالى، فقويت شوكتهم ضد المماليك. فتدارك نائب الشام، الموقف وكلف شيخ الاسلام تقى الدين بالتوجه على رأس جماعة من رجال الدين، وكبار المسؤلين للاجتماع بكبار الثوار لانهاء ثورة الاهالى، فاجتمعوا بهم واستجابوا الى طلباتهم برفع المعاناة عن الشعب بالغاء بعض الضرائب التى كان يشكو منها أهالى الشام(٢).

وفى عام ١٥٠٥/٩١١ ثار عرب بنى لأم فخرجت اليهم حملة عسكرية لاعادة الاحوال الى الاستقرار، والسيطرة على عرب الكرك(٣). وبنو لام أحلاف لآل ربيعة من عرب الشام(٤). ومنهم آل فضل، وآل عيسى بن مهنا. ولم تكن

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٦، ص٦٧١.

(٢) محمد بن طولون، مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان، القاهرة١٩٦٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ص٢٠٥.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٧، ص٧٣٤.

(٤) القلقشندى، نهاية الارب، ص٤٤٨.

حالة عدم الاستقرار بين العرب في الشام فحسب، وانما شملت عرب مصر وعرب الحجاز أيضا(١).

ولما لم تتمكن الحملة المملوكية التي خرجت من مصر للتغلب على ثورة عرب بني لأم بالكرك، بعث السلطان الى نائب الشام ونائب طرابلس، ونائب صفد، للتوجه لمواجهة ثورة بني لأم والقضاء عليها(٢).

والأرجح أن أسباب ثورات العرب في الشام وفي انحاء مختلفة من الدولة المملوكية سببها السياسة التي سار عليها السلطان الغوري ووصفها ابن اياس في بيتين من الشعر هما :

سلطاننا الغوري قد جار	والصبر منا قد أعيــــا
وصار في الجور عمال	حتى خرب نصف الدنيا(٣)

وعلى الرغم من سياسة الجور والمصادرة في عهد هذا السلطان ضد أهالي الشام ومصر، فان محمد بن ساعد وهو من أمراء عرب الشام حضر الى القاهرة وقابل السلطان الغوري في عام ١٥١١/٩١٧ وقدم اليه الهدايا من الاموال والخيول والسلاح وأعلن له الطاعة(٤).

وبقى السلطان يسير على سياسته في تحصيل الاموال قهرا من أهل الشام، فقد فرض على أهل جبل نابلس ١٢٤٠٠٠ دينار نفقة للمشاة، كما حصل

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٧، ص٧٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٧٤٥.

(٣) ابن اياس،بدائع الزهور،ص٧٢٥، مرعى بن يوسف المقدسي،نزهة الناظرين، مخطوط،١٤١٦،ج.بلدية،ابن الشوكاني،البدرالطالع، ج٢، ص٥٤.

(٤) المصدر نفسه، ج٨، ص٨٣٨.

من أهالى بلاد غزة، وصفد وطرابلس وحلب وحماة مثل ذلك. ولم يكن قد حدث مثل ذلك من قبل، فقد كانت النفقة تؤخذ من مال الدولة.

وفضلا عن فساد مماليك السلطان فى بلاد الشام - بسبب الحملات العسكرية ضد العثمانيين وعم السيطرة على الجند - حتى لجأ كثير من أهل الشام الى مصر حماية لانفسهم من سوء معاملة مماليك السلطان لهم[١].

فقد وصف ابن اياس هذه السياسة غير العادلة فذكر أن (هذا كله يؤول أمره الى خراب البلاد وفساد الاحوال وضعف احوال الجند وعدم عمارة البلاد[٢]).

وقد نتج عن هذه السياسة ان أهالى الشام كانوا اكثر ميلا الى العثمانيين، لعدالتهم وظلم المماليك[٣]. وكثيرا ماكانت توصف ثورات العرب بأنها (فساد عربان) وانما واقع الامر بخلاف ذلك الى حد كبير، فان الثورات ضد الدولة لم تكن من جانب قبائل عرب الشام ومصر والحجاز وحدهم، وانما أيضا من المماليك أنفسهم بل ان فى المصادر الاسلامية من المنشورات الخاصة الموجهة من السلاطين لامراء العرب ما يوضح الدور السياسى الذى قام به العرب فى سبيل استقرار أحوال الشام خلال فترات طويلة من عصر سلاطين المماليك، ذكرناه فى مقدمة هذه الرسالة.

* * *

---

(١) ابن اياس،بدائع الزهور،ص٧٢٥،مرعى بن يوسف المقدسى،نزهةالناظرين،مخطوط، ١٤١٦،ج.بلدية،ابن الشوكانى،البدرالطالع، ج٩، ص٩٣٤.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٩، ص٩٣٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٧٣، ٩٧٦.

والخلاصة أن زعماء عرب الشام، فى عصر سلاطين المماليك، ساهموا فى الدفاع عن بلاد الشام مع المماليك، فى زمن الحرب، كما عملوا على استتباب الامن فى أنحاء البلاد فى زمن السلم. وانهم بسبب موقفهم المؤيد للدولة المملوكية، فى السلم والحرب. حظوا بتقدير واعجاب سلاطين المماليك، فقدموهم، على غيرهم من العرب، ومنحوهم الألقاب وملكوهم الاقطاعات من المدن فى بلاد الشام.

وقد ظل عرب الشام طوال عصر الدولة المملوكية، وحتى نهايته، على ولائهم للدولة المملوكية. فعرب الشام المملوكية، لم يقوموا بثورات ضد الدولة – كنظام حكم– مثلما فعل عرب مصر حين ثاروا، بزعامة حصن الدين ثعلب ضد الحكام المماليك بغرض انهاء الحكم المملوكى من البلاد. وانما كانوا يثورون لاسباب واضحة وذات أهداف سياسية واقتصادية محددة. وكان هذا من أسباب، استمرار حسن العلاقات بين عرب الشام وسلاطين المماليك حتى نهاية العصر المملوكى.

الفصل الرابع

الدور الحضارى للقبائل العربية فى الشام

- العمران فى الشام فى عهد المماليك.
- حياة قبائل الشام الاجتماعية فى الحضر والبادية، اشتغالهم بالزراعة والتجارة والرعى وتربية الخيول.
- ازياء عرب الشام.
- الدور الثقافى لعرب الشام، انتشار التعليم، انتشار المدارس.

يعد عصر دولة المماليك من أهم العصور التاريخية العربية، لمصر والشام، للطابع الخاص الذى تميز به، والسبب فى ذلك، ان دولة المماليك نشأت فى ظروف قاسية، حيث صاحب قيامها، مشكلتين كبيرتين، شكلت فى حقيقة الامر أكبر خطرين هددا مصر والشام.

فقد قامت دولة المماليك فى مصر فى الوقت الذى كان الصليبيون، قد ثبتوا أقدامهم فى بلاد الشام، وخاصة فى عكا وطرابلس وانطاكية، ابان ضعف خلفاء بنى أيوب فى بلاد الشام، حتى أنهم حاولوا غزو مصر، ذاتها، فوصلوا الى المنصورة قبل قيام دولة المماليك بقليل.

ثم قامت دولة المماليك. وكان عليها مسئوليات ضخمة، هى تأمين حدود مصر من الغزاة وطرد البقايا الصليبية من الشام، لتعود الارض الى أهلها، وأصحابها الحقيقيين.

ثم لم يلبث ان ظهر الخطر المغولى فى بلاد الشام، وبعثوا يهددون مصر وأهلها، ويطالبون حكامها بتسليم البلاد.

وسرعان مااجتمع الامراء المماليك فى الشام مع حكام مصر المماليك، وجمعوا عرب مصر وعرب الشام، وواجهوا المغول، صفا واحدا، انتهى بطرد المغول من بلاد الشام جميعها. وتمت الوحدة بين الشام ومصر تحت راية الدولة المملوكية.

وهؤلاء الحكام المماليك، مسلمون كرسوا حياتهم وجهادهم، لفكرة الجهاد وانقاذ بلاد الشام ومصر من الاخطار الكبرى، التى المت بهما. ولم تصرفهم حروبهم ضد المغول والصليبيين، عن الانشاء والتعمير. فأنشأوا القلاع والحصون، وجددوا ماهدمه المغول منها. وذلك مثل قلعة دمشق التى

بحى الصاغة التى جدد بيبرس شرفات قلعتها ورؤوس أبراجها فى عام ٦٥٩/١٢٦٠(١). وبنى بها حماما. كما شيد القصر الأبلق بالميدان فى دمشق(٢).

وساعدت الاوضاع المستقرة فى الدولة المملوكية، على ابراز، نشاطهم، فى الميادين الانشائية والاجتماعية والدينية والاقتصادية وغيرها.

ففى ميدان التعمير فى بلاد الشام المملوكية نجد المساجد، والمدارس والخوانق والزوايا والبيارستانات، قد انتشرت فى انحاء البلاد الشامية، بدرجة كبيرة. وذلك مثل المسجد الكبير بغزة، الذى انشأه سنجر الجاولى نائب السلطان المملوكى فى غزة عام ٧٢٨/١٣١٨(٣).

ومثل المدرسة الجقمقية، التى أنشأها سيف الدين جقمق، نائب السلطان المملوكى فى دمشق عام ٨٢٤/١٤٢١، وجقمق هذا، هو الذى أنشأ ايضا خانقاة ملحقة بالمدرسة(٤).

ومثل الزاوية التى أنشأها بكتمر بن عبد الله الأشرفى، نائب السلطان المملوكى بحصن الاكراد فى شمال الشام عام ٧١٩/١٣١٩ وجهزها لاطعام من يدخلها من فقراء المسلمين، وجعل لها، اماما للصلاة ومقرئين(٥).

وأنشأ بكتمر ايضا بيمارستانا عام ٧١٩/١٣١٩ وخصصه لمرضى المسلمين المقيميين بمدينة حصن الاكراد والواردين عليها(٦). وكانت جميع هذه

---

(١) Van Berchem, Catologue de la photothéque Geneve.1957, P,44.

(٢) ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، ترجمة بيبرس.

(٣) Repertoire, chronologique, t.14.p. 197.

(٤) مجلة الحوليات الاثرية السورية، مجلد ١٠، ١٩٦٠، ص٧٢، الريحاوى.

(٥) Repertoire chronologique, T. 14, p. 137.

(٦) المصدر نفسه، ص١٣٩.

العمائر توقف لها الاوقاف الكثيرة بغرض، الانفاق عليها.

على أن اهتمام المماليك بعمارة بلاد الشام كان يوازى اهتمامهم بعمارة مصر ذاتها، فقد ذكر ابن اياس، ان مابلغته العمارة فى الشام ومصر فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، من المساجد والقناطر والجسور وغير ذلك من العمائر والانشاءات زادت بمقدار النصف(١).

وذكر ابن جبير انه كان بدمشق فى العصر المملوكى بيمارستانات منها القديم والحديث، والحديث اكبرهما، احفلهما، جرايته، فى اليوم نحو الخمسة عشر دينارا، وله قومه، بأيديهم الكشوف المحتوية على اسماء المرضى وعلى النفقات، التى يحتاجونها، والادوية والأغذية، وغير ذلك. ويبكر الاطباء اليه كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون باعداد مايصلحهم من الادوية والاغذية، حسبما يليق بكل انسان منهم(٢).

ويذكر المقريزى، ان دخول الاطباء والعطارين كانت ترتفع عندما تنتشر الأوبئة عقب حوادث القحط والمجاعات، فتنتشر الامراض تبعا لذلك، ويطلب الناس الاطباء للعلاج.

ولما وقع الوباء فى الشام ومصر فى عهد العادل كتبغا، (كان كسب الواحد منهم فى اليوم مائة درهم)(٣). هذا بينما كان أجر الطبيب فى الشهر واحد وسبعون درهما(٤).

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٤٨.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٧٥.

(٣) المقريزى، اغاثة الامة، ص٣٥، القاهرة ١٩٥٧.

(٤) احمد رمضان، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام، ص٣٢٧.

ولعل من أسباب اهتمام سلاطين المماليك بالاكثار، من المنشآت الدينية، الخلاف المذهبى بين، الشيعة والسنة الذى كان ومازال قائما فى بلاد الشام حتى الان.

على أن بناء المساجد، كان حجر الزاوية فى بلاد الشام. بالنسبة للعمارة الاسلامية، وحصلت دمشق، عاصمة البلاد الشامية على النصيب الاكبر من جوامع بلاد الشام.

ولعل الجامع الأموى بدمشق هو أقدمها حيث تم بناؤه فى عام ٩٢/٧١٠(١) وقد عنى الظاهر بيبرس باصلاح الحائط القبلى لهذا الجامع الأموى(٢)، وقد رصت جدران الجامع وأروقته وقناطره كلها بفصوص من الزجاج الملون، مذهب اكثره مفضض(٣). وظلت عناية المسلمين من اهل الشام ورعايتهم لهذا الجامع الاموى الكبير وصيانته بالاصلاح والترميم، وخاصة فسيفساء الجامع، فى كل العصور، (ولولا ذلك، لما تبقى منها شىء، ولأصبحت أثرا بعد عين)(٤).

---

(١) **J.Sauvajet. Memento chronologique, d'histoire musulemene. Paris, 1950.**

(٢) سجلت كتابة فى مدخل باب البريد للجامع الاموى فى أعلى جداره الجنوبى نصها: بسم الله الرحمن الرحيم، عمر فى ايام مولانا السلطان الملك الظاهر العالم العادل المنصور ركن الدنيا والدين بيبرس الآمر بعمارة الاوقاف وتجديدها (قسيم) أمير المؤمنين المطاع بأمر المولى المقدم ملك الأمراء جمال الدين أقوش النجيبى المالكى الظاهرى نائب السلطنة المعظمة بالشام المحروسة (مجلة الحوليات الاثرية، مجلد ١٠، ١٩٦٠).

(٣) أطلق العرب على فصوص الزجاج الملون اسم الفسيفساء (المصدر السابق).

(٤) نفسه.

وكانت الدعوة فى الجامع الاموى على المذهب السنى(١). وكانت توجد مذاهب للشيعة ولكن اهل السنة لم يروا الاخذ بها، لغرابتها(٢).

على أن عناية بيبرس لم تقتصر على الجامع الاموى بدمشق فحسب ، وانما امتدت الى الجامع الازهر بالقاهرة والذى كانت الدعوة فيه ايضا على المذهب السنى، فكان بيبرس، حريصا فى الوقت نفسه ، على أن تشمل رعايته جوامع كلا من دمشق والقاهرة(٣).

والخانقاه، وهى نوع من المعاهد العلمية، كانت تخصص للصوفية والعلماء المغتربين، تشبه الرباط والتكية، وكانت توجد بحى الكلاسة، الذى يحتل المنطقة المجاورة للجامع الاموى من ناحية الشمال على عشرين معهدا علميا منها الخانقاه(٤).

وقد أنشأ السلاطين الفنادق والحمامات وشيدوا القصور فى بلاد الشام وذلك مثل تلك التى شيدها السلطان الظاهر بيبرس مثل القصر الأبلق بدمشق وشيد خانا(٥) بالقدس . وأنشأ بيبرس أيضا جسورا كثيرة بالغور والساحل ومنها جسر بقرية دامية بالغور على نهر الشريعة، وقد وقف عليه بيبرس وقفا لاصلاح مايهدم منه(٦).

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص١٧٩، ليدن١٩٠٦.

(٢) بن خلدون، المقدمه، باب٦ فصل ٧، علم الفقه.

(٣) عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس، ١٩٦٠.

(٤) مجلة الحوليات الأثرية السورية، مجلد١٠، دمشق ١٩٦٠.

(٥) ابن اياس، بدائع، جـ١، ص٩٣. والخان هى القيسارية (السوق المسقوفه) او الوكالة، وهى غرف ومخازن للتجار يعلوها طباق للسكنى بارتفاع دورين أو ثلاثة (سعيد عاشور، العصر المماليكى ص٤٤١).

(٦) ابن تغرى بردى،النجوم،جـ٧،ص١٩٤،القلقشندى،صبح الاعشى،جـ٤،ص٧٥.

ومثل الخان الذى فى العقبة وجعلت فيه الحواصل، كما حفرت حوله الآبار لخدمة الحجاج ، وغيرهم فى عهد السلطان الغورى(١).

وكذلك كانت بلاد الشام مركزا تجاريا هاما بين بلاد العالم. وكانت التجارة تعتبر المركز الأول، بالنسبة لاقتصادياتها. وأهم دعائم الثروة والمال، ويرجع السبب فى ذلك لموقعها الجغرافى وتوسطها لدول العالم الاسلامى، وأيضا بين الشرق والغرب فهى تقع فى الطرق التجارية منذ العصور القديمة.

وقد لعبت الصناعات والحرف دورها فى الاسواق المحلية مثل سوق الشماعين وسوق النقل والياميش. حتى غدت دمشق منذ عهد الظاهر بيبرس أهم مركز انتاج الاوانى الزجاجية، وتليها فى هذه الصناعة حلب. وكانت الشام تصدر الانواع البديعة من الزجاج والبللور، المصنع بها الى مصر والعراق وآسيا الصغرى وايران، وبلاد الصين(٢).

كما بلغت صناعة التحف المعدنية فى دمشق وحلب غايتها فى عهد الناصر محمد بن قلاوون(٣).

وقام التجار بدور رئيسى بما يملكون من رؤوس الاموال، فى تنشيط التجارة الخارجية التى تعد مصدر التجارة الحقيقية لبلاد الشام فى عصر سلاطين المماليك.

وكانت التجارة قائمة بين بلاد الشام، والتجار الاوربيين وخاصة الايطاليين، الذين كانوا يحرصون، على حسن العلاقات بينهم وبين الدولة

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٩، ص١٠٤٤.

(٢) م.س.ديماند، الفنون الاسلامية،ص٩٨، مراجعة احمد فكرى، ١٩٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٥.

المملوكية حتى أنهم أعادوا احدى السفن التجارية المملوكية التى استولى عليها قراصنة البحر الجنويين عام ١٢٨٩/٦٨٨ ارضاء للسلطان المملوكى قلاوون، وعقدوا معه معاهده صداقة واتفاقيه تجارية ١٣٠٩/٧٠٩(١).

وكانت جزيرة قبرص التى تواجه مدينة صور، تصدر الثياب والالات لبلاد الشام(٢).

أما عن التجارة بين الشام ومصر، فقد نشطت، القوافل التى كانت تحمل الحرير والعطور والتوابل، بحيث كانت تحتل المركز الاول فى الصادرات من بلاد الشام، كما كانت البلاد الشامية تقوم بدور الوسيط فى نقل البضائع التى ترد اليها من بلاد الشرق الاقصى مثل الحرير الصينى، والتوابل من الجزيرة العربية ومن غيرها. ثم تقوم، بتصديرها الى انحاء العالم(٣).

وكان يوجد فى الشام، قناصل مثلما هم فى مصر. وكان السلطان يستدعيهم فى المناسبات الهامة التىتستدعى ذلك، ومن أمثلة ذلك ماحدث فى عام ١٥١٠/٩١٦ فى عهد السلطان الغورى، عندما قبض نائب البيرة، فى شمال الشام، على جماعة من جواسيس لاسماعيل شاه الصفوى ملك العجم ومعهم مكاتبات الى عدة قناصل فى بلاد السلطنة المصرية ليكاتبوا ملوكهم بأن يكونوا معه يدا واحدة ضد الغورى وضد السلطان سليم العثمانى. وكانت الخطة أن يقوم الصفوى بغزو مصر برا والفرنجة يغزونها بحرا(٤).

---

(١) احمد رمضان، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام، ص١٢١.

(٢) المقدسى، احسن التقاسيم، ص١٨٤، ليدن ١٩٠٦.

(٣) احمد رمضان، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام، ص١٢١.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٧، ص٨٠٤.

فاستقدم الغورى قناصلة الفرنج فى عـام ١٥١٠/٩١٦ وهـم كمـا ذكرهـم ابن اياس (القنصل الذى بثغر الاسكندرية والقنصل الذى بدمشق والقنصل الـذى بطرابلس فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام، وهددهم بالشنق)(١).

ثـم أمـر السـلطان الغـورى بتسليم القنـاصل الثلاثـة الـى نـاظر الخـاص للتحقيق معهم فيمـا حـدث، وان لـم يعترفوا، يقـوم نـاظر الخـاص بتسـليمهم الـى الوالى(٢).

* * *

كانت الشام دائما مهدا لحضارات متعددة منـذ القدم، ترجـع الـى أصـول تمتد جذورها فى مختلف الحضارات السابقة، فعرفت بلاد الشام حضارة اليونـان والرومان وغيرها من الحضارات التى قطعت خلالها بلاد الشام مراحـل واسـعة فـى التقدم فـى الميدان الحضـارى حتـى صـار لهـا حضارتهـا المميـزة بيـن الحضارات الاخرى. ووضحت العوامل الحضارية فى بلاد الشام، فـى الاحـوال المعيشية، والتفنن فيها من السكن والمأكل والملبس وغيرها.

الى أن جاء الاسلام فى بلاد الشام وانتشـر العـرب فـى مختلـف أنحائـه، وعاشروا أهل الشام وخالطوهم، ونقلـوا، اليهـم لغتهـم ودينهـم وأخـذ العـرب مـن التراث الحضارى الشامى وصهروه فى تراثهم، وظهرت حضارة جديدة سـخرها العرب لخدمـة دينهـم بعـد ان وضعـوا فيهـا خلاصـة تجاربهم، ونفثـوا فيهـا مـن روحهم، وأبدعوا حتى تمكنوا من بناء حضارة متميزة نسخت ماقبلها(٣). حتى

(١) المصدر نفسه، جـ٨، ص٨١٣.

(٢) نفسه.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، الباب الرابع، فصل١٦، ص٣٦٩.

صارت اللغة العربية لسان جميع اهل الشام، بعد ان كانت السريانية. وتحول الشاميون الى الاسلام. وكان هذا التحول عاملا فى ابراز حضارة الاسلام فى بلاد الشام. وبقيت الحضارة الاسلامية فى تطورها حتى رسخت وثبتت أقدامها ليس فى بلاد الشام وحدها وانما فى جميع أمصار الاسلام.

فعن حياتهم الاجتماعية فانها تنقسم الى قسمين : الحضر، وهذه قد مارست الاشتغال بالزراعة والحرف. فمنذ بداية العصر العباسى، بعد أن اسقط حقهم فى العطاء فى بداية عصر المعتصم العباسى فى عام ٨٣٣/٢١٨ فجردهم بذلك من صفتهم الحربية كغزاة وماكان يترتب على ذلك من امتيازات طبقية يتمتعون بها، وحولهم الى مواطنين عاديين يمارسون الاعمال المدنية السائدة فى البيئة وفى الزراعة.

ومما لاشك فيه ان قبائل العرب المستقرة فى الشام، قد جعلت من الزراعة مهنة رئيسية لها وخاصة ان منهم من كان يمتلك مدينة عامرة مثل الامير عيسى بن مهنا الذى منحه السلطان قطز سلمية، وهى مدينة عامرة، كانت تابعة لحماه. وأقطعها السلطان لابن مهنا، أمير آل فضل خالصة له(١).

كما ان آل مهنا وآل فضل كانوا فى عهد الناصر محمد بن قلاوون يملكون عدة ضياع بأراض حماة وحلب، بل انهم كانوا يملكون بلاد امراء حلب وحماة ودمشق(٢) والبداوة وكانت تقوم على الرحلات الدورية المتكررة، للقبائل العربية، فى بادية الشام، حول مراكز مؤقتة سعيا وراء الرزق، والعمل فى الرعى والزراعة المتنقلة. وممن يشتغل بالرعى ، العرب والاكراد والتركمان،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٢٠.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٢، ص٥٢٦،٥٢٧.

مع بعض الاختلاف عند البدومن العرب، فالاكراد والتركمان، يشتغل بعضهم بالزراعة، وبعضهم الاخر برعى الشاة والبقر فى مساحات قليلة. أما العرب فمعاشهم أيضا الزراعة عند بعضهم وعند بعضهم الاخر رعى الابل، وهؤلاء يتخذون مساحات شاسعة فى سعيهم ورعيهم للابل لطبيعة الابل، وحاجتها الى الدفء، فهذه لم تتغير(١).

ومن أمراء العرب الذين منحوا الاقطاعات الكبيرة، الامير شطى بن عتبه أمير عرب الكرك، وهم بنو عقبة، من جذام عرب الجنوب. وذكر القلقشندى، أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اقبل على هذا الامير العربى و (أجله فوق السماكين وألحقه بأمراء آل فضل وآل مرا، وأقطعه الاقطاعات الجليلة)(٢).

وممن ينسب الى عرب الكرك، بنو زهير عرب الشوبك، وآل عجبون والعطويون والصونيون وغيرهم(٣).

وبنو جذام وكانت بطونهم منتشرة بين مصر والشام، اشتغل بعضهم بالزراعة أو الحراسة، وذكر المقريزى ان بنو جذام التى اختلطت بعض بطونها بمصر، كانت لهم مزارع(٤) واكثرهم مشايخ البلاد وخفراؤها(٥).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، الباب الثانى، فصل ثان، ص١٢١.

(٢) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص٢٤٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المقريزى، البيان والاعراب، ص٢١.

(٥) المصدر نفسه.

ومما لاشك فيه أن جذام الشام التى سكنت بوادى الاردن(١)، قد احترفت الزراعة هى أيضا، لان كلا من جذام مصر والشام، قد سكنوا ارضا ملائمة للظروف الطبيعية من حيث وجود الانهار، وخصب التربة، فى المناطق التى سكنتها. وهكذا يمكن تطبيق ذلك على بقية القبائل العربية التى سكنت بالغوطة والمرج من عرب زبيد وغيرها من البطون والعشائر العربية أحلاف آل فضل.

وللأمطار فى بلاد الشام بالاضافة الى الانهار تأثير على الانتاج الزراعى، فكان يحدث فى بعض السنين ان يتأخر سقوط الامطار فى بلاد الشام فتجف الابار ويفسد الزرع ويقع الغلاء فى الاسعار تبعا لذلك(٢)، وذلك مثلما حدث فى عهد العادل كتبغا فى عام ١٢٩٦/٦٩٦ وكان من عادة المسلمين أن يجتمعوا اذا تأخر سقوط الامطار ويدعون الله لاسقاطها لسقى الزرع(٣).

وفى الشام من المحاصيل، الذرة والشعير والارز، والبسلة واللوبيا والحلبة والسمسم والعنب والرمان، والقراصيا والموز والبرقوق والمشمش والخوخ والكمثرى، والجوز والبندق والزيتون.

وفيها من الابل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير، والغزلان والارانب، ومن الوحوش البرية، الاسود(٤).

---

(١) عمر كحالة، معجم قبائل العرب، جـ١،ص١٧٤.

(٢) المقريزى، اغاثة الامة، ص٣٢،٣٤، القاهرة١٩٥٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص٨٦، نعمان قساطلى، الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء، ص١١٦، ط. بيروت١٨٧٩.

وكانت بلاد الشام تمد بلاد الاسلام بالغلال أحيانا. مثل المجاعة التى حدثت فى عهد العادل كتبغا، وكان بالشام، مايزيد عن عشرين ألف غرارة ببلاد الكرك والشوبك، وبلاد الساحل، وكانت معدة للحملات الحربية، فحملت الى الامصار(١).

كذلك اعتنى سلاطين المماليك بتنشيط الزراعة فى الشام، فأنشأوا الجسور بالغور والساحل، ومنها جسر بقرية دامية بالغور على نهرالشريعة، واوقفوا عليه الوقف لصيانته(٢).

واشتغل العرب من البدو والحضر فى الجاهلية والاسلام، بأعمال الحراسة للطرق والقوافل، فكان دور البدو حراسة القوافل التى تمر بأراضيهم مقابل مبلغ من المال يدفع لهم، فكانوا، يقومون بتأمين المتاجر وحراسة الاموال، لقاء جعل معلوم.

وفى الشام اشتغل العرب بحراسة الطرق، وحماية القوافل التى تعبر الصحارى من اللصوص وقطاع الطرق. مثل قبائل جذام بالاردن والجولان(٣). وبنو عقبة بالمنطقة التى تقع بين مصر والحجاز الى حدود غزة(٤). ثم زبيد، ومساكنهم بالمرج والغوطة وكانوا يقومون بأعمال الحراسة وحفظ الاطراف(٥).

---

(١) المقريزى، اغاثة الامة، ص٣٤.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٧،ص١٩٤.

(٣) المقريزى،البيان والاعراب،ص١٨،القلقشندى نهاية الارب،ص٣٦٤،قلائد الجمان للقلقشندى،ميكروفيلم رقم٣٨١ معهد المخطوطات العربية بالجامعة العربية بالقاهرة.

(٤) القلقشندى، نهاية الارب، ص٣٦٤.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٦٩.

واشتهر العرب فى الجاهلية والاسلام بمهارتهم فى ركوب الخيل، والفروسية، وأسلوب الكر والفر، الذى أجادوه فى المعارك، ولذلك اهتموا باقتناء الخيول وتربيتها ، وتعهدوا الخيل بالعناية ، والرعاية، واهتموا بأصالتها، وحرصوا على تتبع أنسابها(١). ولذلك ألفت الكتب فى نسب الخيل. وكان للعرب فى الشام عناية فائقة باقتناء الخيل العتاق، دون غيرها، وهى التى ترجع الى أصول عربية خالصة، بمعنى أن الفرس العتق معروف النسب وسمى بذلك لعتقه، من العيوب ، وسلامته من الطعن فيه بالامور المنقصة.

وذكر الدميرى أن من الخيل ما لا يبول ويرث مادام عليه راكبه(٢). وفى العصر المملوكى، زاد اهتمام عرب الشام، بالخيل، وكان لفرسانهم دورهم فى المعارك، وعليهم كان الاعتماد فى القتال وكان الفرس هو الوسيلة الرئيسية فى الحروب المملوكية، فى قتال العدو، والنيل منه(٣).

ومن هنا ورد اسم الخيل فى القرآن الكريم مرتبطا بالجهاد، فى قوله تعالى : (وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم(٤)). وفى الحديث (الخيل معقود فى نواصيها الخير، الى يوم القيامة)(٥).

---

(١) كمال الدين الدميرى، حيات الحيوان، جـ٢،ص٢٢٩، القاهرة١٨٧٥.

(٢) ابن الكلبى، انساب فحول الخيل، تحقيق احمد زكى، القاهرة١٩٦٤.

(٣) ابن خلدون، المقدمه، ص٢٧٢،٢٧٣.

(٤) سورة الانفال، آية٦٠.

(٥) النويرى، نهاية الارب فى فنون الادب، جـ٩،ص٣٤٧.

وبلغ من عناية المسلمين بالخيل أنهم جعلوا للفرس، ضعف نصيب صاحبه، فكان للفارس سهم وسهمين لفرسه(١).

وفى عام ١٣١٥/٧١٥ أحضر محمد بن عيسى اخو الامير مهنا، للسلطان فرسا بلغ ثمنها مائة الف درهم وضيعة بثمانين ألف درهم(٢).

وقد ذكر المقريزى، ان عرب الشام فى ايام الناصر محمد بن قلاوون، (كثرت سعادتها واتسعت احوالها بالاموال والضياع، وحملتهم الدالة حتى طلبوا من السلطان الناصر بلاد أمراء حلب وحماة، ودمشق، فأنعم بها عليهم وعوض الامراء عنها)(٣).

ويستدل من المصادرات التى تعرضت لها ممتلكات العرب، فى عصر سلاطين المماليك على عظم ثروة العرب الحيوانية فى هذا العصر، والامثلة على ذلك كثيرة.

فعلى سبيل المثال، ماورد فى قائمة لممتلكات صودرت فى عام ١٣٠١/٧٠١ عددها مائة الف رأس من الخيل والجمال والاغنام(٤) وهذا عما كان يمتلكه العرب فى مصر.

---

(١) النويرى، نهاية الارب فى فنون الادب،جـ٩،ص٣٧٦، عبد الرؤوف عون، الفن الحربى، ص١٢٢.

(٢) المقريزى، السلوك،جـ٢،ق٢،ص٥٢٦،٥٢٧، ابن تغرى بردى، النجوم،جـ٩، ص١٦٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) زترستين، نصوص عربية من دول المماليك،ص١٠٧ K.V.Zettersteen ط.ليدن سنة١٩١٩.

اما ماكان يمتلكه آل مهنا وآل فضل وآل مرا من قبائل عرب الشام فى عصر المماليك، من الابل والغنم والخيل (فلا تدخل تحت حصر)(١). وكانت القبائل تقدم من قطعانها للسلطان عشرات الالاف من الغنم فى كل عام، زكاة مفروضة للسلطان(٢).

وقد تكرر تعرض الثروة الحيوانية العربية من الخيول، والجمال والاغنام للاستيلاء عليها بالالاف من بعض حكام المماليك، بطريقة مباشرة احيانا، لسبب أو لآخر، وأحيانا أخرى بتحريض قبيلة للاعتداء على الممتلكات الحيوانية لقبيلة أخرى(٣)، وقد كشفت هذه الاحداث التى سجلتها المصادر العربية عن حقيقة ماكان يمتلكه عرب الشام من ثروة من خيول وجمال واغنام هائلة، وكشف ايضا، عن مدى عناية العرب ومهارتهم فى حرفة الرعى.

ومن القبائل التى اشتغلت بالتجارة، جذام، وكانت بطون جذام تنزل بين الشام ومصر، فنشطت، تجارة النوى والشعير والعلف وكانوا يشتغلون بتجارة التمر ويصدرونه الى سائر الآفاق(٤).

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٢، ق٢، ص٥٢٧.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى، ص٤٢٣.

(٣) الصيرفى، نزهة النفوس والابدان فى تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشى،القاهرة ٧٠،ص٤٠٦، محمد بن طولون، مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان، تحقيق زيادة، سنة١٩٦٢، ص١١١.

(٤) ياقوت الحموى، معجم البلدان، ص١٨٣.

كذلك نسب الى قبائل جذام وثعلبه تصدير الغـلال، الـى الفرنـج[١]. زمـن الحروب الصليبية، على الرغم من ان بعض المصادر تنفى عن جذام وثعلبة هذا الدو ر[٢].

على أن مانسب اليهم فى حد ذاته يشـير بوضـوح الـى أن جذامـا وثعلبـه كانتا تشتغلان بالتجارة الخارجية، أما قبائل آل مهنـا وآل فضـل وآل مـراء، فقد امتلكت، الضياع واشتغلت بالزراعة وتربية الخيول وبيعها وجنوا من وراء ذلـك أرباحا طائلة[٣].

وكان أهل الشام وجيرانهم الارمن يشتغلون معا، فى تجـارة بيـع الخيـول والبغال والغلال والشعير والحديد، وحدث ان الأرمـن امتنعـوا عـن التعـامل مـع الشام فى عهد الظاهر بيبرس، فبعث اليهم السلطان بيـبرس لتمكيـن، أهـل الشـام من البيع والشراء فلم يستجيبوا اليه، خوفا من التتار. وهذا يشير بوضـوح الى أن أهل الشام، وكانوا يشتغلون فى تجارة الخيول والحبوب وغيرها مع الأرمن.

وكذلك فقد ذكر القلقشندى أن بعض السكان العرب، فى مدن عكـا وبـلاد الساحل وغيرها، قد مارسوا انواع التجارة وبعض الحرف الاخرى[٤].

وايضا قيام نوع من التعـاون وحريـة التنقـل بيـن، بعـض البـلاد الشـامية وبلاد الساحل التى حكمها الصليبيون[٥].

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ١، ق١، ص٧٠.

(٢) المقريزى، البيان، ص٦.

(٣) المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٢، ص٥٢٦.

(٤) القلقشندى، صبح الاعشى،جـ١٤، ص٣١.

(٥) عماد الدين الاصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص٣١.

أما الطوائف العنصرية، فقد اشتغلت هى الاخرى بالزراعة والرعى والصناعة وغيرها من الحرف الاخرى. فمثلا التركمان وهم قبائل بدوية من أواسط آسيا يتكلمون التركية ويعيشون على تربية الماشية ويتغذون من منتجاتها، ويشتغل نساؤهم بغزل الصوف ونسج السجاد(١).

* * *

ومن مظاهر التحضر فى الشام الزى، ولم يكن للناس فى العصر المملوكى حرية ارتداء مايرغبون من الملابس، وكان للسلطان حق التدخل فى تحديد الزى وقصر ارتداء انواع معينة من الثياب على جماعة معينة من الناس(٢).

وكان كبار رجال الدولة وامراؤها ورجال القضاء والفقه، يرتدون السراويل(٣). ولم يكن ارتداء السراويل قاصرا على الرجال دون النساء، بل كانت النساء يرتدين السراويل والقمصان وكانت السراويل بالنسبة للمرأة من الملابس الخارجية. ومن المعروف ان النساء يمكثن فى بيوتهن بدون سراويل(٤). وكانت بعض مدن الشام مثل نابلس يلبسن كساء واحدا بلا سراويل(٥).

---

(١) يوسف غوانمه، التاريخ الحضارى لشرقى الاردن فى العصر المملوكى، ص١٣٩ عمان١٩٨٢.

(٢) سعد الخادم، الازياء الشعبية، القاهرة١٩٦١،ص١٨.

(٣) المقريزى،السلوك، جـ١ ،ق١، ص١٧٢.

(٤) **Ahmed Abd Arrazik, La famme au temps de Mamelouks en Egypte le Caire, 1973. p.212.**

(٥) المقدسى، احسن التقاسيم، ليدن١٩٠٦، ص١٨٣.

وكان العرب يلبسون القمصان ذات الاكمام الواسعة، ولبس فرسان العرب فى الشام الثياب الاطلسى والقبابى، والديباج الرومى- وهو قماش لامع او ملون يعتبر تقليدا للحرير الصينى وهى كلمة فارسية تعنى لباس الروح(١).

وفى عهد السلطان محمد بن قلاوون لبس العرب الحرير الاطلسى، وكان الامير العربى، عندما يولى من الابواب السلطانية يكتب له تقليد شريف بذلك، ويلبس تشريفا اطلسيا أسوة بما هو متبع مع نائب السلطان(٢). ولبس العرب الخلع البابلى السكندرى(٣) والمطرز بالذهب. وذكر القلقشندى ان الملابس المطرزة لم يكن يلبسها الا من كان له اقطاع فى الحلقه(٤).

وصاغ السلطان لنسائهم الاساور الذهب المرصعة بالجوهر واللؤلؤ، وبعث لهن بالقماش السكندرى، وعمل لهن البراقع المزركشة، والشنابر بأكر الذهب(٥).

---

(١) المقريزى، السلوك،جـ١، ق١،ص٥٠٠،جـ١،ق٣،ص٦٩٠، ماجد، الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى، القاهرة١٩٦١،ص١١٤.

(٢) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤،ص٢٠٥.

(٣) (أخذت الاقمشة الاسلامية، أسماء غالبا من أسماء المدن التى صنعت فيها، مثل الدمشقى، اشتق اسمه من اسم دمشق، الحلبى وهو منسوج فى حلب) ماجد، الحضارة الاسلامية،ص١١٣،١١٤.

(٤) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤،ص٤٠.

(٥) (الشنابر جمع شنبر، وهى كلمة فارسية معربة، ومعناها شريط حرير أسود أو احمر قاتم عرضه شبران وطوله نحو سبعة أذرع، وتلفه النساء على رؤسهن فوق العصابة بحيث يتدلى أحد طرفيه من مقدم الرأس والثانى من مؤخرها)(المقريزى، السلوك، جـ٢،ق٢، ص٥٢٨.

وفي عهد محمد بن قلاوون أيضا لبس النساء العرب الشاميات، الطرحة(١) والفرجيات(٢) التى بلغ ثمن الواحدة منها عشرة آلاف دينار ولبسن الخلاخيل الذهب والاطواق المرصعة بالجواهر الثمينة والقباقيب الذهب المرصعة، والأرز الحرير وغير ذلك. ولم يكن لباس البدو قبل عهد السلطان محمد بن قلاوون (غير الثوب من القطن والبرقع المصبوغ، وفي يدها سوار من حديد)(٣).

وكان العرب قبل عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (لبس أمرائهم، الى آخر الايام المنصورية قلاوون، الطراطير الحمر من تحت العمائم الشامية من القطن، وكانت خلعهم اما مسمط أو كنجى)(٤).

والأمير مهنا بن عيسى هو اول من لبس منهم (طرد وحش) وهو نوع من قماش حرير منقوش بمناظر الصيد والطرد كانت تصنع منه الهدايا

---

(١) الطرحة: تطلق الطرحة على خمار المرأة، والطرحة ايضا شاش رفيع يلف على العمامة بهيئة مخصوصه، وكانت العادة الا يطرح الا من علم فضله واشتهر.(على مبارك، الخطط التوفيقية،جـ١٠،ص٩٢.

(٢) الفرجيات: لباس يشبه القفطان او العباءة فهو مفتوح من الامام من أعلا الى أسفل الى القدمين من مزررة بالازرار، وأحيانا يلبسونها وتكون الفتحة من الخلف وليس من الامام. (القلقشندى، صبح الاعشى،جـ٤، ص٤٠، سعيد عاشور، العصر المملوكي، ص٤١٦،٤٣٨.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٩،ص١٧٦، المقريزى، السلوك، ق٢ ص٥٢٩.

(٤) المسمط: هو القماش من الحرير الاصفر والاحمر، مزين بنقش بارز، والكنجى: بغير ضبط، وهو قماش منسوج من قطن وحرير (المقريزى، السلوك،جـ١،ق٣،ص٨٤٧، جـ٢،ق١، ص٥٢٨،وانظر.Dozy: supp Dict

السلطانية، أهداه له السلطان المنصور لاجين لمروة بينهما[١] والطرد وحش كما وصفه ايضا على مبارك فى خططه بأنه ثانى الأطلسين[٢].

وكان أمير ال عيسى بن مهنا، عندما يكتب له تقليد شريف من السلطان، كان(يلبس تشريعا أطلسيا أسوة النواب)[٣].

وكان أهالى دمشق، يلبسون الملابس الضخمة ويتعممون، رجالا ونساء بالعمائم الكبيرة جدا[٤]. حتى أن الشخص كان يستطيع ان يلبس عمامة طولها مائة ذراع[٥].

اما اشراف العرب الذين ينتسبون الى بيت الرسول، فقد لقوا ترحيبا كبيرا من الاشرف شعبان الذى أمرهم بلبس، عمائم بها شطفات خضر تمييزا لهم عن غيرهم من سائر القوم، وتعظيما لقدرهم، ومما قيل فى هذه المناسبة للشيخ شهاب الدين بن جابر الاندلسى :

جعلوا لأبناء الرسول علامة .·. ان العلامة شأن من لم يشهـر

نور النبوة فى كريم وجوههم .·. يغنى الشريف عن الطراز الاخضر[٦]

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٢، ق٢، ص٥٢٨، سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى، ص٤٣٢، القاهرة١٩٦٥.

(٢) على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ١، ق٩١.

(٣) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٤، ص٢٠٥، (والتشريف، هو الملابس المهداه من السلطان الى كبار الامراء فى مناسبات خاصة أخصها التعيين فى الوظائف الكبرى كالنيابة، سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٤٠١.

(٤) نعمان قساطلى، الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء، بيروت١٨٧٩، ص١٢٦.

(٥) ماجد، الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٣، ص١١٤.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٩٥.

وللشيخ شمس الدين بن المزين :

أطراف تيجان أتت من سندس .·. خضر كأعلام على الاشراف

والاشرف السلطان خصصهم بها .·. شرفا لتعرفهم من الاطراف(١)

وعرف العرب النقاب رجالا ونساء فلبس الرجال اللثام، ليقيهم من لفح الحر، وانتشر اللثام كزى لدى عامة النساءالعرب بعد الاسلام وخاصة بعد أن جعله النبى لزوجاته، فسارت النساء المسلمات على نفس النهج(٢). وصارت المرأة فى بلاد الشام لاتخرج بدون ازار ويلبسن على وجوههن المناديل حتى لايراهن أحد(٣).

ومن ملابس العرب التى عرفوا بها أيضا، العقال والكوفية والعباءة يستترون بالعباءة من حر الشمس ويتقون بها برد الشتاء ويستخدمونها وسادة وغطاء وفى حمل الطفل أو الاطعمة ومثل ذلك وهى خاصة بهم(٤). (وكان أهالى دمشق يلبسون الملابس الضخمة ويتعممون رجالا ونساء العمائم الكبيرة جدا)(٥).

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ماجد، الحضارة الاسلامية ،ص١١٦.

(٣) نعمان قساطلى،الروضة، ص١٢٦.

(٤) المقريزى، السلوك،جـ٢ق١،ص١٢٣، احمد الشرباصى،شكيب أرسلان، داعية العروبة والاسلام، ص١٦٣،الجيزة١٩٦٣، مكى الجميل، البداوة والبدوفىالبلاد العربية ، سرس الليان١٩٦٢، ص٥١.

(٥) نعمان قساطلى، الروضة، بيروت١٨٧٩، ص١٠٦.

وكانت النساء تلبس أيضا الكوفية على رؤسهن، وتربط تحت الرقبة(١). وكانت المرأة تخرج وعليها ازار وتغطى وجهها بمنديل فلا يراها أحد(٢).

وكان أهل الشام لايتخففون فى الصيف، انما هى نعال الطاق(٣)، وكان بعض النساء يلبسن السقامين وهو خف ثان يلبسنه فوق خف أخر(٤).

وماقدمه السلطان الناصر محمد قلاوون للعرب من عطاء بسخاء لم يسبقه أحد من قبله من سلاطين المماليك (حتى قال له صفرة بن سليمان بن مهنا "لقد افدست علينا نسواننا، يريد لكثرة ماغمرهن السلطان بالمال ")(٥).

وقد تعرض السلطان الناصر محمد لنقد شديد بسبب ماقدمه للعرب وخاصة لنسائهم من الهدايا الثمينة حتى قال له مرة بن مهنا من عرب الشام (خف الله فى المسلمين وبيت المال، فانك تفرقه على العرب ونسائهم وصغارهم فكيف يحل لك هذا؟ ومتى سمعت عن بدوية انها تلبس غير الثوب من القطن والبرقع المصبوغ، وفى يدها سوار حديد(٦).

والحقيقة ان عرب الشام كانت تربطهم بالسلطان الناصر علاقة وطيدة بسبب هوايته فى اقتناء الخيول العربية وتعلقه الشديد بها، وكان لايبخل بمال فى سبيل الحصول على بغيته منها، فلذلك أغدق عليهم الهدايا حتى تغير حال المرأة

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٨، ص١٤٢.

(٢) نعمان قساطلى، الروضة، ص١٠٦.

(٣) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص١٨٣.

(٤) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٧،ص٣٣١.

(٥) المقريزى، السلوك، جـ٢، ق٢، ص٥٢٩.

(٦) المصدر نفسه.

البدوية من عرب الشام ، فخلعت الملابس والحلى الرخيصة، واستبدلتها بالحرير الاطلسى والطرح المزركشة والحلى المذهبة.

ولم يكن هناك فرق فى الزى فى الشام والزى فى مصر. وسبب ذلك أن الدولة كان لها حق التدخل فى تحديد الزى وقصر ارتداء انواع معينة من الثياب على جماعة من الناس(١) وماكان يصدر فى مصر من أوامر سلطانية وتوجيهات، بخصوص الزى، كان يصدر مثله فى بلاد الشام، ويلزم الجميع بالتنفيذ، ومن يخالف يعاقب(٢).

ومن أطعمة العرب فى الشام، التمر واللبن واللحم والارز والدقيق، ويضعون الحساء من الدسم والدقيق ويسمونها الحريرة، ومن طعامهم : البسيسة، وهو كل شىء خلط بغيره(٣)، والمنسف، وهى أكلة شعبية فى بلاد الشام، تصنع من الارز واللحم المطبوخ باللبن الرائب. ويعرف ايضا بالشاكرية(٤)، والمنسف ايضا، طبق مستدير، واسع من الخشب يقدم فيه الطعام(٥).

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ١، ق٣،ص٩١٠، وراجع ماورد فى هذا الشأن فى الرسالة المقدمه من محمود محمد السيد للحصول على درجة الماجستير، وعنوانها " تاريخ القبائل العربية فى مصر فى عهد الدولتين الايوبية والمملوكية" س٢١٠٠ جامعة الاسكندرية.

(٢) المقريزى، السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٠.

(٣) ابن عبد ربه العقد الفريد، جـ٣،ص٢٩٤، القاهرة١٣٠٥.

(٤) يوسف غوانمه، التاريخ السياسى لشرقى الاردن، ص ١٧٤، ١٩٨٢.

(٥) نعوم شقير، تاريخ سينا، جـ٣، ص٣٤٤.

ومن أسماء الطعام عند العرب الوليمة، وهو طعام يقدم، فى الافراح، والاعذار وهوطعام يقدم عند ختان الاطفال، والمأدبة، وهو كل طعام يقدم لدعوة. والسفلى، وهو طعام يقدم قبل الغداء(١). ومن أطعمه العرب أيضا، الوشيقة من اللحم، وهو المسلوق فى الماء، ثم يقدم اللحم مع الحساء(٢). والعصيدة(٣)، يغلى الماء فى حلة ويصب عليه الدقيق قليلا قليلا، مع تحريكه، حتى يكون له قوام فيصب فى القصاع، ويقدم. واذا تم غلى الدقيق باللبن الحليب بدل الماء، فانهم يسمونه التلبانه. والدفينة، وهى فتة من الخبز، او الارز بمرقة اللحم ويوضع فوقها اللحم قطعا. والجريشة، ويجرش القمح بحجر الرحى حتى يصير برغل، خشن، ثم يسلق جيدا ثم يسكب فى قصاع ويخلط باللبن والسمن ، والجريشة والعصيدة أكثر أكل العرب(٤).

ويستخدم العرب فى تحضير طعامهم، بعض الالات منها : حجر الرحى، ويستعمل لطحن الدقيق، والغرابيل وهى لغربلة الحبوب وتنظيف الدقيق، والصاجات وهى من الحديد، وهى للخبز وعمل الأرغفة(٥).

وذكر المقدسى، فى أحسن التقاسيم، أطعمة أهل الشام وطريقة صنعهم للخبز، فذكر ان لهم مخابز، وهى تنور فى الارض صغير، يفرش بالحصى ويوقد حوله وفوقه، فاذا احمر الحصى طرحت الأرغفة على الحصى.

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٣، ص٢٩٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) نعوم شقير، تاريخ سينا، جـ٣، ص٣٨١.

(٥) المصدر نفسه.

وعندهم طباخون للعدس والبيسار، ويقلون الفول المنبوت بالزيت ويصقلونه ويباع مع الزيتون(١).

وأما عن الفروسية، التى تولدت منها عند العرب لعبتان، الاولى الصولجان أو لعبة الكرة على الخيول وفى عصر سلاطين المماليك كان السلاطين يلعبون لعبة الكرة فوق الخيول فى الميادين الواسعة مع بعض الامراء العرب. ومن أمثلة ذلك ما حدث للامير زامل بن على أمير آل على من عرب الشام، الذى كان معتقلا بالقاهرة، ثم افرج عنه السلطان الظاهر بيبرس ولعب معه فى الميدان(٢).

الثانية لعبة المبارزة على الخيول بين رجلين فى مواسم ومناسبات، بعينها، ثم تولدت العاب أخرى منها الصيد على الخيول ويدخل ضمن ذلك من الاعيب الفروسية، عندما يمتطون الخيول ويحضرون المغنية تجلس سافرة فى الهودج وهى تغنى وأمامهم العبيد تميل على الركائب وترقص(٣).

ثم الغناء، ومنه حداء الابل، وهو الغناء للابل، وهى تشرب او تسير لانها تستعذب بالشرب، وتحب السير على صوت الحداء.

ومن آلات الطرب عند العرب، المنجيرة، وهى الصفارة، والزمور، وتسمى فى مصر القرون(٤).

ويسكن العربى من البدو فى خيام من الشعر، تصنعها النساء، وتتكون الخيمة من تسعة أعمدة، ثلاثة فى الوسط وثلاثة فى كل جانب من جانبى الخيمة

---

(١) المقدسى، احسن التقاسيم، ص١٨٣.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ١، ق٢، ص٥٣٥.

(٣) المصدر نفسه، جـ١، ق٣، ص٦٩٠.

(٤) نعوم شقير، تاريخ سينا، جـ٣، ص٣٤٤.

ويوضع عمود فى صدر الخيمة فى اتجاه الشرق ويسمى(المقدم) ويوضع عمود فى وسطها وهو أعلى الاعمدة، ويسمى الواسط، والعمود الثالث يوضع فى الغرب ويسمى (الزافرة). أما الاعمدة التى فى الجنبين فتسمى (اليد والعامر والرجل) ويصنع سقف الخيمة من شعر الماعز، اما الاجناب وتسمى (الرواق) فتحاك من وبر الابل، وصوف الغنم وتثبت الخيمة بالحبال والاوتاد. وتقسم الخيمة الى قسمين بواسطة ستارة تمتد من الشرق الى الغرب ويطلق (المقند)، فتصير الخيمة قسما للرجال، وقسما للنساء وللخيمة باب من جهة الشرق، يظل مفتوحا فى الصيف، ويقفل فى أيام المطر والبرد[١].

ومن عادات العرب : حب الضيافة والكرم ومراعاة الجار، وتعظيم الجميل والوفاء بالعهد والافتخار بالنسب والشجاعة، وعلو الهمة وبذل المعروف والانفة وعزة النفس وعدم احتمال الضيم وكره التقيد بنظام، والجرأة فى طلب الحق، وحب المساواة والحرية والشورى[٢].

وكانت الاسواق الشامية، فى حلب وحماة ودمشق، تحتفل فى العصر المملوكى بالمناسبات الدينية، فكانت اسواق الشماعين، تزين الحوانيت فى شهر رمضان بأنواع الفوانيس الشمعية.

وكانت الاوامر السلطانية تصدر، لتحدد شكل الشموع، ووزنها. وكل مناسبة رسمية يختلف شكل الشمع ووزنه عن المناسبة الاخرى. فكانت الشموع كبيرة الحجم تزن مابين عشرة ارطال الى قنطار. وكانت الشموع الكبيرة تحمل

---

(١) نعوم شقير، تاريخ سينا، جـ٣، ص٣٧٢.

(٢) ابن خلدون، المقدمه، الباب الثانى، الفصلين ٤،٥، نعوم شقير،تاريخ سينا،ص٣٦٧، مكى الجميل، البداوة، والبدو، ص٣٥، سرس الليان ١٩٦٢.

على عجل وكانت الحوانيت تستمر مفتوحة الى منتصف الليل لكثرة الاقبال على الشراء منها(١).

أما اسواق النقل والياميش، فكانت تمتلىء فى شهر رمضان، بأنواع الياميش التى تفرش على ابواب الحوانيت، فيقبل أهل الشام على الشراء منه، ويقدموه للضيوف، ويوزعونه على أطفالهم حين يدورون على البيوت، يحملون الفوانيس المضاءة ويغنون الاغانى الرمضانية فى جماعات صغيرة.

وفى شهر شعبان كانت بلاد الشام تصدر الياميش والنقل بكميات هائلة الى مصر، استعدادا لشهر رمضان. وكانت الشام تصدر ايضا الزيت والصابون والفستق والجوز واللوز والخرنوب(٢).

وكان الرجال والاطفال يصومون شهر رمضان، ومن وجده المحتسب مفطرا عاقبه عقابا بسيطا للجهر به، حتى وان كان مريضا او مسافرا، فان لم يكن له عذر للافطار عاقبه و"ادبه، وعرضه للاستهزاء وسخرية الأطفال منه(٣).

* * *

اما عن العلم والثقافة فى الشام فنجد أنها فى عصر الحمدانيين كانت صورة للحركة فى مصر وقد ازدهر العلم فى بلاد الشام بتشجيع من امراءعرب

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٩٦، احمد رمضان، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام، ص٢٤٥، القاهرة ١٩٧٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

الشام، وبذلوا فى سبيله الاموال للعلماء بسخاء، فظهر فى بلاد الشام طائفة كبيرة من المحدثين والفقهاء والصوفية والقراء.

وعلماء الشام امثال مكحول والاوزاعى والثورى وغيرهم، كان لهم من الأثر فى الشام فى الحديث والفقه، مثلما كان للعلماء بمصر، فمثلا الامام الاوزاعى المتوفى ٧٧٣/١٥٧ الذى ظهر له مذهب خاص عرف بالاوزاعية، وصار من أوائل مذاهب أهل الشام كقطر مستقل. (كان له من الأثر فى الشام فى الحديث والفقه ما لليث بن سعد والشافعى بمصر)(١).

والاوزاعى وهو الامام الاكبر للمدرسة الشامية القديمة فى الشريعة، وساد ببلاد الشام، ثم امتد الى بلاد المغرب وحتى الاندلس.

ويكاد يكون الطابع للحركة العلمية فى الشام ومصر طابعا واحدا لقربهما واتصالهما الجغرافى، وتبادل العلماء الزيارة والرحلة فكان لعلماء الشام رحلات بلغت أقصى الغرب من بلاد الاسلام مثل محمد بن على الانطاكى الذى ولد بأنطاكية عام ٩١١/٢٩٩ ودرس الفقه وغيره من العلوم، ورحل الى بلاد المغرب والاندلس لكى ينشر العلم بين أهله وعشيرته من اهل الاسلام هناك(٢).

وكانت اكبر حركة فى الشام فى الادب، واللغة وعلومها فى عصر الحمدانيين حيث بلغت حركة الشعر والنحوواللغة فى بلاد الشام مابلغته فى مصر أيضا، فقد جعل العلماء العرب وجهتهم حلب عاصمة الدولة الحمدانية، حيث قامت حركة الشعر والادب، مثلما كانت فى مصر والعراق(٣).

---

(١) أحمد أمين، ظهر الاسلام، جـ١، ص١٧٥.

(٢) عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى، طبقات الشافعية جـ٢، ص٣١٣.

(٣) أحمد أمين، ظهر الاسلام، جـ١،ص١٧٧، القاهر، ١٩٥٢.

وكان فى بلاط سيف الدولة الحمدانى، أبو على الفارسى وكان من أشهر اللغويين

والعلوم فى العصر المملوكى، اهتم العلماء العرب فى بلاد الشام بالفنون، والآداب والعلوم وألفوا الكتب فى التاريخ والآداب واللغة وعلوم الدين. وفى فروع العلم المختلفة، ولقى العلماء العرب فى بلاد الشام، من الحكام المماليك تشجيعا للدور الذى قاموا به فى بلاد الشام، والرقى بها فكريا وحضاريا، وكان الحكام المماليك من اجل ذلك، يعطون علماء العرب فى بلاد الشام ويجرون عليهم من الاقطاعات والمكافآت المالية الشىء الكثير(١).

= والنحويين . عاش فى حلب وشارك فى اجتماعاته الادبية، وكان بينه وبين المتنبى شاعربنى حمدان مناظرات فى النحو واللغة.

وابن خالوية، وهو من اكبر الائمة، فى اللغة والنحو والادب، وعلوم القرآن فى ذلك الحين.

والفيلسوف العربى الكبير الفارابى ٣٢٩/٩٥٠، وكان يعلم طلابه فى حدائق حلب. وكتب فى المنطق والالهيات، وفى السياسة والرياضة والكيمياء والموسيقى وأخذ من علوم اليونان، وخالف المعلم الاول، وأتى بالجديد فى هذه العلوم. (ابن خلدون، المقدمه، ص٤٨١)، ونال الحظوة لدى سيف الدولة وصحبه فى بعض حملاته الحربية، وتوفى بدمشق. فقد ألف الفارابى كتاب "احصاء العلوم" وقسمه خمسة فصول، وجعل الفصل الاول فيه فى علم اللسان وفروعه من اللغة والنحو والصرف والشعر والكتابة والقراءة، وتشتمل بقية فصول الكتاب على علوم فى جميع فروع المعرفة الانسانية، فذاع الكتاب بين العلماء فى العالم الاسلامى (وأصبح نواه لغيره، من الموسوعات العلمية العربية (دائرة معارف الشعب،ك٤٦،ص١٦٤، ١٦٦)وفى العصر الفاطمى، ازداد نشاط الحركة العلمية فى الشام ومصر.

(١) القلقشندى، نهاية الارب، ص١٠٣.

ولعل أبرز علماء العصر فى بلاد الشام، ه/ طبقة المؤرخين وكتاب التراجم والسير نذكر منهم على سبيل المثال : محمد بن طاهر المقدسى ت٥٠٧/١١١٣ صاحب الرحلة والتصانيف والتعليقات الممتازة.

والحافظ بن عساكر ت ٥٧٢/١١٧٦ محدث الشام ومؤرخها، ومن أعيان فقهائها، صاحب " تاريخ دمشق ".

وابن خلكان وهو أحمد بن محمد بن ابراهيم ت ٦٨١/١٢٨٢ أخذ العلم من علماء العراق، وتعلم من ابن شداد من علماء حلب ومن غيره، تولى القضاء بمصر والشام. وكان اهل الشام يحبونه لاستقامته وعدالته فى أحكامه حتى أنه عندما استدعى من مصر – وكان مقيما بها بعد عزله من منصبه فى قضاء الشام – ليعود الى منصبه فى قضاء الشام، فرح بقدومه اهل الشام. ووصف شعراء الشام مشاعر الحب التى استقبل بها بالشام.

ومن ذلك قول نور الدين بن مصعب :

رأيت أهل الشام طرا .·. مافيهم قط غير راض
نالهم الخير بعد شر .·. فالوقت بسط بلا انقباض
وعوضوا فرحة بحزن .·. مذ انصف الدهر فى التقاضى
وسرهم بعد طول غم .·. قدوم قاصد وعزل قاضى
فكلهم شاكر وشاك .·. بحال مستقبل وماضى

وذلك ان ابن خلكان كان قد عزل من القضاء وعين مكانه، القاضى عز الدين بن الصايغ، ثم عزل ابن الصايغ بعد سبع سنين وعين بن خلكان لمنصب

القضاء بعد استدعائه من مصر للشام ومن مؤلفات بن خلكان " وفيات الأعيان(١) ".

محمد بن شاكر الكتبى ت ١٣٦٢/٧٦٤ وهو محمد بن شاكر بن احمد بن عبد الرحمن درس على ابن الشحنه، والمزى وغيرهمامن علماء الشام، واشتغل بتجارة الكتب وكان اكثر علمه من طريق الكتب بحكم مهنته، نشأ فقيرا ولما مارس الاشتغال بالكتابة ولحسن خطه ووضوحه ولمهارته، اقبل عليه اهل العلم، ولمرؤته وحسن معاملته مع الناس، ازدادوا عليه اقبالا، وناله الاموال الوفيرة– ومن مؤلفاته " عيون التواريخ " و" روضة الازهار فى حديقة الاشجار" و" فوات الوفيات والذيل عليها ".

وكان العينى ت ١٤٥١/٨٥٥ من المؤرخين المشهورين فى العصر المملوكى، ولد فى عينتاب – بين حلب وانطاكية– وسافر الى القاهرة، وتولى بها وظيفة المحتسب، وكثير من المناصب الرفيعة، ومن مؤلفاته " عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان " وهذا الكتاب من أهم كتب العينى فى التاريخ، (وهو كذلك من أهم ماأهمله القوامون على نشر المخطوطات العربية واحيائها)(٢).

أما خليل بن شاهين ت ١٤٦٨/٨٧٣ وهو من مواليد بيت المقدس، وتقلد كثير من المناصب والنيابات بمصر والشام. ومن مؤلفاته، " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك " تناول فيه الدستور المملوكى وبين الوظائف الحربية والادارية فى دولة المماليك البرجية.

---

(١) ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، جـ١، ص١١٠.

(٢) محمد مصطفى زيادة، المؤرخون فى مصر، ص٢٠، القاهرة ١٩٥٤.

وأما محمد بن طولون الدمشقي ت ١٥٤٥/٩٥٢ وهو من مواليد دمشق، تعلم على يد شيوخها، ثم رحل الى مكة والقاهرة فى طلب العلم وعرف ب"انه سيوطى الشام"(١).

ومن الجغرافيين، علماء عرب تخصصوا فى وصف البلدان ودراسة الاقاليم، نذكر منهم :

الخوارزمى : ت ٨٣٠/٢١٥ أبو جعفر محمد بن موسى. وله كتاب (صورة الأرض) وصف فيه المدن والجبال والبحار والجزائر والانهار ومنها بلاد الشام، التى وصفها متحريا الدقة ومستعينا بخطوط الطول والعرض(٢).

وابن خرداذبة : ت ٩٨٢/٢٧٢ ألف كتاب " المسالك والممالك " ويعد هذا الكتاب أهم المصنفات العربية فى الجغرافيا، حيث وصف طرق التجارة الرئيسية فى العالم العربى، بجانب وصفه لجهات قاصية منها الصين وكوريا واليابان.

واليعقوبى : ت ٨٩٧/٢٨٤ أحمد بن ابى يعقوب، ويعد " كتاب البلدان" أهم مؤلفاته، وصف فيه ايران والعراق والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة(٣) والمغرب .

والمسعودى ت ٩٥٧/٣٤٦ : على بن الحسن بن على وله مؤلفات كثيرة منها " مروج الذهب ومعادن الجوهر " و " التنبيه والاشراف " ويتناول، فيه الافلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها، كما يتناول فصول

---

(١) محمد مصطفى زيادة، المؤرخون فى مصر، القاهرة ١٩٥٤، ص٧٨.

(٢) الخوازمى، صورة الارض، ط . فينا سنة ١٣٤٥هـ ، تصحيح Hans V Mazik.

(٣) مصطفى الشهابى، الجغرافيون العرب ، ص٤٥.

السنة ويصف الرياح وشكل الارض(١) ومن علماء الجغرافيا من الشوام نذكر:

المقدسى ت ٩٨٨/٣٨٩: محمد بن احمد، وله كتاب " أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم " ألف هذا الكتاب معتمدا على رحلاته، وملاحظاته الشخصية(٢).ومن جغرافى العصر المملوكى نذكر :

ياقوت الحموى : ت ١٢٢٩/٦٧٦ صاحب كتاب " معجم البلدان ".

وأبى الفدا : ت١٣٣١/٧٣٢،اسماعيل ابو الفدا، وله " كتاب البلدان ".

أما فى الطب، فى العصر المملوكى فى بلاد الشام فنذكر جمال الدين بن الرحبى الطبيب العالم.

ومهذب الدين عبد الرحيم المعروف بالدخوار وهو صاحب المدرسة الطبية بدمشق والتى عرفت بالدخواريه، ونجم الدين يحيى بن اللبودى وله مدرسة عرفت باسمه بدمشق(٣).

ولم يقتصر هؤلاء الاطباء العرب، على دراسة الطب فحسب، وانما اشتغلوا بسائر العلوم والمعارف.

وممن برع فى العلوم الطبيعية والطب أيضا

رفيع الدين الجيلى، ورشيد الدين الصورى، وعلى الدين بن النفيس الدمشقى، وموفق الدين احمد المعروف بابن أبى أصيبعه الدمشقى، وهو صاحب كتاب " طبقات الاطباء " وعبد الوهاب بن سحنون، طبيب بمارستان الجيل بدمشق(١).

---

(١) مصطفى كامل ، الشريف الادريسى، ص١٦، ط . القاهرة١٩٦٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) احمد رمضان احمد، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام،ص٢،القاهرة ١٩٧٧.

(٤) المصدر نفسه.

وكان فى الشام طائفة كبيرة من الشعراء والمحدثين، والفقهاء والصوفية والقراء الشاميين منهم من بلغ تأثيره الدينى، أقسى الجنوب العربى مثل تقى الدين بن تيمية الذى استحدثت منه الحركة الوهابية فى بلاد الحجاز حافزها بعد عدة مئات من السنين، فأحدثت بذلك حركة التجدد الاسلامية(١).

ومن الفقهاء المشهورين فى علوم الدين :

تقى الدين ابن تيمية : ت ١٣٢٧/٧٢٨ هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام شيخ الاسلام. تعلم الفقه ودقائقه وكان من أئمة النقد اشتهر بقول الحق والنهى عن المنكر وكان ذو سطوة واقدام وعدم مدارة، جهورى، فصيح اللسان، بلغت مؤلفاته فى مختلف الفنون والفتاوى الدينية ٣٣٠ مجلدا(٢).

شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبى ت ١٣٢٤/٧٢٥ تعلم الفقه(٣) من ابن المنجا وغيره، من علماء الشام ثم انتقل الى مصر، وعلا شأنه بها، لبلاغته وتواضعه وظل بمصر مدة، ثم عاد الى الشام وتولى منصب القضاء بدمشق ويقى يشغل هذا المنصب ثمانية أعوام وكان مولده بدمشق عام ١٢٦٥/٦٦٤ ومن مؤلفاته : " مقامة العشاق " و " منازل الاحباب" و "حسن التوسل فى صناعة الترسل"، ومن شعره :

---

(١) بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص: ٣٧.

(٢) ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، جـ١ ص١١٠.

(٣) الفقه: هو معرفة احكام الله فى أفعال المكلفين، من الحلال والحرام واستخراج الاحكام من الكتاب والسنة بالبراهين والادلة واصحاب هذا العلم يسمون باسم الفقهاء والعلماء، وللفقه مذاهب أربعة، أشهرها فى الشام، مذهب ابن حنبل وهناك مذاهب للشيعة ولكن اهل السنة لايرون الاخذ بها لغرابتها(ابن خلدون، المقدمه، الباب السادس، الفصل الرابع فى علم الفقه).

قَبلتُ رجـل حبيبـــى .·. فازور واحمر خـــدا

وقال تلثم رجلــــى .·. لقد تنازلت جـــدا

فقلت لم آت ذنبـــا .·. ولاتعديت حـــدا(١)

رجل سعت بك نحـوى .·. حقوقها لاتــــؤدى

وممن اشتغل بعلم الفرائض والحساب(٢) من علماء الشام محمد بن عبد القادر بن جبريل الغزى ت٩٢٨/١٥٢١ قدم الى دمشق من غزة وتعلم بها من الشيخ عبد النبى المالكى، ثم برع فى علم الفرائض والحساب، ثم ولى القضاء المالكية بالشام فى عام ٩١١/١٥٠٥ وعندما ولى منصب القضاء سار سيرة طيبة وكان عفيفا زاهدا ينصر الحق(٣).

وممن تولوا المناصب الادارية فى الدولة ووصفوا فى أشعارهم الحملات الحربية، وتحركات السلاطين فى ميادين القتال :

يوسف بن سيف الدولة بن زماح الحمدانى المهمندار(٤)، من شعر له يصف عبور السلطان الظاهر بيبرس لقتال التتار ودحرهم :

لوعاينت عينـاك يوم نزالنـــا ... والخيل تطفح فى العجاج الاكـــدر

وقد اطلخم الأمرواحتدم الوغى ... ووهى الجبان وساء ظن المجتـــرى

لرأيت سدا من حديد مايــرى ... فوق الفـرات وفوقه نار تــــرى

---

(١) ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، تحقيق احسان عباس، بيروت،مجلد ٤،ص٨٢.

(٢) علم الفرائض: هو معرفة فروض الورثة وتصحيح سهام الفريضة للورثة وهو فن بذاته قالوا عنه، ان علم الفرائض ثلث العلم وقيل نصفه. (ابن خلدون، المقدمه، ص٤٥١).

(٣) ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٨، ص١٦٠.

(٤) المهمندار: هوالذى يتلقىالرسل والعربان الواردين علىالسلطان وينزلهم دارالضيافة ويتحدث فى القيام بأمرهم(سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكى،ص٢٥٦).

وقـال :

والظاهر السلطان فى آثارهم ... يندى الرؤس بكل غضب أبتـــــر

ذهب الغبارمع النجيع بصقله ... فكأنه فى غمده لم يشهـــــــــــر(١)

وفى عصر الدولة المملوكية، كان النشاط مرتبطا الـى حـد كبير بـالعلوم الدينية من حديث وتفسير وفقه.. وبالتالى، فان الاساتذة والطلاب فى ذلك العصر كانوا من رجال الدين.

ومن طائفة التركمان، ممن تولى المناصب الادارية، الكـبرى فـى الشـام، وكان له دور بارز فى بنـاء المـدارس، وأوقـف عليهـا الاوقـاف الكثيرة للانفـاق عليها وفرشها بالبسط وزينها بالقناديل المكفتة، وعين لها المشايخ للتدريس فيهـا فمن هؤلاء :

الأمير سيف الدين جقمق نائب الشام وهو تركمانى الاصل، يتكلم العربية وتنقل فـى خدمـة دولـة الممـاليك، الـى أن عينـه السلطان المؤيد شيخ (دوادار) كبيرا، أى أمينا للسر ثم ولاه بعد ذلك نيابة الشام عام ١٤١٩/٨٢٢(٢).

وظلت بلاد الشام منذ عصر بنى حمدان حتى عصـر سـلاطين الممـاليك يؤمها العلماء المسلمون من رجـال الديـن العظمـاء، يعملـون ويتلقـون العلـم مـن علمائها، أمثال الشيخ محيى الديـن بـن عربـى : ن١٢٤٠/٦٣٨ وهـو محمـد بـن علـى بـن محمـد المعـروف بـابن عربـى، ولـد فـى رمضــان عـام ١١٦٤/٥٦٠ بمُرسيه بالاندلس، تلقى علومه بمرسيه من ابن بشكوال ثم رحل الى بغداد ومكة

---

(١) ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات والذيل عليها، جـ٤،ص٣٤٩، جـ١، ص٢٣٩.

(٢) مجلة الحوليات الاثرية السورية، المجلد العاشر، ١٩٦٠، ص٦٩، المدرسة الجقمقية، عبد القادر الريحاوى، جـ٨، ط . دمشق.

ثم الى دمشق(١). وينسب ابن عربى الى قبيلة طى عرب الجنوب(٢) برع فى علم التصوف(٣) وله فيه مصنفات كثيرة، وله مؤلفات كثيرة منها "الفتوحات المكية" فى عشرين مجلدا و" التدبيرات الالهية والتنزلات الموصلية" و"فصوص الحكم". اشتهر بالذكاء وقوة الخاطر وكانت وفاته بقاسيون بدمشق عام ٦٣٨/١٢٤٠(٤).

ولما كانت علوم العربية من لغة ونحو وبيان وأدب ضرورية، لفهم الكتاب والسنة واستنباط الاحكام الشرعية منها. فقد قام بنقلها وشرح مشكلاتها، العرب، لانها لغة العرب وكان على كل من أراد علم الشريعة من غير العرب أن يعرف لغة العرب، والعلوم المتعلقة بها(٥).

وأول من كتب فى النحو، عربى من بنى كنانة هو أبو الأسود الدؤلى. أمره بذلك على بن أبى طالب، وذلك خوفا على فساد ملكة علم اللغة، وخشية انغلاق القرآن والحديث على المفهوم، نتيجة لانتشار العرب فى البلاد المفتوحة ومخالطتهم للمستعربين من أهلها(٦).

---

(١) الكتبى، فوات الوفيات، مجلد٣، ص٤٣٥.

(٢) محمد مصطفى حلمى، ابن الفارض، ص٧٧، القاهرة١٩٦٣.

(٣) علم التصوف من علوم الشريعة، ويختص هذا العلم بأعمال المجاهرة ومحاسبة النفس عليها، والكلام فى الاذواق والمواجد المعارضة فى طريقها، وكيفية الترقى منها من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التى تدور بينهم فى ذلك ومن هؤلاء العلماء المتصوفة ابن عربى. (ابن خلدون، المقدمة، ص٤٦٩،٤٧٣).

(٤) الكتبى، فوات الوفيات، مجلد٣، ص٤٣٦، محمد مصطفى حلمى، ابن الفارض سلطان العاشقين، ط . القاهرة١٩٦٣،ص٧٨.

(٥) ابن خلدون، المقدمه، فصل(٣٦) من الباب السادس(فى علوم اللسان والعربى).

(٦) المصدر نفسه.

وقد ظهرت علوم العربية من لغة ونحو وبيان، نتيجة لاستعمال كثير من كلام العرب فى غير موضعه، بسبب اختلاط العرب بالمستعربين من أهل البلاد المفتوحة. وقد حمل لواء علوم العربية، علماء من العرب ومن غيرهم.

فهذه العلوم مستحدثة، لمعرفة أحكام الشريعة (والسبب فى ذلك أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولاصناعة لمقتضى احوال السذاجة والبداوة[١]).

وقد تنوعت طرق التدريس لعلوم الدين فى المدارس الاسلامية، فمنهم من اختص بتدريس القرآن فقط مثل مدرسة العصرونية فى حماة، او قراءة القرآن والحديث أو قراءة ودراسة علوم الفقه والفرائض وغيرها من علوم الدين[٢].

ومن أبرز مايمز الحضارة العربية فى عصر سلاطين المماليك هو ذلك الاهتمام الكبير بالجانب الثقافى ومابلغته المعرفة من تطور كبير ومأصاب التعليم من أزدهار واسع وانشاء المدارس فى العصر المملوكى من المنجزات العظيمة التى حققت أهدافها العلمية والحضارية، بفضل معلميها من العرب.

وكانت المدارس تلحق بالمساجد عادة وبعضها كان مستقل عن المسجد مثل دار القرآن الضابونية، نسبة الى علم الدين بن سليمان الصابونى.

والمدرسة العمرية، أنشأها الشيخ محمد بن المقدسى ت٦٠٧وكانت هذه المدرسة تحتوى على ١١٠ حجرة مخصصة لتدريس القرآن الكريم وعلوم الدين[٣].

---

(١) ابن خلدون،المقدمه،فصل (٣٥)من الباب السادس (فى علوم اللسان العربى).

(٢) المصدر نفسه، فصل (٣١).

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق رقم٤٨،ابريل١٩٧٣،صلاح الدين المنجد.

وكذلك خصصت الرواتب والاجور للمدرسين وكل العاملين فى المدارس المملوكية. وكان بعض من ينشىء المدرسة من الاهالى او رجال الدولة مثل نائب السلطان او غيره من امراء المماليك، يتكفل باعاشة الطلبة وتحمل جميع مصروفاتهم مثل (مدرسة العصرونية) التى أنشأها فى حماة، محمد بن محمد بن أبى بكر الشافعى عام ١٣١٥/٧١٥ وجعلها دارا لدراسة القرآن الكريم علما وتلاوة، قرر بها شيخين لتعليم القرآن، وكانت الدراسة بها داخلية، ومدتها خمس سنين، يمتحن بعدها الطالب فى حفظ القرآن فاذا نجح فيصرف له ثوبا او جبة كما أوقف على هذه المدرسة أوقافا كثيرة للانفاق عليها(١).

والمدرسة الجقمقية، التى أمر ببنائها بدمشق الامير جقمق نائب الشام، وهو تركمانى الاصل كان يتكلم العربية، تولى نيابة الشام فى عام١٤١٩/٨٢٢.

وكان لهذه المدارس الاسلامية الاثر المحمود فى تطوير الدراسات فى العالم الاسلامى، وذلك بفضل جهود العلماء العرب من اهل الشام ومن غيرهم من بلاد الاسلام.

فالمدرسة الجقمقية، وتقع فى حى الكلاسة فى المنطقة المجاورة للجامع الأموى من ناحيته الشمالية وكانت تضم هذه المنطقة وحدها عشرين معهدا علميا، (ويصلح ان يطلق على هذا الحى الجامعى او المدينة الجامعية لدمشق فى العصور الوسطى الاسلامية)(٢).

وكانت تلك المدارس الاسلامية ومكتباتها مراكز لقاء المسلمين وتلقى العلوم والمواعظ والارشادات الدينية مما يقوى الرابطة الدينية ويعمل على وحدة الفكر الاسلامى.

---

(١) **Repertoire chronologique, t. 14, P.102.**

(٢) **Ibid., P.71.**

والخلاصة، أن المماليك الذين حملوا السلاح دفاعا عن بلاد الشام ومصر خلال حروبهم الطويلة ضد المغول والصليبيين، لم يغفلوا عن دورهم فى البناء والتعمير فى الداخل، فأقاموا الحصون والقلاع لحماية البلاد من الاعداء، وأقاموا المساجد والمدارس والمستشفيات والفنادق والحمامات وغيرها وخصصوا لها الاوقاف الكثيرة للانفاق عليها وصيانتها.

أما عرب الشام فقد شاركوا فى الدور الدفاعى عن بلاد الشام وحصلوا على تقدير الحكام المماليك لتعاونهم معهم فى الحروب ضد الاعداء. كما نالوا تقديرهم ايضا لمساهمتهم فى العمل على استقرار الامن فى ربوع بلاد الشام فى ظروف السلم.

كذلك كان لعرب الشام من حضر وبدو دورهم فى الحياة الاجتماعية فاشتغلوا بالزراعة والتجارة والرعى وتربية الخيول التى كانت من اسباب توطيد علاقتهم بالسلاطين وخاصة السلطان محمد بن قلاوون الذى جعلهم يرتدون اجمل الثياب ولنسائهم الأساور والحلى من الذهب والفضة والأحجار الكريمة.

هذا مع ماقام به عرب الشام من الدور الثقافى فى بلاد الشام الذى أمتد حتى بلغ أقصى الجنوب فى بلاد الحجاز وأقصى الغرب فى بلاد المغرب والاندلس.

الخاتمة

كان للقبائل العربية، قبل قيام الدولة المملوكية دور هام، فـى الدفـاع عن الشام وصيانة حدوده. وقد اسـتطاع العرب فى فـترة انشـغال الخلافـة العباسـية بمشـاكلها الداخليـة، أن يشكلوا تكتـلا عربيا، نتـج عنـه ظهـور دويـلات عربيـة مستقلة مثـل الدولـة الحمدانيـة والدولـة المرداسية، ظلـت راياتهـا، خفاقـة تحمـى أرض الشام وترهب جيرانه من الروم والأرمن وتدافع عن الثغور وتغـزو منهـا أرض الاعداء.

ثـم تغيرت احـوال الشـام، وظهـرت دول جديـدة سـيطرت علـى هـذه الدويلات، مثل الدولة السلجوقية، ثم تحول العرب، الى مواطنين عاديين فى تلـك الدولة، وكانوا يقدمون من حين لاخر معوناتهم الحربية كلما لزم الامر.

وفـى عصـر الدولـة الايوبيـة، شـارك العرب فـى الشـام، فـى المعـارك الحربية ضد الصليبيين، ونالوا الالقاب العسكرية تقديرا لخدماتهم فى الدفاع عن الشام.

فلما كان عصـر سلاطين الممـاليك، شـاركت قبـائل العـرب الممـاليك فـى الشام، فى صد التتار عن الشام وطردهم منه. وكان للعون العسكرى الكبير الذى قدمته القبائل العربية من اهم المعارك الحربية وأخطرها أعظم الاثـر فـى توثيق العلاقات التى قامت بين العرب والمماليك فى بلاد الشام، فقد ادرك الممـاليك أن عرب الشام قوة لايستهان بها.

والحقيقة ان القبائل العربية فى الشام قبلت مبدأ التعاون مع الممـاليك بعد ان تبين لها ضعـف حكـام الشـام مـن ملـوك بنـى أيوب وتفـرق كلمتهـم، ولذلـك سرعان مااجتمعت كلمة تلك القبائل العربية على الانضمام الى صفوف الممـاليك والمشاركة معهم فى طرد التتار مـن بـلاد الشـام، وقـد ادرك المظفر قطـز دور العرب فى الانتصار على التتار، فلم يتردد فى منـح قـادة العـرب الذين شـاركوا

فى طرد التتار، الاقطاعات تقديرا لدورهم البطولـى. وهكذا يتضـح دور القبـائل العربية امام الحكام المماليك ومن هنا كان بدء السياسة المملوكية التى قامت بيـن المماليك والعرب على قاعدة من الود والتقدير.

أما فى زمن الحرب، فقد ذكرنا حقائق تتعلـق بنظـامهم الحربـى وطريقـة القتال وانواع الاسلحة التى استخدموها فى القتال، كما استخدموا الموانـع المائيـة والحصـار الاقتصـادى، لصـد العدو ودفعـه عـن البـلاد، وكـان مـن نتـائج ذلـك حصول بعض قادة العرب على وظيفة نائب السلطان فى بلاد الشام.

وأما فى ظروف السلم فكان على أمـراء العرب القيـام، بـدور المحافظـة على استتباب الامن فى انحاء البلاد، والاخلاص للسلطان والاجتهاد فى مصـالح الدولة، ومراعاة الاحوال من معاقبة المذنب واثابـة المصلـح. وكـانت الاسـتجارة بمعنى الحماية من خلق العرب فى الجاهلية وبقيت هـذه العـادة عنـد العـرب بعـد الاسلام. ولذلك كان بعض زعماء القبائل العربية القويـة فـى الشـام، يقـوم بـدور المصالحة أو العفو، عن بعض أمراء المماليك أو غيرهم مـن أصحـاب المراكـز القيادية، فى الدولة المغضوب عليهـم مـن السـلطان لسـبب او لاخـر، ويلتمسـون العفـو عنهـم، وغالبـا ماكـان يسـتجيب لهـم السـلطان ويصـدر أمـره بـالعفو عـن العسيىء.

وفـى عصـر الدولـة المملوكيـة، كـان دور عـرب الشـام الحضـارى والاجتماعى، من نشر الثقافة وعلوم الدين، استمرارا لهـذا الـدور فـى العصـور الاسلامية فى بلاد الشام، والذى بقى مستمرا، حتى عصر الدولة المملوكية.

وقد توصلت فى هذا البحث الى نتائج منها:

فى ظروف الحرب :

أن العرب شاركوا فى الدفاع عن بلاد الشام، مشاركة فعالة، ومؤثرة فى مواقع كثيرة منها، معركة عين جالوت فى عهد السلطان قطز، وهى التى حدث فيها الانتصار الاول على المغول وكان من نتائجها انها انقذت العالم الاسلامى من خطر المغول والصليبيين، ومنح السلطان قطز مدينة سلمية بشمال الشام للامير عيسى ابن مهنا، تقديرا لشجاعته فى المعركة ضد التتار.

ومعركة حمص الثانية. وهى ايضا من المعارك، الفاصلة فى التاريخ، حدثت فى عهد المنصور قلاوون، وقد كونت قبائل عرب الشام الميمنة بقيادة عيسى بن مهنا، وأحمد بن حجى فى هذا الجيش المملوكى. كما كانوا، يشكلون الميسرة أحيانا أخرى. وان بعض سلاطين المماليك، مثل قطز وبيبرس منحوهم الألقاب، وجعلوهم طبقات مثلهم فى ذلك مثل كبار رجال الدولة المملوكية. كما منحوهم الاقطاعات والمدن فى بلاد الشام تقديرا، لدورهم الحربى فى الدفاع عن الشام.

ثم ان دور العرب الحربى ظل مستمرا حتى نهاية العصرالمملوكى، فلم تفتر عزيمتهم عن الدفاع عن أرضهم الشام، ولاسيما فى وقت الصليبيين، وحتى لما هاجم العثمانيون الشام. حاربوا العثمانيين وقاوموهم واستخدموا الموانع المائية فأطلقوا أنهار دمشق، ولعلهم يقصدون نهر بردى الذى يشق دمشق لمنعهم من التقدم فى البلاد الشامية، ومنعوا عنهم الاعلاف، فلم يجد العثمانيون غذاء لخيولهم فأطلقوها تهيم فى الخلاء، تبحث لهم عن طعام، فأضعف، ذلك من عزيمتهم، وأوشكوا على الهزيمة فى معركة قابون فى شمال الشام. ولوان العرب المدافعين عن الشام وصلتهم الامدادات من مصر حين طلبوها من

السلطان طومان باى، الذى كان مستمرا فى مقاومة العثمانيين فى مصر لتغير الموقف وتحول لصالح الشام ومصر حتى صدر لاحد امراء عرب الشام هو ناصر الدين بن الحنش مرسوم بنيابة حمص تقديرا لشجاعته، مما يؤكد استمرار الدور البطولى لعرب الشام، حتى نهايى العصر المملوكى.

اما فى ظروف السلم :

فان الدور العربى الذى برز فى الفترة المملوكية هو الدور الحضارى، بالعمل على استتباب الامن واستقرار الاحوال فى أنحاء الشام، حتى نالوا التقدير من الحكام المماليك الذين أشادوا بدور عرب الشام فى استقرار الاحوال، فى انحاء الشام.

ثم قيام عرب الشام بدور الدفاع عن مصالح أهالى الشام، ومواجهتهم الحكام المماليك، حتى اضطروهم فى غالب الاحوال للاستجابة لمطالب اهالى الشام العادلة.

ثم قيام علماء عرب الشام بدور هام فى نشر اللغة، وعلوم الدين، وبلغ تأثير علماؤهم الدينى والثقافى، مختلف انحاء العالم الاسلامى.

* * *

وماورد هنا بهذا البحث، حقائق مستقاة من المصادر العربية الموثوق بها، التى تتصل بهذا البحث.

وهذا بخلاف ماذكرته بعض المراجع الحديثة التى حين ذكرت قبائل العرب وقيامهم احيانا بالثورة ضد سلاطين المماليك، لسبب أو لاخر، أغفلت ايجابيات العرب التى اثبتناها خلال هذا الكتاب.

الصور والخرائط



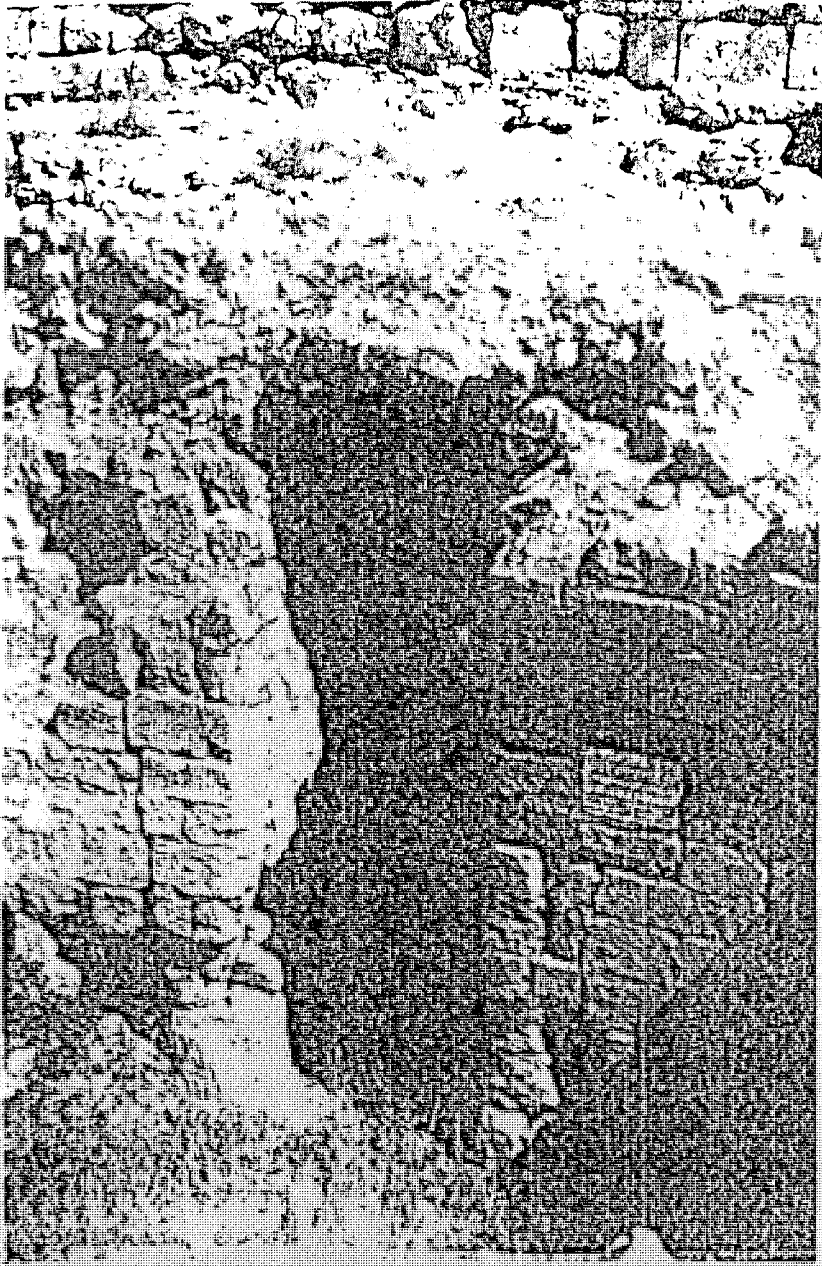
درزية وقد زينت صدرها وجبهتها بكثير من الحلى



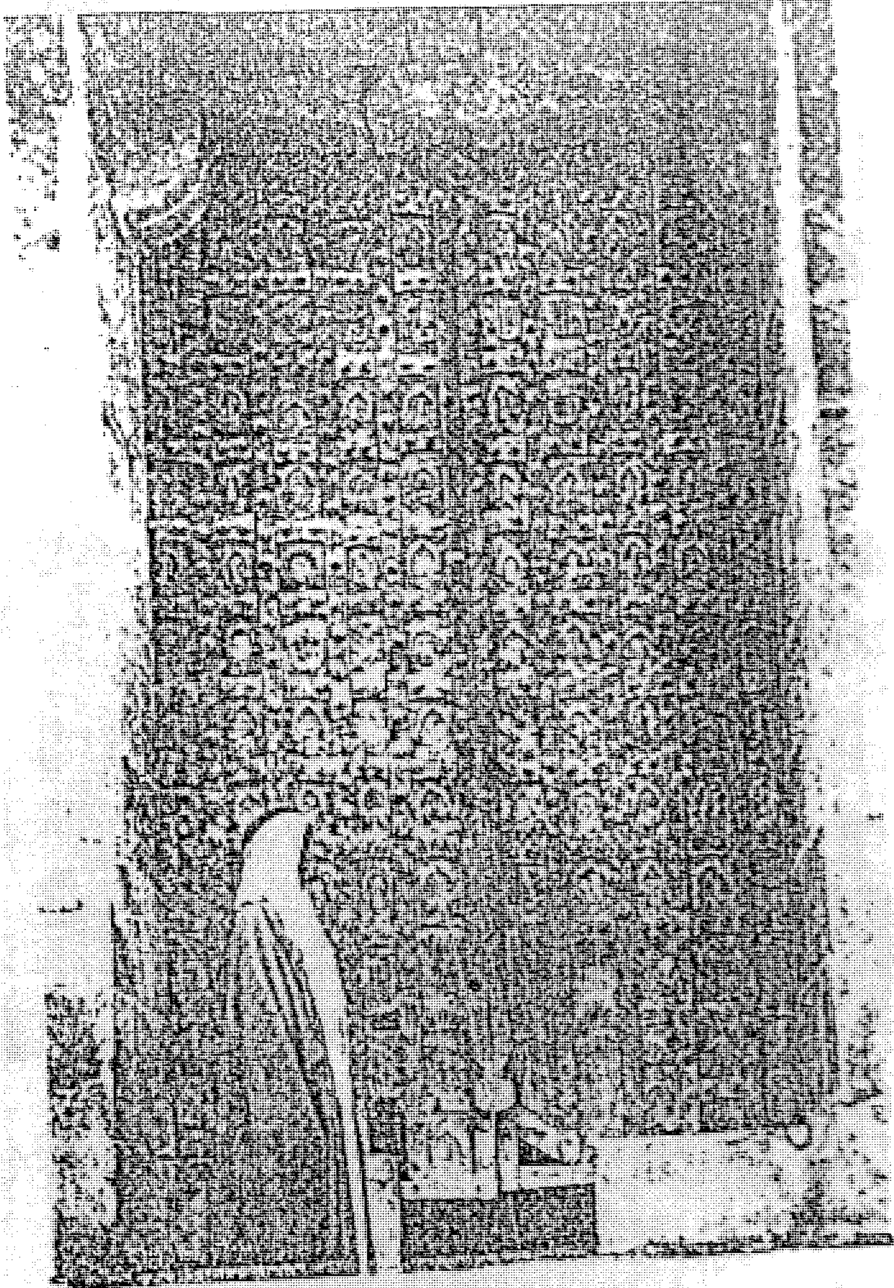
لوحة من الفسيفساء الملون تمثل دارات على نهر
بردى في جدار الرواق الغربي للجامع الاموي بدمشق



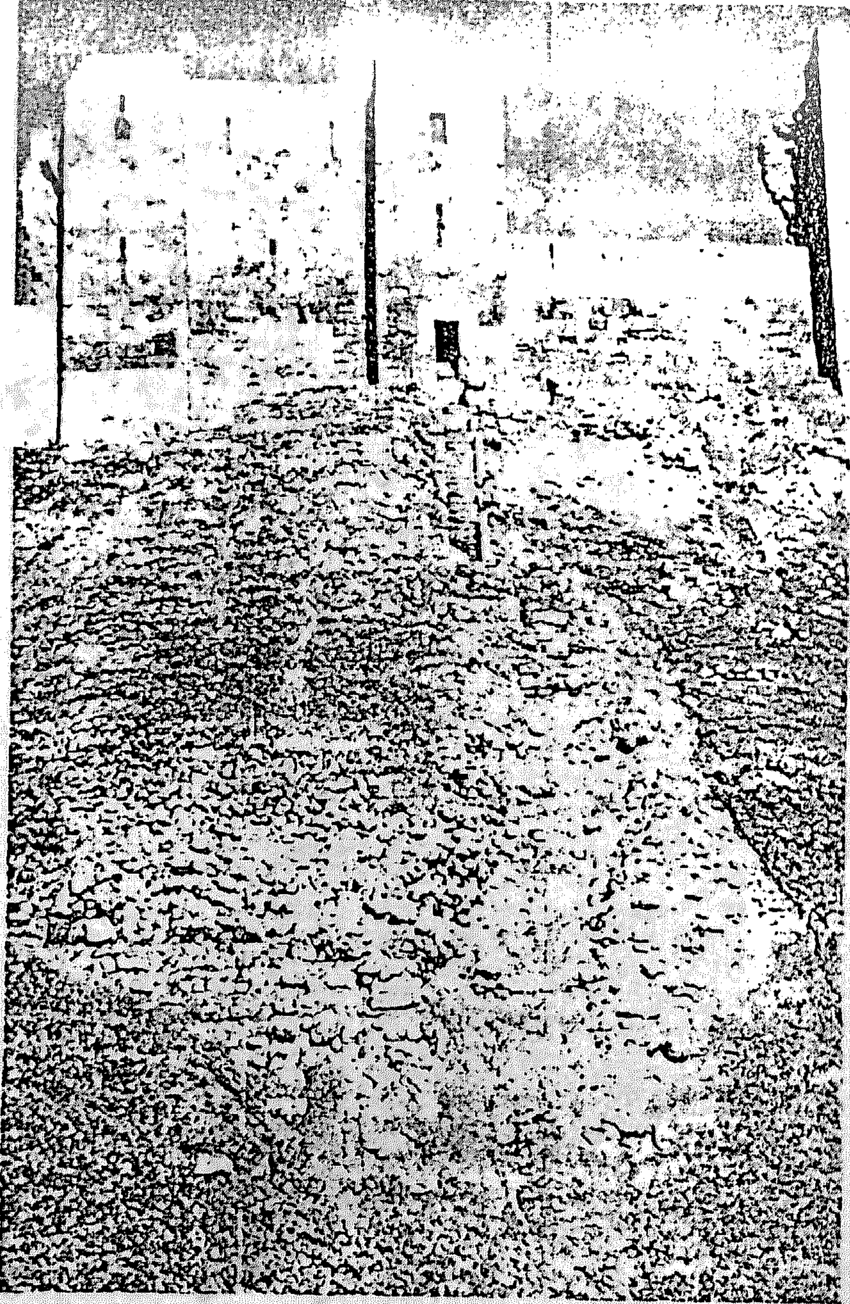
زخارف معمارية من الفسيفساء فى جدار الرواق الغربى للجامع الاموى بدمشق .



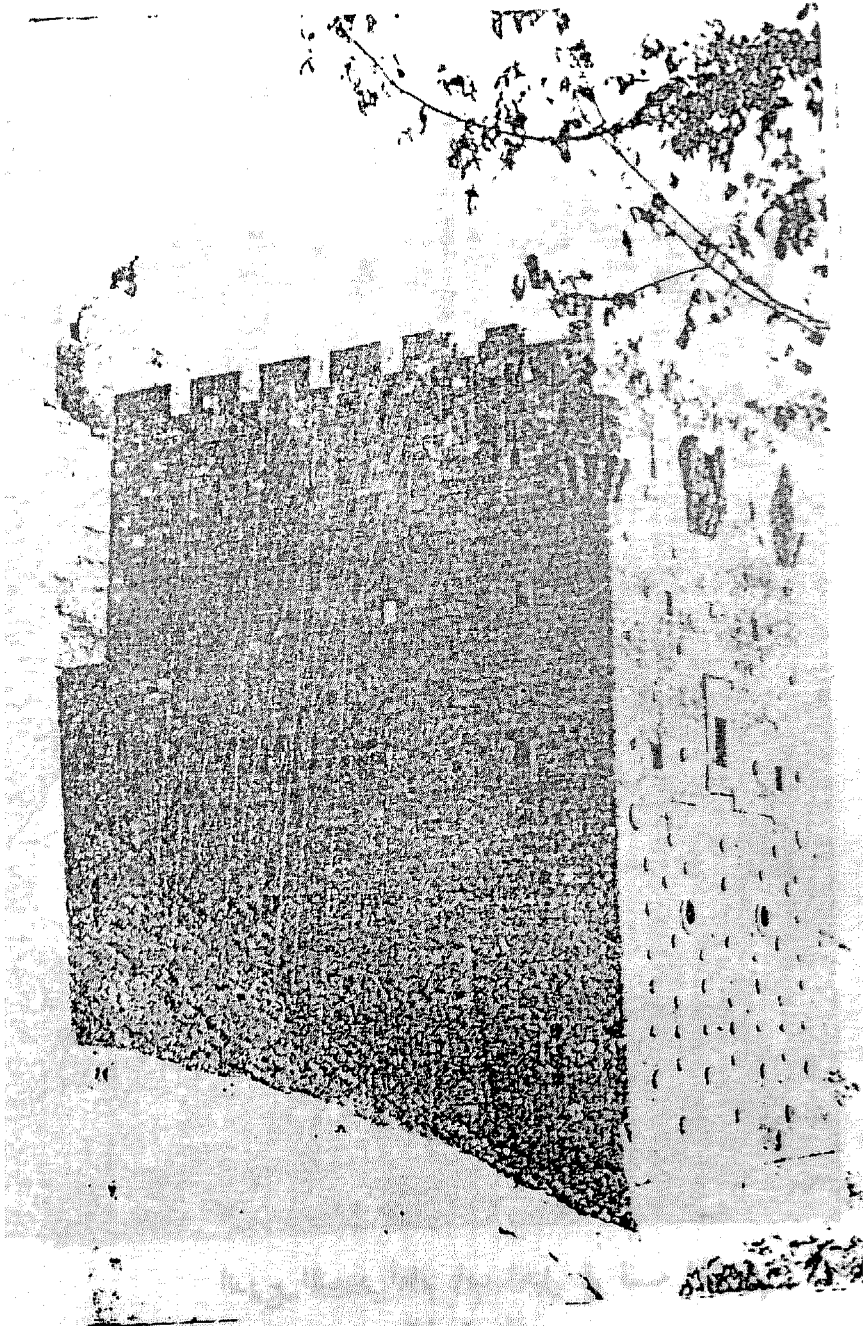
المدخل إلى الباب السري الذي يوصل إلى باب الاربعين في داخل القلعة



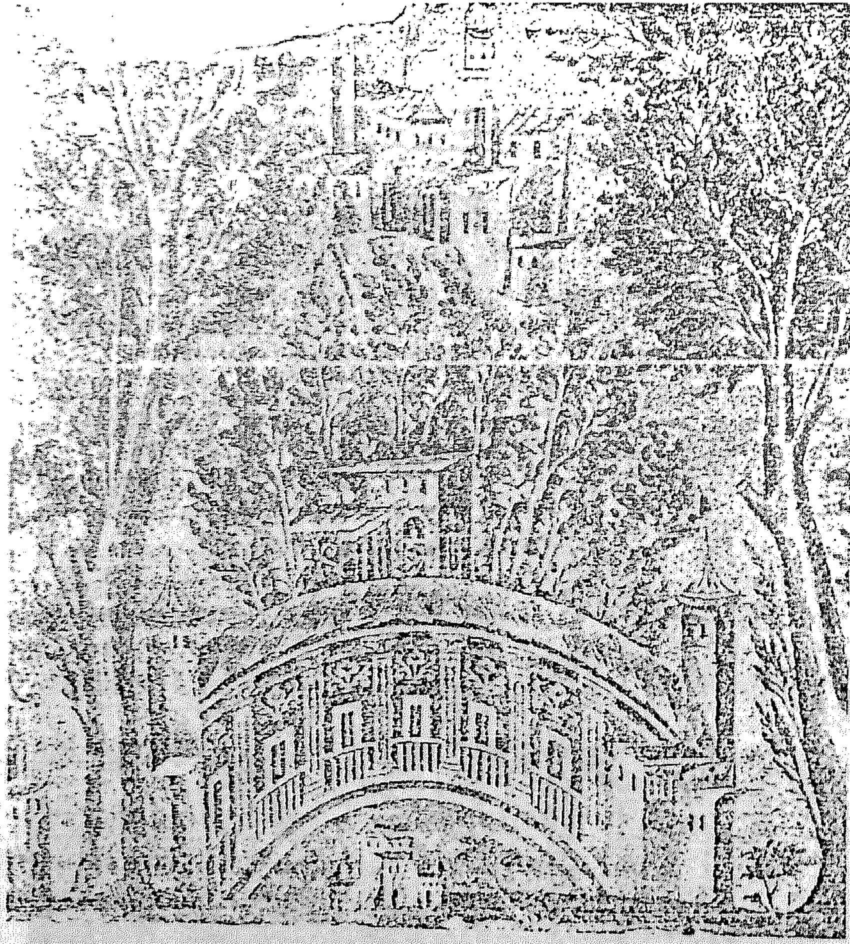
الباب الحديدي الأول لقلعة حلب



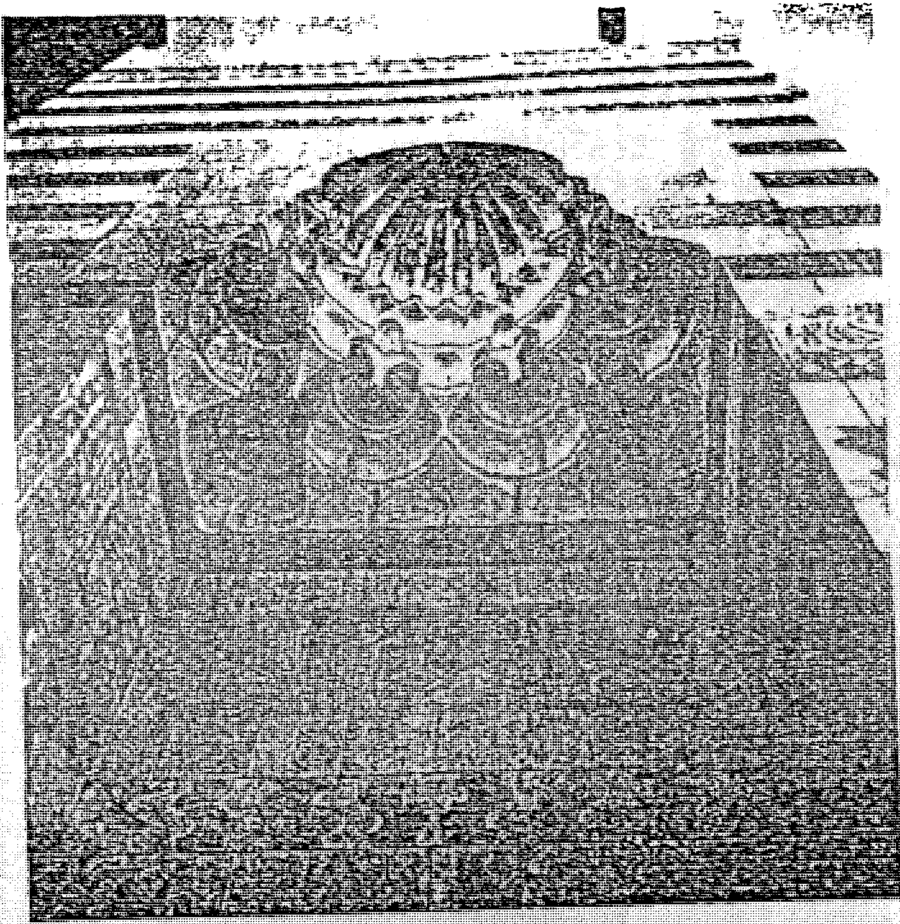
الدرج المنحدر أمام باب الجبل في قسمه الخارجي
لقلعة حلب



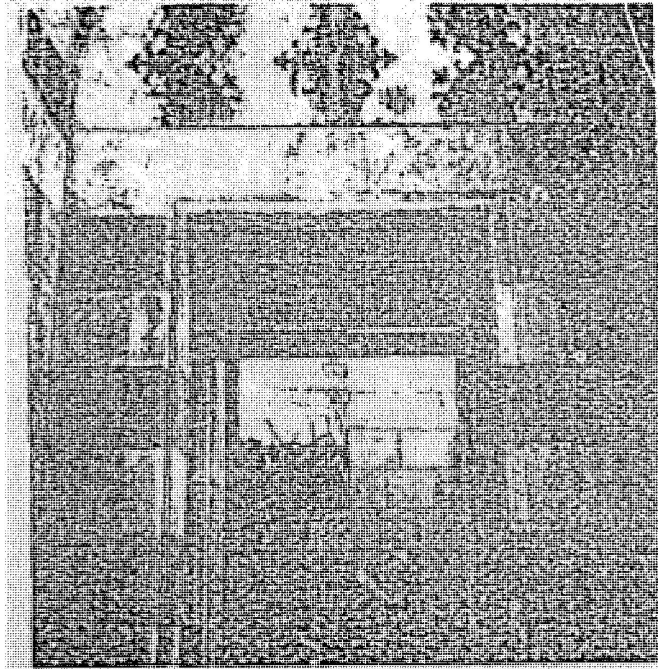
البرج الجنوبي في خندق قلعة حلب



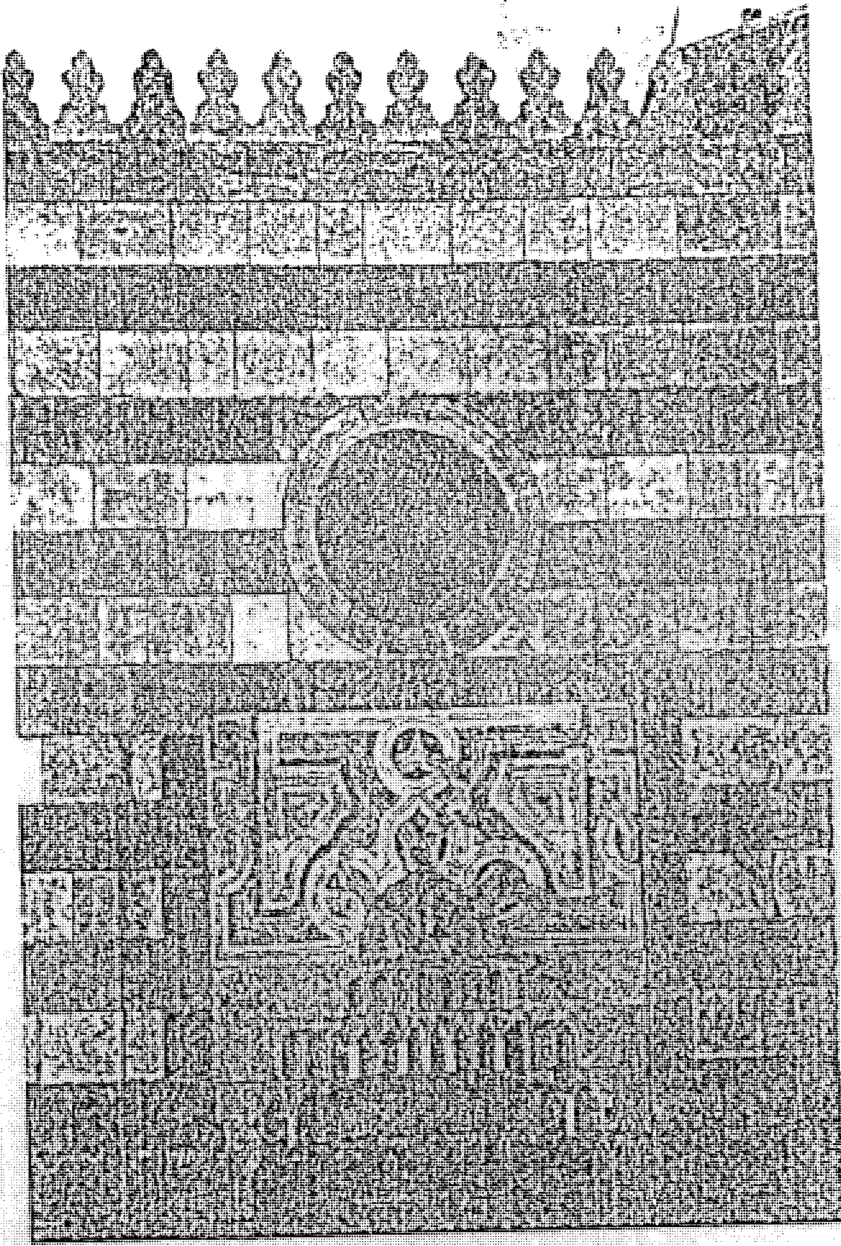
الصورة رقم ١ ـ زخارف معمارية في جدار الرواق الغربي



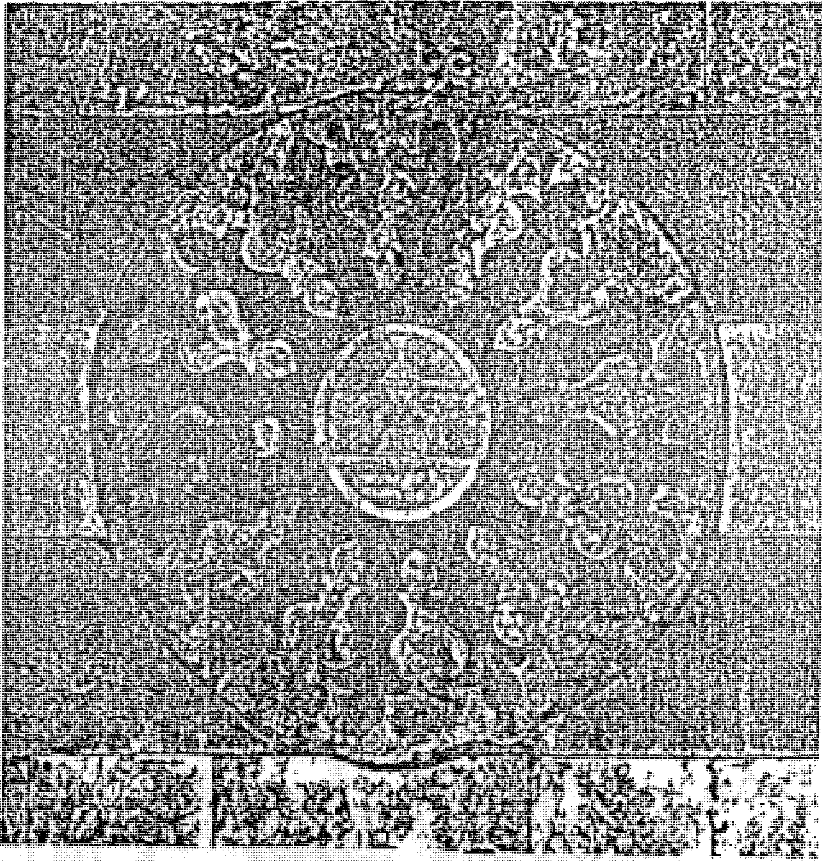
القسم العلوى لبوابة المدرسة الجقمقية



باب المدرسة الجقمقية في الإيلاء المزور والعقد العاتق

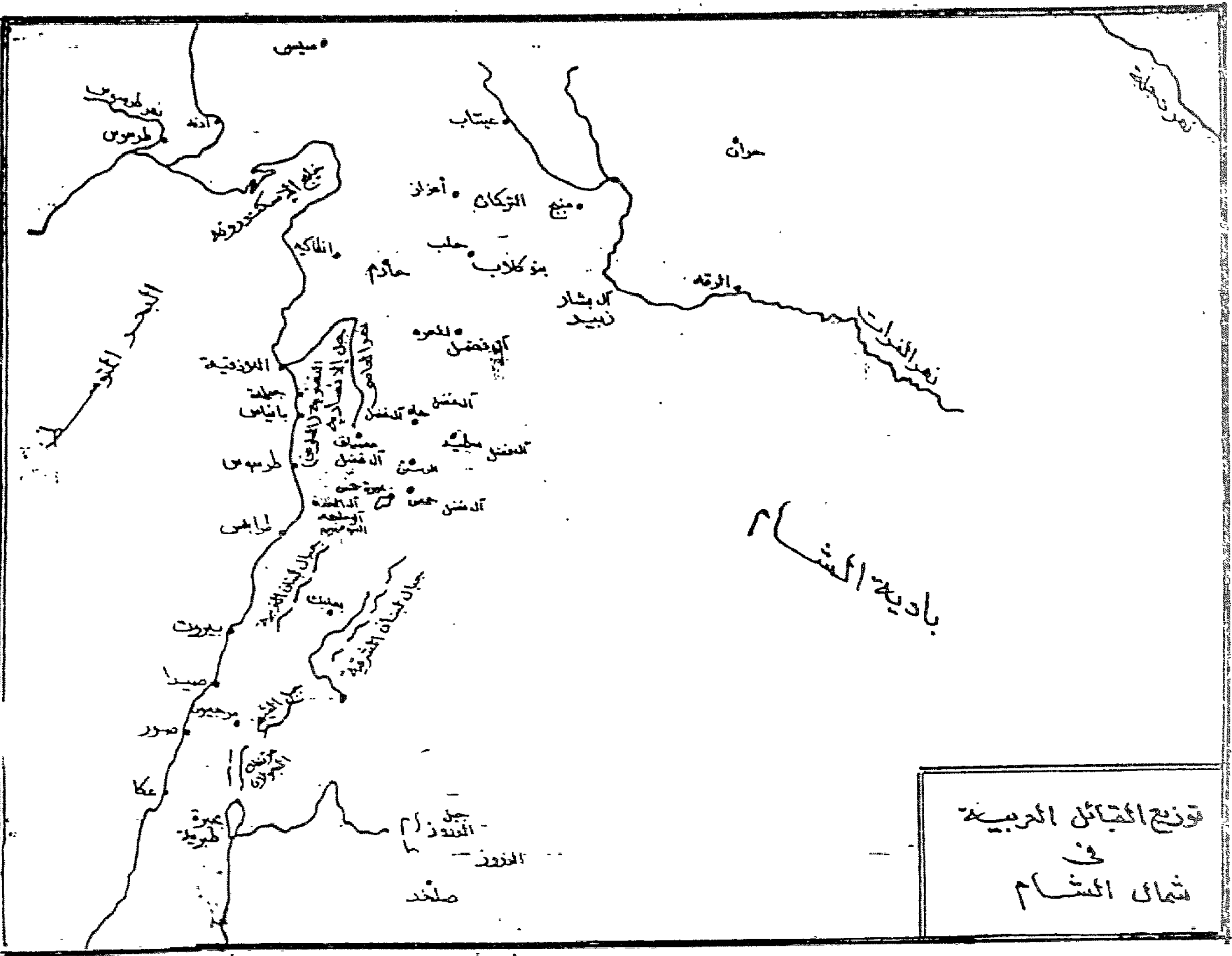


جانب من الواجهة الشرقية وتبدو في أعلاها الشرفات
للمدرسة الجقمقية

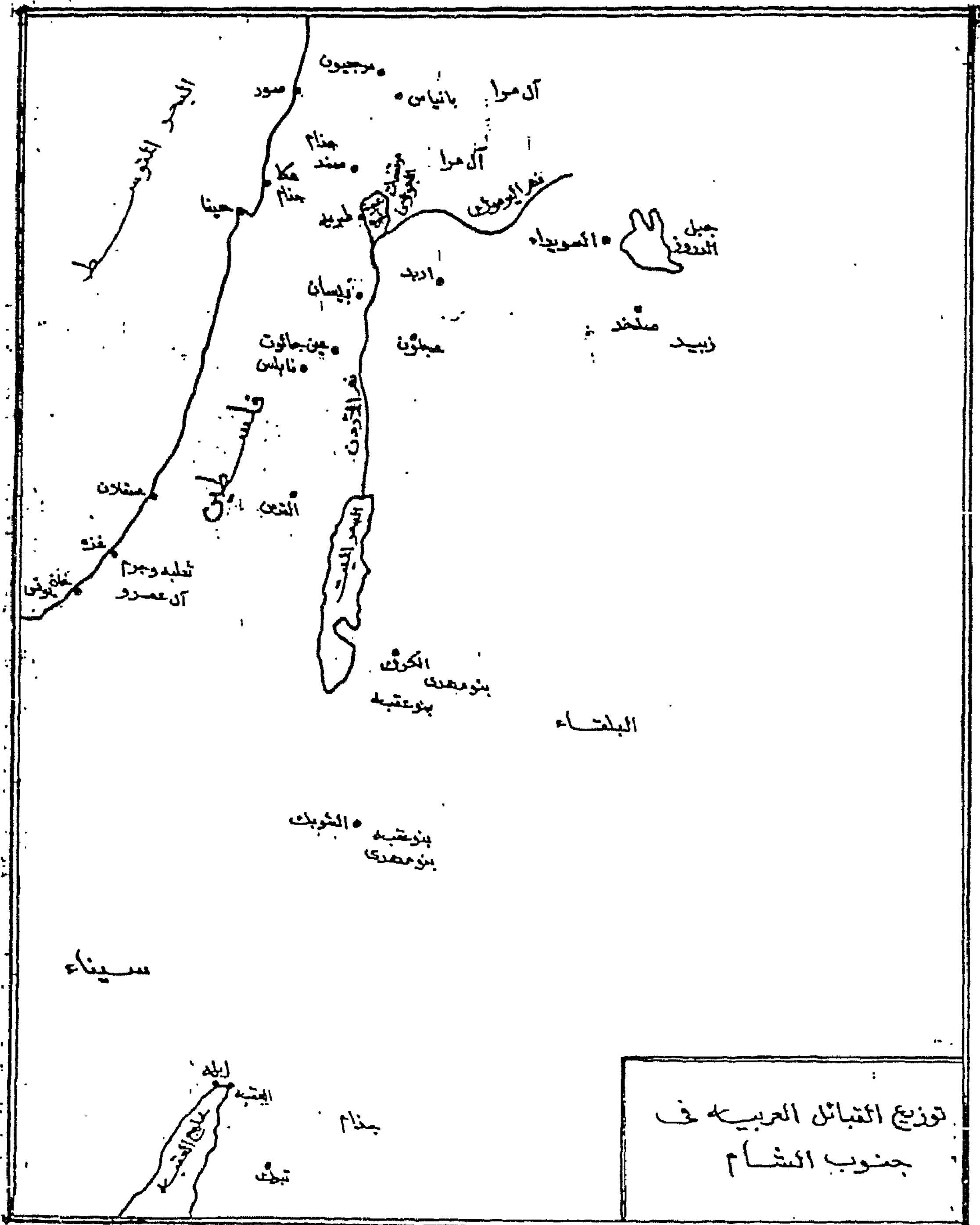


بقبة المقربات يتوسطها (رنك) الأمير جقمق

توزيع القبائل العربية
في
وسط الشام



توزيع القبائل العربية في شمال الشام
بادية الشام
نهر الفرات
نهر دجلة
البحر الروم
خليج الإسكندرونة
حران
الرقة
منبج
التركمان
أعزاز
عينتاب
حلب
بنو كلاب
حارم
انطاكية
آل بشار
نمير
المعرة
آل فضل
اللاذقية
جبلة
بانياس
طرسوس
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكا
مرجعيون
بحيرة طبرية
صلخد
الدروز
جبل الدروز
حماة
حمص
بعلبك
آدنة
طرسوس
سيس


البحر المتوسط
مرجعيون
صور
بانياس
آل مرا
جذام
صفد
عكا
جذام
آل مرا
حيفا
طبريه
نهر اليرموك
السويداء
جبل الدروز
اربد
بيسان
عين جالوت
نابلس
عجلون
صلخد
زبيد
نهر الأردن
فلسطين
عسقلان
الخليل
غزه
ثعلبه وجرم
آل عمرو
البحر الميت
الكرك
بنو مهدي
بنو عقبه
البلقاء
الشوبك
بنو عقبه
بنو مهدي
سيناء
ايله
العقبه
خليج العقبه
جذام
تبوك
توزيع القبائل العربيه في
جنوب الشام

المصادر والمراجع العربية - الدوريات

أ - ثبت بالمصادر المخطوطة

ابن الجيعان . (أحمد بن يحيى بن شاكر). ت ٨٨٩هـ/١٤٨٤م.

القول المستظرف فى سفر الملك الأشرف رقم ١٨٩٩ معهد إحياء المخططات العربية، جامعة الدول العربية. القاهرة.

ابن منكلى . (الأمير محمد)

التدبيرات السلطانية فى الفنون الحربية، بدون تاريخ. م اسكندرية رقم ١١٤٧ ب.

الباعونى . (محمد بن يوسف) ت ٩١٠هـ/١٥٠٤م.

الإشارة الوفية إلى الخصوصيات الأشرفية.م. أسكندرية رقم٣٧٦٠ج.

القادرى. (محمد بن على)

المواقف الشريفة فى تحقيق معنى الخليفة،م.اسكندرية رقم ٣٨١٦ج بدون تاريخ.

القلقشندى. (أحمد بن على) ت ٨٢١هـ/١٤١٨م.

قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان. معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٣٨١.

الكرمى. (مرعى بن يوسف).

نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين.

م. اسكندرية رقم ١٤١٦. بدون تاريخ.

ب - المصادر العربية المطبوعة

ابن الأثير. (على بن احمد) الملقب بعز الدين ت ١٢٣٢/٦٣٠، الكامل فى التاريخ، ١٢ جزء - القاهرة ١٣٤٩.

ابن اياس. (محمد بن احمد) الملقب بأبى البركات ت ١٥٢٣/٩٣٠ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ٩ أجزاء القاهرة ١٩٦٠- صفحات لم تنشر من بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٥١.

ابن بطوطة. (محمد بن عبد الله) ت ١٥٢٣/٧٧٩.

تحفة الناظرين فى غرائب الامصار وعجائب السفار، باريس ١٩٩٢.

ابن بكار. (الزبير) ت ٨٦٩/٢٥٦

جمهرة أنساب قريش وأخبارها.

ابن تغرى بردى. (جمال الدين يوسف) ت ١٤٦٥/٨٧٤.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٢٩.

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، القاهرة ١٩٥٦.

ابن تيمية. (احمد بن عبد الحليم) ت ١٣٢٧/٧٢٨.

مجموعة الرسائل الكبرى ، القاهرة ١٩١٣/١٣٣٢.

ابن الجوزى.(سبط بن الجوزى) ت ١٢٥٧/٦٥٤.

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، حيدر أباد ١٩٥١.

ابن حجر. (احمد بن على) ت ١٤٤٩/٨٥٢.

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة.الهند ١٩٣٠.

أنباء الغمر فى أبناء العمر.

ابن حزم. (على بن أحمد) ت ١٠٦٣/٤٥٦.

جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة١٩٦٢.

ابن خرداذبة. (عبيد الله بن عبدالله) ت فى حدود عام ٣٠٠هـ.

المسالك والممالك، بريل ١٨٨٩.

ابن خلدون. (عبد الرحمن بن محمد) ت ١٤٠٥/٨٠٨)

مقدمة ابن خلدون، القاهرة، المكتبة التجارية.

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب.

والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . ط. بيروت ١٩٦٦.

ابن خلكان. (احمد بن ابراهيم) (ت ١٢٨٢/٦٨١).

وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، ط.لبنان.

ابن دقماق : (ابراهيم بن محمد بن أيدمر) ت ١٤٠٦/٨٠٩.

الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة ١٨٩٢/١٣١٠- ٤ أجزاء.

ابن شاكر الكتبى : (محمد) ت ١٣٦٢/٧٦٤.

فوات الوفيات والذيل عليها- بيروت ١٩٧٣- تحقيق احسان عباس.

ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل) ت ١٤٦٨/٨٧٣.

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس ١٨٩٣.

ابن شداد . (محمد) ت ١٢٨٥/٦٨٤

الاعلاق الخطيرة فى ذكر امراء الشام والجزيرة، جزءان، نشر، سامى الدهان، دمشق ١٩٥٦.

ابن طولون. (محمد بن على بن محمد) ت ١٥٤٥/٩٥٣

مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٦٢.

ابن عبد الحكم . (عبد الرحمن) ت ٨٧٠/٢٥٧

فتوح مصر والمغرب، ليدن ١٩٢٠.

ابن عبد ربه. (شهاب الدين احمد)

العقد الفريد، ثلاثة اجزاء - القاهرة ١٨٨٧/١٣٠٥

ابن العبرى. (غريغوريوس الملطى) ت ١٢٨٦/٦٨٥

تاريه مختصر الدول، أكسفورد ١٩٦٣.

ابن العديم الحلبى (عمر بن احمد العقيلى) ت ١٢١٣/٦١٠.

زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٥١.

ابن عرب شاة الدمشقى (احمد بن محمد) ت ١٤٥٠/٨٥٤

عجائب المقدور فى اخبار تيمور، القاهرة ١٨٦٨/١٢٨٥.

ابن العماد الدمشقى (عبد الحى بن احمد) ت ١٦٧٨/١٠٨٩

شذرات الذهب فى اخبار من ذهب، ط. بيروت.

ابن قتيبة (عبد الله بن سالم) ت ٨٨٣/٢٧٠

الامامة والسياسة.

ابن القلانسى. (ابو يعلى حمزة) ت ١١٦٠/٥٥٥

ذيل تاريخ دمشق، تحقيق ان روز، بيروت ١٩٠٨.

ابن كثير الدمشقى. (عماد الدين اسماعيل) ت ١٣٧٢/٧٧٢

البداية والنهاية، ٤ أجزاء، بيروت ١٩٦٦.

ابن الكلبى (ابو المنذر ومحمد بن هشام) انساب الخيل، تحقيق أحمد زكى، القاهرة ١٩٤٦.

ابن هشام. نبى البر محمد.

المختار من سيرة ابن هشام، تحقيق ابراهيم الابيارى.

ابن الوردى(عمر). ت ١٣٤٨/٧٤٩) تتمة المختصر فى أخبار البشر، القاهرة ١٨٦٨/١٢٨٥.

ابن واضح الاخبارى. (احمد بن ابى يعقوب) ت بعد عام ٢٩٢.

كتاب البلدان، النجف ١٩٣٩/١٣٥٨.

ابو الفدا. (اسماعيل بن على) ت ١٣٣١/٧٣٢.

المختصر فى اخبار البشر، القسطنطينية ١٨٦٩/١٢٨٦.

الاسحاقى. (محمد بن عبد المعطى)

لطائف اخبار، القاهرة ١٨٨٢/١٣٠٠.

الاصطخرى. (ابراهيم بن محمد) ت منتصف القرن الرابع الهجرى

مسالك الممالك، ليدن ١٩٢٧.

الاصفهانى. (عماد الدين الكاتب) ت ١٢٠١/٥٩٠

الفتح القسى فى الفتح القدسى، ط.القاهرة.

البغدادى. (احمد بن يحيى بن جابر) ت ١٤٨٦/٨٩٢)

فتوح البلدان.

البلاذرى. (احمد بن يحيى)، ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م

أنساب الاشراف، القاهرة ١٩٠٠، تحقيق محمد حميد الدين، فتوح البلدان، القاهرة ١٩٥٦، تحقيق صلاح الدين المنجد.

الجمحى. (محمد بن سلام)

طبقات الشعراء، بريل ١٩١٣.

الحلبى. (محمد راغب)

اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، بيروت ١٩٢٣.

الحموى. (ياقوت) ت ٦٧٦/١٢٢٩

معجم البلدان، بيروت ١٩٥٦.

الدبس. (يوسف)

تاريخ سوريا، بيروت ١٩٠٧

الجامع المفصل فى تواريخ الموارنة المؤصل، بيروت ١٩٠٥

الدمشقى . (احمد بن عبدالله)

عجائب المقدور فى أخبار تيمور، القاهرة ١٨٦٨.

الدمشقى. (محمد بن طولون)

مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، القاهرة ١٣٨١.

الدميرى. (كمال الدين)

حياة الحيوان، القاهرة ١٨٧٥.

الرمالى. (احمد بن زنبل)

تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغورى، سلطان مصر واعمالها.

السبكى. (عبد الوهاب بن تقى الدين)

طبقات الشافعية، ط. القاهرة.

السخاوى. (محمد بن عبد الرحمن بن محمد) ت ١٤٩٧/٩٠٣

الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، القاهرة ١٩٣٦.

التبر المسبوك فى ذيل السلوك، القاهرة ١٨٩٦.

السويدى. (محمد امين البغدادى) ت ١٨٢٣/١٢٣٩.

سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب، بغداد ١٢٩٦ هـ.

السيوطى. (عبد الرحمن) ت ١٥٠٥/٩١١

لب اللباب فى تحرير الانساب، بريل ١٨٥٦

حسن المحاضرة.

الشرقاوى. (الشيخ عبدالله)

تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين،ط. القاهرة ١٨٨٦.

الشعرانى. (عبد الوهاب)

الطبقات الكبرى، جزءان، القاهرة ١٣٠٥

الشهرستانى.

الملل والنحل ،٤أجزاء.

الشوكانى. (محمد بن على) ت ١٨٣٤/١٢٥٠

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع – جزءان.

الصيادى. (السيد محمد ابو الهدى)

الروض البسام فى أشهر البطون القرشية بالشام، الاسكندرية ١٨٩٢.

الصيرفى. (على بن داود)

نزهة النفوس والابدان فى تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٧٠.

الطبرى. (محمد بن جرير) ت ٩٢٢/٣١٠

تاريخ الرسل والملوك، القاهرة ١٩٦٦.

القلقشندى. (احمد بن عبد الله) ت ١٤١٨/٨٢١

صبح الاعشى فى صناعة الانشا، القاهرة ١٩١٤.

نهاية الارب فى معرفة انساب العرب، القاهرة ١٩٥٩.

محمد.(ابى عبد الله)، الامامة والسياسة.

المسعودى. (على بن الحسين) ت ٣٤٦هـ

مروج الذهب.

المقدسى. (محمد بن احمد) ت ١١١٣/٥٠٧

احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم، ط.ثانية، ليدن ١٩٠٦.

المقريزى. (احمد بن على) ت ١٤٤٢/٨٤٥.

السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٥٨

البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين ١٩٦١.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، ٤ أجزاء.

اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، القاهرة١٩٤٨، تحقيق محمد جمال الدين الشيال، القاهرة ١٣٢٥.

الناصرى. (احمد بن خالد) ت ١٨٩٧/١٣١٥

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، ٤ اجزاء، القاهرة ١٨٨٣.

النويرى. (احمد بن عبد الوهاب) ت ١٣٣٢/٧٣٢.

نهاية الارب فى فنون الادب.

الواقدى. (محمد بن سعد) ت ٢٣٠هـ/٨٤٥م

الطبقات الكبير.

يحيى. (صالح بن يحيى) ت ١٤٣٦/٨٤٠

تاريخ بيروت واخبار الامراء البحتريين من بنىٌ الغرب، نشر لويس شيخو، بيروت ١٨٩٨.

اليونينى. (موسى بن محمد) ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م.

ذيل مرآة الزمان، ٤ أجزاء، ط. الهند. سنة ١٩٥٤.

جـ - المراجع العربية الحديثة

آل كاشف الغطاء. محمد الحسين

أصل الشيعة وأصولها، صيدا ١٩٣٦.

أمين.احمد

ضحى الاسلام، ط. القاهرة ١٩٤٩.

ظهر الاسلام، القاهرة ١٩٥٢

البرغوثى. عمر الصالح

تاريخ فلسطين، القدس،١٩٢٣.

بروكلمان. كارل

تاريخ الشعوب الاسلامية فى القرن ٤هـ، بيروت ١٩٦٨.

جبرى. شفيق، العناصر النفسية فى سياسة العرب، القاهرة ١٩٤٥

الجميل. مكى، البدو والبداوة فى البلاد العربية، سرس الليان ١٩٦٢.

جوهر. يوسف

تاريخ لبنان العام.

حتى. فيليب

تاريخ سوريا، بيروت ١٩٥٨، كمال اليازجى.

حسن. على ابراهيم

تاريخ الاسلام العام، القاهرة ١٩٥٣.

حلمى. محمد مصطفى

ابن الفارض سلطان العاشقين، القاهرة ١٩٦٣.

حمدى . حافظ احمد

الدولة الخوارزمية والمغول، القاهرة ١٩٤٩.

الحوفى. احمد

الطبرى، القاهرة ١٩٦٣.

الخادم. سعد

الازياء الشعبية، القاهرة ١٩٦١.

خانجى. انطون

مختصر تواريخ الارمن، القدس ١٩٦٨.

خطاب. محمود شيت

عقبة بن نافع الفهرى، القاهرة ١٩٧١.

خورشيد. ابراهيم زكى

دائرة المعارف الإسلامية

خورشيد. فاروق

اضواء على السير الشعبية، القاهرة ١٩٦٤.

زترستين.ك.ف.

نصوص عربية من دولة المماليك، ليدن ١٩١٩.

زيدان. جورجى

تاريخ التمدن الاسلامى، القاهرة ١٩٢٩.

سالم. السيد عبد العزيز

طرابلس الشام، الاسكندرية، ١٩٦٧.

السيد. احمد لطفى

قبائل العرب فى مصر، جزء اول، القاهرة ١٩٣٥.

الشرباصى. احمد

شكيب أرسلان داعية العروبة والاسلام، الجيزة ١٩٦٣.

الشرقاوى. عبد المنعم

الاطلسى العربى

شقير. نعوم

تاريخ سينا، القاهرة ١٩١٦.

عاشور. سعيد عبد الفتاح

الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٦٣.

العصر المماليكى، القاهرة ١٩٦٥.

علي. محمد كرد

خطط الشام.

عون. عبد الرؤوف

الفن الحربى فى صدر الاسلام. القاهرة ١٩٦١.

غوانمة. يوسف

التاريخ الحضارى لشرقى الاردن.

التاريخ السياسى لشرقى الاردن، ط. ثانية ١٩٨٢.

فهمى. عبد الرحمن

النقود العربية، القاهرة ١٩٦٤.

قساطلى. نعمان

الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء، بيروت ١٨٧٩.

كحالة. عمر رضا

معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ٣ أجزاء - بيروت ١٩٦٨.

كمال. عمر

مقدمات العدوان الصليبى، الاسكندرية ١٩٦٦.

ماجد. عبد المنعم

الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٣.

مبارك. على

الخطط التوفيقية، القاهرة ١٣٠٥هـ.

متز. آدم

الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ.

موسى باشا. عمر

أدب الدول المتتابعة، عصور الزنكيين والايوبيين والمماليك، ط. ثانية لبنان.

وجدى. محمد فريد

دائرة معارف القرن العشرين.

يوسف. جوزيف نسيم

العدوان الصليبى على بلاد الشام، الاسكندرية ١٩٧١.

يونس : عبد الحميد

الظاهر بيبرس فى الأدب الشعبى، القاهرة ١٩٥٦

الدوريات

- مجلة الحوليات الاثرية السورية، المجلد العاشر - دمشق ١٩٦٠.
- مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية ، مجلد ١٦، ١٩٦٢.
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، رقم ٤٨، ابريل ١٩٧٣.
- مجلة جامعة الموصل - كلية الآداب، العدد التاسع- ايلول ١٩٧٨.
- مجلة البحوث الاسلامية.هيئة كبار العلماء بالرياض. العدد ١١ذى الحجة ١٤٠٤هـ.

المراجع الأجنبية - الدوريات

المراجع الأجنبية

Abd Arrazik (Ahmed).

La femme au temps de Mamelouks en Egypte, Le caire. 1973.

Van Berchem (Max).

Fatio : Voyage en Syrie dans memoires de l'institue Français d'orchologie oriantale du Caire.

1914.

Catalogue de la phototheque Geneve. 1075.

Epigraphie de Assasins de Serie, Paris, 1897.

Canard (Marius)

Sayf Aldula. Alger. 1934.

Combe (Etienne)

Repértoire chropologique arabe.

t. 12. 14 le Caire, 1954. L'institue Françai.

Gibb. A.R.

Damascus Chronicle introd. p.p. 17,19

Goldziher.

Etudes sur la tradition Islamique, Paris 1925.

Lane Poole (Stanly).

Catalogue of the Mohamehamedan coins. Oxford. 1888.

Catalogue of the collection of the Arabic Coins. Oxford. 1897.

Hitti (Philip).

History of Syria. London, 1957.

Sauvaget (Jean).

Memento chronologique d'histoire musulemane Paris, 1954.

الدوريـات :

- Jovrnal Asiatic society. Calcutta 1837-1883.
- Bulletin et Memoires de la société de geographi de Paris.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
التمهيد	٣
محتوى الكتاب	٧
نقد المصادر	٩
الفصل الأول : أحوال الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك الوصف الجغرافى. التقسيم الاداري. أهل الشام. المذاهب والعقائد	٣٢
الفصل الثانى : العصبية العربية فى الشام	٩٧
الفصل الثالث: دور القبائل العربية السياسى والحربى فى الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك	١٢٠
الفصل الرابع : الدور الحضارى للقبائل العربية فى الشام	١٧٧
الخاتمة	٢١٨
الصور والخرائط	٢٢٣
المصادر والمراجع العربية- الدوريات	٢٣٩
المراجع الأجنبية - الدوريات	٢٥٣

رقم الايداع ٩٥/٤٧٥٧

رقم الايداع الدولى 5-00-5655-977

العرب فى أخطر المعارك الحربية فى تاريخ العالم

دكتور

محمود السيد

منشأة المفكرين -اسكندرية